ثورة النقد في عالم الأدب والفلسفة والسياسة

القسم الأول

القضايا والمشكلات من منظور الثورة النقدية

د. عاطف العراقي



ت ٠٣/٥٣٥٤٤٣٨ - اسكندرية



أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

ثورة النقد فى عالم الأدب والفلسفة والسياسة

القسم الأول

القضايا والمشكلات من منظور الثورة النقديـة

د.عاطف العراقى

أستاذ الفلسفة العربية

كلية الآداب - جامعة القاهرة

النــاشــر

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

ت : ٥٣٥٤٤٣٨ -اسكندرية



أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية



ثورة النقد فى عالم الأدب والفلسفة والسياسة

القسم الأول

القضايا والمشكلات من منظور الثورة النقدية

ثورة النقد فى عالم الأدب والفلسفة والسياسة

القسم الأول

قضايا ومشكلات من منظور الثورة النقدية

د. عاطف العراقى

كمبيوتر: (دار الوفاء)

الطباعة: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

شارع ملك حفنى، قبلى السكة الحديد

بجوار مساكن دربالة أمام بلوك ٣

الرقم البريدى: ٢١٤١١ فيكتوريا - اسكندرية

رقم الإيداع: ٣٢٢٥ / ٢٠٠٠

الترقيم الدولى: 3 - 051 - 327 - 977



الزعيم الخالد / مصطفى النحاس باشا


أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

الإهـــــداء

إلى روح الرجل الذى تجسدت فيه القيم النبيلة والأفكار السامية.

إلى من خصص حياته لخدمة أبناء مصر والعروبة.

إلى من التقيت به وأنا فى المهد صبياً. واستوعبت كلماته منذ سنوات الشباب.

إلى من ظلم حياً وظلم ميتاً.

إلى الزعامة والزعيم " **مصطفى النحاس باشا** "

أهدى هذا الكتاب حتى تسعد روحه فى السماء.

وأنا أقول فى شوق لها مخاطباً بعد حياتى التى امتزج فيها الألم بالشقاء:

اذكرينى.... فقد آن الأوان للقاء الروح بالروح،

بعد أن باعد بيننا الزمان والمكان.

عاطف العراقى

٢٣/٨/١٩٩٩م


أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

شكر وتقدير

يتوجه المؤلف بأعمق آيات الشكر والتقدير لجميع المؤسسات الفكرية والثقافية داخل مصر وخارجها والتى استمر التعاون معها طوال فترة إعدادى لهذا الكتاب، ومازال التعاون بيني وبينها مستمراً. كما أتوجه بشكرى إلى جميع الزملاء والأصدقاء الذين شاركوا فى المعارك الفكرية التى أشرت إليها فى هذا الكتاب، رغم الخلاف بينى وبينهم. لقد كانت آراؤهم النقدية فى مجالات الأدب والفلسفة والسياسة عاملاً رئيساً لتعميق دائرة الحوار وإبراز الثورة النقدية.

عاطف العراقى


أهم جروبات على تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

تصدير عام

النقد الحقيقى والنقد الزائف: (نقاد وأشباه نقاد)

ليس لدينا نقد ولا نقاد. هذا ما قلت به منذ عشرات السنين، ولم أجد مبرراً للتراجع عنه وإذا وجدنا القليل من النقاد المعاصرين من أمثال د. طه حسين، عباس العقاد، وتوفيق الحكيم، د. محمد مندور، وزكي نجيب محمود، د. فؤاد زكريا، ولويس عوض وفاروق عبد القادر، فإن هذا لا يدلنا على أن النقد فى مصر قد أصبح ظاهرة ملموسة وعامة.

لقد اختفى النقد الحقيقى أو كاد، وسط النقد الزائف. اختفى النقاد الحقيقيون وسط مئات من أشباه النقاد، وإن كان أكثرهم لا يعلمون.

لا تصدقوا أيها السادة قول من يزعم لنفسه إنه يعد ناقداً، إذ أن المسافة بينه وبين النقد كما ينبغى أن يكون، تعد أبعد من المسافة بين الإنس والجن، والمسافة بين الشرق والغرب. وإذا زعم مجموعة من الناس فى مصرنا المعاصرة وعالمنا العربى، بأنهم يدخلون فى دائرة النقاد، فلهم دينهم ولنا دين، إنهم يعبرون فى نقدهم عن النقد الزائف، النقد الذى لا يقوم على أساس علمي موضوعى.

النقد يا سادة يعد علماً ولا يعد فناً. يعد معبراً عن جانب موضوعى مشترك، وليس عن بعد ذاتي. إن الفنان أو الأديب يعد عمل كل منهما معبراً عن بعد ذاتي إلى حد كبير، ونحن نقول: العلم نحن والفن أنا. ولكن إذا درس الناقد عملاً من الأعمال الفنية أو الأعمال الأدبية، فهنا لابد أن يدخل فى دائرة الموضوعية، فالنقد له أسسه الموضوعية المشتركة. وراجعوا ما

شنتسم أى كتاب من الكتب التى تدرس وتحلل أبعاد المنهج النقدى، بشرط أن يكون من الكتب الجادة التى يعد صاحبها من النقاد الجادين الدارسين، وخاصة الكتب المؤلفة بلغات غير العربية، وسوف تذهبون معى إلى القول بأن النقد يعد علما له أسسه المشتركة، وليس فنا له أبعاده الذاتية.

لو كنا قد وضعنا ذلك فى اعتبارنا معشر العرب، لكانت الحال قد أصبحت غير الحال.ولكن ماذا نفعل إزاء المفسدين فى الأرض، والذين تحكمهم الشللية والمصالح المادية الخاصة، ومن بينها البترو فكر. إنهم أناس من الأشباه والأقزام وأنصاف الآدميين، يتكلمون فى كل شئ، دون فهم من جانبهم لأى شئ. إنهم يسألون أولا: من ياترى مؤلف العمل الذى سنعرض لدراسته ونقده، فإذا كان صاحب العمل صاحب منصب يبتغون من ورائه مصلحة مادية على اختلاف صور هذه المصلحة، فإنهم وبدون قراءة واعية لهذا العمل أو ذاك من أعماله، يأخذون فى الثناء على العمل وصاحبه!!!

نعم ليس لدينا نقد ولا نقاد. وأكثر الأعمال التى يزعم لنا أصحابها أنها تعد نقدا، فإن مكانها الحقيقى سلة المهملات. إنها تعد جهلا على جهل. أعمال قدمها لنا أناس بعضهم غادرنا إلى عالم الآخرة، وبعضهم الآخر لا يزال بيننا يفسد فى أرضنا الثقافية والفكرية.

إن أعمالهم التافهة والصادرة عن نوع من الإسهال الفكرى تعد صادرة عن إيمان من جانبهم بصناعة "عملقة الأقزام" إنها صناعة تحاول أن تجعل من القزم عملاقا. وقد انتشرت للأسف الشديد هذه الصناعة التى تعد معبرة عن نوع من الغش الفكرى والعياذ بالله. ولكن ماذا نفعل ونحن فى عالمنا العربى نجد محاكم للغش التجارى، ولا نجد محاكم للغش الفكرى، وكأننا فى عالمنا العربى نهتم بغذاء البطون ولا نضع فى اعتبارنا أن القضية ، الرئيسة هى قضية الغش الفكرى، التزوير الثقافى، وأننا إذا

كنا نتحدث عن تلوث غذائى، فإننا نجد فى نفس الوقت تلوثاً خلقياً، تلوثاً فى الضمائر، وإن كان أكثرهم لا يعلمون.

أين الضمير يا سادة حين يحاول أشباه النقاد خلع هالات الإعجاب والتقديس على مجموعة من الأعمال التافهة، وفى نفس الوقت نجدهم يوجهون مجموعة من الشتائم لأعمال جادة، بل يحاولون اخفاءها وجعلها فى منطقة الظل. ولا أشك أن هذا العمل من جانبهم إنما يكشف عن تخلفهم العقلى والعياذ بالله.

لقد ظهرت إلى السطح شخصيات لا نجد لديها العمق الثقافى، أى عمق، فى حين أننا تعمدنا إخفاء أعمال أصحاب الثقافة الجادة، أعمال أناس آمنوا بربهم، وآمنوا بوطنهم.

نعم لا نجد لدينا نقداً ولا نقاداً. النقد يا سادة مكانه الآن فى الغرب، والغرب فقط. إننا نجد فى الغرب نقدًا علميا دقيقا، نقدًا جادًا، إن النقاد فى الغرب بوجه عام لأن أخطر شئ هو الكلمة المطبوعة. والمؤلف، أى مؤلف، وفى أى ميدان من الميادين، يدرك أن عيون النقاد مسلطة على كل عمل يصدر عنه، يدرك أن النقد يعد بعيداً بعداً تاماً عن المجاملة، وعن عملقة الأقزام، ولذا فإننا نراه قبل أن يكتب كلمة واحدة، يضع ذلك فى اعتباره. إن ما يشفع له هو عمله، وليس الشللية، أو أن يكون صاحب منصب. وإلا كيف نبرر أننا من النادر أن نجد عندهم عملاً تافهاً وفى أى ميدان من الميادين الفكرية والثقافية والأدبية والفنية، فى حين أننا فى عالمنا العربى نجد كماً، وكماً هائلاً من التفاهات، ومن التضليل الفكرى، لأن المؤلف مطمئن تماماً إلى أن النقد الجاد يعد فى حالة سبات، والناقد الجاد يعد غائباً عن الوعى.

ماذا يضير المؤلف وهو مطمئن تماماً إلى أن العلاقات الشخصية، وتبادل المصالح، هى وحدها التى ستؤدى إلى التفخيم فى كل عمل من الأعمال التى تصدر عنه، فى حين أنها أعمال مكانها الطبيعى، كما قلت، هو سلة المهملات، وبحيث أننا لو التزمنا بالموضوعية فلابد أن نقول لتلك الأعمال، إلى الجحيم وبئس المصير، وإن كان أكثرهم لا يعلمون.

ونود القول بأن النقد يرتبط ارتباطا ضرورياً بأهمية العمل الفكرى. فمن أسباب غياب النقد والنقاد، أننا من النادر أن نجد عملاً متميزاً يستحق أن تسلط عليه أضواء النقد.

لابد إذن من وجود الأعمال الجادة، حتى نتوقع وجود النقد الجاد، وهل ننتظر من الناقد الجاد، أن يتصدى لنقد عمل، وهو يرى أن هذا العمل لا يصلح أساساً أن يقدم للمطبعة، وبحيث يعد جهلاً على جهل، وصادراً عن أفراد يكتبون فى كل شئ، دون فهم- كما سبق أن أشرنا منذ قليل - من جانبهم لأى شئ. كلا ثم كلا. فإذا طلبت مثلاً من لاعب متميز من لاعبى كرة القدم، أن يشترك مع صغار من اللاعبين، فإنه سوف لا يتردد فى الرفض وعدم القبول، وبحيث يقول إن أشباه أو صغار اللاعبين ليسوا فى مستواه. وعلى أشباه اللاعبين البحث عن أشباه آخرين لكى يقوموا باللعب معهم.

هذا على وجه اليقين، ما أقصده. إن النقد لا يمكننا أن نتوقع ازدهاره إلا إذا وجدنا ازدهارا فى كل جوانب حياتنا الفكرية. ولعنة الله على بعض وسائلنا الإعلامية التى قامت بتسليط الأضواء حول أناس تحسبهم من الأدباء والمفكرين وهم من الأشباه والأقزام وصغار القوم وأنصاف أو أرباع المثقفين. لعنة الله على أكثر الجوائز التى انتشرت فى عالمنا العربى، والتى لا تعطى فى الأغلب والأعم إلا للأشباه والأقزام وأصحاب النفوذ

والمصالح، والذين يجيدون لعبة الملاكمة والمصارعة، وبحيث تكون أعمالهم صالحة لدنيا الأجسام، ولا صلة لها بدنيا الفكر، دنيا الثقافة.

نقول هذا ولا نتردد في تكراره، طالما نجد في أرضيتنا الثقافية النقدية، من يفسد فيها، ويريد لدنيانا الثقافية، أن تصبح خرابا بلقعا. نعم إن المتأمل فى حياتنا الثقافية يجد أن الفكر السائد الآن هو فكر الأقزام، وتوجد أسباب عديدة جعلت هذا الفكر – للأسف الشديد – هو السائد فى أكثر بلداننا العربية.

هذا الفكر يختلف عن فكر الدول الأوروبية بوجه عام، ففكر الدول الأوروبية يعد فكرا حيا ناضجا، أما فكرنا نحن فيعد فكرا فقيرا.. فكرا زائفا.. فكرا ميتا، ومن هنا لا نجد له أى أثر يذكر، ومن النادر أن تهتم به البلدان الأوروبية، لأنه فكر كسيح وليس فكرا ناضجا.

وتوجد أسباب عديدة جعلت فكرنا جافا زائفا لا فائدة منه، ولابد من التصدى لهذه الظاهرة وعلاجها لا يكون عن طريق محلول معالجة الجفاف الذى يعطى للأطفال، ولا يكون عن طريق غرف الإنعاش فى المستشفيات، لأنه فكر أصبح ميتا أو فى طريقه إلى الموت.

قلنا أنه توجد أسباب عديدة أدت إلى ظاهرة الفكر الذى يعبر عن فكر الأقزام والكائنات المشوهة . من هذه الأسباب أننا فى أحيان كثيرة نقدر الفكر بمعيار صاحب المنصب وهذه تعد معبرة عن ظاهرة "عملقة الأقزام" بمعنى أن الفكر إذا صدر عن صاحب منصب، فإن السذج من الناس وذوى العقليات المسطحة يظنون أن هذا الفكر لابد أن يكون فكرا جيدا فى حين أنه على العكس تماما إذ يعد فكرا كسيحا، فكرا فقيرا وإلا كيف نبرر أن الفكر الجاد رفيع المستوى إنما هو من صدر عن أناس لم يتقلدوا منصبا من المناصب.

أذكر أنى حين أردت عمل نظارة طبية وسألت بعض الناس عن اسم طبيب له خبرة فى هذا المجال، رشح لى البعض اسم طبيب قلت لهم: هل أنتم على يقين من براعة هذا الطبيب؟.. فقالوا: نعم نحن علـى يقيـن، لأن هـذا الطبيب كان صاحب منصب من المناصب الإدارية الكبرى.

أرأيتم أيها القراء الأعـزاء سـيطرة المنصـب وخـداع أصحـاب المناصب..!! إننى على يقين بأن هذا الفكر لو قال به صاحبه، بصرف النظر عن منصبه، فإن مكانه الطبيعى هو صناديق القمامة كما قلت والعيـاذ بـالله. ومن العجيب أن الفيلسوف الانجليزى فرنسس بيكون قد نبهنا إلى ذلـك منـذ أكثر من ثلاثة قرون، ولكننا لم نضع ذلك فى اعتبارنا واكتفينا بالبكاء علـى الأطلال وأخذنا نقول: أمجاد يا عرب أمجاد.. نعم إننى مضطر لأن أذكر تلك الحقيقة المؤلمة، نظرا لأننا نجد على أرض حياتنا الثقافية من يفسد فيها.

سبب ثان وراء انتشار هذا الفكر، أى فكر المتخلفين عقليـا وبالتـالى غياب الروح النقدية هو ما نسميه انتشار ظاهرة "البتروفكر"، أى الفكر الـذى يرتبط بالبترول ارتباط البترول بالدولار، وأكثر مـن يكتبـون الآن للأسـف الشديد، إنما نجد فكرهم معبرا عن ظاهرة "البتروفكر" فإذا كتبت مقالـة عـن فكر عقلية رجعية، فإنك ستنال التقدير المادى. أما إذا كتبت عن عقلية تنويرية لا يرضى عنها من يملكون ثروات البتـرول والدولار "كابن رشد" مثلا فإنها فى الغالب سوف لا تنشر وبحيث يستحق صاحبها العقاب من هـؤلاء الذيـن يتمسكون بالفكر الفقير: فكر الأقزام. وإلا كيف نبرر أن دول العالم الأوروبى بصفة خاصة هى التى اهتمت بفكر "ابن رشد" وقامت بالإحتفال بمرور ثمانية قرون ميلادية على وفاته. أما نحن فماذا فعلنا؟!.

سبب ثالث لهذه الظاهرة المؤسفة يتبلور حول عـدم إهتمامنـا بفتـح النوافذ على الفكر الغربى فأصبح فكرنا ميتا وأصيب بضيق التنفس، وبحيـث

لا نجد لدينا أية نظرية علمية، وأية نظرية فكرية أدبية فلسفية نقدية، ومن يزعم غير ذلك كمن يحارب طواحين الهواء. ومن أراد لنفسه الثقافة الجادة، الثقافة الحية، فلا مفر من أن ينهل من الفكر الأوروبى. هذا قدرنا، لأن فكرنا أصبح فكر أصحاب المناصب. أصبح فكرا معبرا عن البترول، فكرا يعد بعيدا بعدا تاما عن الفكر الجاد، وبحيث أصبحت المسافة بينه وبين الفكر العميق أبعد من المسافة بين الإنس والجن. بين المشرق والمغرب.

لا يمكن أن ننتظر فكرا رفيع المستوى وبحيث نقدمه لأوروبا ونقول لهم هذه بضاعتنا الجديدة إلا إذا تخلصنا تماما من الفكر الذى يرتبط بالمنصب. الفكر الذى يرتبط بالبترول، الفكر الذى يحاط بهالات إعلامية دون مبرر. ويقينى أن هذه النوعية من الفكر إذا استطاعت خداع الناس لفترة من الزمان، فإنها لن تستطيع الإستمرار فى عملية الخداع.

أفيقوا يا عرب.. فنحن الآن فى عصر جديد نجده فى أوروبا، ولكن رغم ذلك فإنه لا يوجد دليل واحد على أننا سنبتعد عن الفكر الفقير، الفكر الزائف.. فكر الأقزام. ومن هنا فلا يصح أن نتوقع أن نجد لدينا نقدا جادا، نقدا علميا، نقدا موضوعيا. نقول هذا، لأنه يرتبط ارتباطا وثيقا بقضية المحلية والعالمية.

لقد كثر فى السنوات الأخيرة الحديث عن قضية العالمية، وهل يعد أدبنا العربى أدبا عالميا؟ ونود الكشف عن الأخطاء والمغالطات التى نجدها عند من يتصورون أن أدبنا العربى أدب عالمي . نود أن نبين أن أدبنا العربى وبكل صوره وأنواعه لا يخرج عن نطاق المحلية، وأن المسافة بينه وبين العالمية أبعد من المسافة بين الإنس والجن، بين القطب الشمالى والقطب الجنوبى.

إننا إذا نظرنا إلى أدبنا العربى شعرا كان أو نثرا وخاصة فى عصرنا الحديث، فسنجد أنه يعد مسرفا فى المحلية والإقليمية، إذا فهمه أبناء الوطن العربى، فإنه من منظور الغرب بصفة خاصة يعد أدبا هزيلا لا يزيد أكثره - وخاصة فى مجال الشعر - عن كونه مجموعة من الكلمات المتقاطعة والتى لا يفهمها القائل بها، فضلا عن القراء.؟

فالعالمية لها شروطها وقواعدها. تقتضى العالمية أن يكون الأديب صاحب اتجاه ليس مجرد مقلد للآخرين . فصاحب الإتجاه والذى يلتزم بقواعد العمل الأدبى، تلك القواعد التى نجدها مذكورة فى كل كتب النقد الأدبى الأجنبية بصفة خاصة، من حقه أن يكون داخلا فى إطار العالمية ، وأن يكون أدبه متصفا بصفة العالمية. إن أدبه يتخطى حدود الزمان والمكان.. لغته الأدبية لا تكون موجهة إلى أبناء وطنه فقط وفى زمن معين، بل إنها تكون موجهة إلى أبناء البشرية وبصرف النظر عن الحدود الزمانية والقيود المكانية.

ندلل على ذلك بالقول بأن مسرحية لشكسبير أعظم شعراء العالم لا تكون موجهة إلى الشعب الانجليزى فى عصر معين، ولكنها موجهة إلى كل أبناء العالم فى كل زمان وفى كل مكان، أليس هذا على العكس تماما من أدبنا العربى. إن الأديب العربى لا يكتب إلا وهو يضع فى اعتباره أن قصته لابد أن تكون ملائمة لإخراجها كمسلسل تليفزيونى، أو فيلم من الأفلام السينمائية، يقبل عليهما عامة الناس أساسا. وهذا يعد دليلا قويا على أدبنا العربى المحلى الضحل لقد ضربنا بقواعد العمل الأدبى عرض الحائط. واستحال النقد عندنا كما قلنا إلى نوع من الشللية، هذا فى الوقت الذى كان ينبغى أن نضع فى اعتبارنا أن العمل الأدبى إذا كان معبرا عن الذات إلا أن النقد، نقد العمل الأدبى، يعد كما قلنا علما لافنا، يعد موضوعيا وله قواعده ولا صلة له بالذاتية.

هذا الفهم الخاطئ للنقد الأدبى، أدى بنا إلى الرجوع إلى الوراء، والصعود إلى الهاوية. وإذا كنا لا نجد نشاطا فى مجال النقد الأدبى، فإن سبب ذلك أننا لا نجد أعمالا أدبية تستحق أن يقف عندها الناقد الجاد. لقد اختفت الأعمال الأدبية الجادة التى كانت تدفع بحركة النقد إلى الأمام تماما كما نقول إننا إذا طلبنا من عالم كبير أن يتحاور مع مجموعة من المتخلفين عقليا، فإن ذلك العالم سوف لا يقبل ذلك، لأنه لا يتحاور إلا مع أمثاله. فإذا كنا نجد الآن مجموعة من القصص والمسرحيات لا تعبر إلا عن نوع من ثرثرة النساء، والحديث على المقاهى، فهل ننتظر من الناقد أن يتصدى لنقد هذه الأعمال الهزيلة.. إننا لا نجد الآن فى عالمنا العربى المعاصر شخصا واحدا يمكن أن نطلق عليه صفة الشاعر، إلا إذا فهمنا الشعر على أنه مجموعة من الكلمات المرصوصة بجوار بعضها البعض دون وعى ولا شعور. وإذا قيل بأن هذه الكلمات تعد شعرا حديثا لأنها لا تلتزم بقواعد الشعر كما ينبغى أن يكون وكما قال به شعراء عظام من أمثال أبى العلاء المعرى والمتنبى وابن الرومى فإن سبب ذلك أن من يطلقون على أنفسهم الآن أنهم من الشعراء، ليست لديهم القدرة على إبداع قصيدة واحدة تلتزم بقواعد العمل الفنى والأدبى. إنهم يمثلون العجز والإفلاس وإذا كان أدبنا العربى على اختلاف صوره يمثل هذه الحالة التى يؤسف لها، فمن الغريب إذن أن نجد بعض الأصوات التى تصدر عن أناس من متخلفى العقول، تقول عن إنتاجها الهزيل وكتاباتها الضعيفة إنها تستحق جائزة نوبل، وإنها ترقى إلى مستوى العالمية !!! إننا إذا استبعدنا الضجة الإعلامية والطبل الأجوف، فإننا نقول ونكرر القول بأننا إذا وجدنا اقترابا من دائرة العالمية فى أشعار العرب القدامى وسواء عبروا من خلال أشعارهم عن أدب التعبير (البحترى)، أو أدب التفسير (أبو العلاء المعرى والمتنبى)، فإننا نجد ابتعادا تاما عن دائرة

العالمية فى كل أنشطة الإنتاج الأدبى الحديث، هذا إذا سلمنا أساسا بأن هذا الإنتاج يعد داخلا فى مجال الأدب.

أليس من مصائب الزمان أن نقول بما يسمى "الأدب النسائى" فى الوقت الذى نجد فيه أن المرأة العربية بصفة خاصة ليست لديها القدرة أصلا لكى تقدم لنا أى شئ فى مجال الأدب. وحللوا ما شئتم من كتابات للمرأة، يقال عنها إنها تعد أعمالا أدبية، وسترون أن كل هذه الأعمال لا صلة بينها وبين الأدب من قريب أو من بعيد، إنها أحاديث منزلية وكلمات تقال فى صالونات المنازل.

وإذا قيل بأن أديبنا الكبير نجيب محفوظ قد حصل على جائزة نوبل، فإننا نقول إن هذا لا يعد دليلا على العالمية. لقد ذكر لى أديبنا الكبير نجيب محفوظ فى لقاء ثم بيننا أنه حصل على الجائزة لأنه لم يكن موجودا فى عصر العمالقة من أمثال طاغور فإذا كان نجيب محفوظ وهو من هو فى مجال الأدب الرفيع يقول، بهذا القول فهل يصح أن يذكر أشباه الأدباء عندنا، أن أدبهم قد دخل فى نطاق العالمية. كلا ثم كلا. إن نتاج مطابعنا العربية. لا يكشف إلا عن أدب ضعيف المستوى، أدب محلى مسرف فى المحلية، وإن كان أكثرهم لا يعلمون.

نقول هذا ولابد من تكرار القول به، لأنه يرتبط ارتباطا وثيقا بغياب النقد الجاد، النقد البناء، النقد الذى يعد كما قلنا علما، وليس نوعا من الفهلوة والمجاملة بلا أدنى مبرر.

إنه غير مجد فى ملتى واعتقادى قيامنا نحن كعرب بالتغنى بأمجاد الماضى والبكاء على الأطلال، وبحيث نقول باستمرار فى المجال الفكرى أمجاد يا عرب أمجاد. ليس من المناسب إذن أن نقف عند التراث لمجرد أنه تراث، بل لابد من أن نتجاوز مرحلة التراث، بحيث ننفتح بكل قوتنا على

التيارات العلمية والفكرية والأدبية والفلسفية والتى تزدهر الآن فـــى البلـــدان الأوروبية بصفة خاصة.

إن من يتأمل تاريخنا الفكرى كعرب سوف يصاب بالدهشـــة البالغـــة حين يقارن بين الماضى والحاضر، الماضى يعد مزدهـــرا بصـــورة لا حـــد لهـــا، أما الحاضر فقد أصبحنا للأسف الشديد وكأننا ليس لدينا إبداع فـــى أى مجال من مجالات العلوم الإنسانية وغير الإنسانية. أصبحنا أصحاب توكيلات فكرية وبحيث ساد فكرنا نوع من التراخى والإضمحلال وانتشر أنـــاس مـــن متخلفى العقول بيننا وأشباه الباحثين.

نعم.. كان الماضى السعيد مزدهرا بالعديد مـــن التيـــارات العلميـــة والفكرية والفلسفية، وجدنا فى الماضى فلاسفة من طراز ممتاز أمثال الفارابى وابـــن سينا فى المشرق العربى، وابن ماجه وابن طفيل وابـــن رشـــد فـــى المغرب العربى. وجدنا أدباء قد يصل إنتاجهم الأدبى إلى مرحلة تقرب إلـــى العالمية من أمثال المتنبى وابن الرومى وأبى العلاء المعـــرى. وجدنـــا فـــى الماضى علماء آمنوا بربهم وآمنوا بوطنهم وقدموا لنا نتاجا علميا من أمثـــال جابر بن حيان والحسن بن الهيثم والبيرونى وابن سينا وأبى بكر الرازى. وكم استفاد الغرب من مؤلفاتهم فى فجر نهضته العلمية وبعد أن تمت ترجمة كتبهم إلى العديد من اللغات الأوروبية.

هذا شئ لابد أن نعترف به فالعيب إذن ليس فى طبيعة العربى. فـــإذا وجدنا نوعا من الصعود إلى الهاوية، وجدنا اضمحلالا ثقافيا، وجدنا تراجعـــا عـــن الإزدهار العلمى وعدم مواصلة السير فى طريق العلم وبحيث يمكننا أن نقول دون أدنى مبالغة بأننا إذا أردنا كتابة تاريخ العلـــم الـــذى يـــؤدى إلـــى تطبيقـــات تكنولوجية، فإن العرب لا يستحقون إلا سطرا واحدا أو ســـطرين من هذا التاريخ الحافل، نقول... بأن المقارن بين حالتين، حالة الماضى وحالة الحاضر، بين مرحلتين: مرحلة كانت تمثل الماضى ومرحلة تمثل الحـــاضر

الذى نعيشه الآن، فإن المقارن سوف يشعر بالأسى والحزن والأسف حين يجد فى الماضى نماذج مشرقة ولا يجد فى الحاضر إلا نماذج خافتة شاحبة لا تمثل أى نوع من أنواع الإزدهار والتقدم.

ما هى الأسباب إذن التى أدت إلى هذا التناقض والخلاف الكبير بين أمجاد الماضى والجفاف الفكرى فى الحاضر لدينا نحن العرب؟

لابد أن نعترف صراحة بأننا لن ننفتح على التيارات الفكرية والعلمية عند البلدان الأوروبية، إن حكمة الله تعالى قد تمثلت فى خلق عيوننا فى مقدمة رؤوسنا، وكأن الله تعالى يطلب منا أن ننظر إلى الأمام باستمرار، ننظر إلى المستقبل المشرق الوضاء، وبحيث ننظر فى غضب إلى الماضى إذا وجدنا فيه كما من الخرافات قد لا تصلح لعصرنا الحديث، عصر العلم عصر العقل عصر النور والتنوير.

إن معالجة الجفاف الفكرى والذى انتشر بيننا الآن كعرب، لا يكون علاجه بطبيعة الحال عن طريق محلول الجفاف والذى يعطى للأطفال ، بل إن معالجة الجفاف الفكرى لا يكون إلا عن طريق فتح النوافذ أمام كل التيارات الحديثة، التيارات التى توجد الآن فى البلدان الأوروبية. ولا يصح أن نخشى شيئا من انفتاحنا على هذه التيارات والتأثر بها والأخذ عنها، إذ أن صاحب المعدة القوية لا يخشى من تناول أى نوع من أنواع الطعام.

إن من قبيل إضاعة الوقت أن نتحدث عن قضايا أصبحت زائفة. قضايا فى خبر كان إن صح التعبير. قضايا لا يتحدث عنها الآن إلا من هم على درجة قليلة من الذكاء، وعلى درجة كبيرة من التخلف العقلى والعياذ بالله.

من هذه القضايا وعلى سبيل المثال لا الحصر، قضية الهجوم على الحضارة الأوروبية ومن المؤسف له أن من يهاجمون الحضارة

الأوروبية لا يضعــون فى اعتبارهم أن العالم أصبح قرية صغيرة وأنـــه لا مفر من التعرف على كل جوانب الثقافة الأوروبية.

من المؤسف له أن من يهاجمون الحضارة الأوروبية يكونون عـــادة من أكثر الناس استفادة من تطبيقات هذه الحضارة بل إن مــن يــهاجم هــذه الحضارة ويسعى فى نفس الوقت إلى الإستفادة من منجزاتها الرائعة إنما يعبر موقفه عن نوع من التناقض،إذ كيف أهاجم الحضارة الأوروبية عن طريـــق ميكروفون، وهذا الميكروفون ثمرة من ثمرات الحضارة الأوروبيـــة. كيــف أهاجم الحضارة حين أقوم بتأليف كتاب يطبع فى المطبعة، والمطبعة ثمرة من ثمرات هذه الحضارة. كيف أهاجم الحضارة الأوروبية وأقـــوم فـــى نفــس الوقت باستخدام الطائرة والسيارة فى تنقلاتى وكلها تعد إنتاجــا أوروبيـــا؟!.. وهكذا إلى آخر الأمثلة التى أضاع العرب وقتهم فيـــها دون فـــائدة وبحيــث أصبحنا كعرب أضحوكة بين أمم العالم الأخرى، الأمم التـــى أرادت لنفســـها التقدم إلى الأمام. ومن حكمة الله تعالى أن المتأخر لابد أن يلحق بالمتقدم، ولا يصح أن نطلب من المتقدم أن يقف فى مكانه حتى يلحق به المتأخر. هذه سنة الله فى خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

أفيقوا يا عرب، فالعالم ليس فيه مكان للضعيف نظرا وعملا. العـــالم ليــس فيه مكان إلا للقوى علما وعملا. ألم نضع فى اعتبارنا أن أكــثر - إن لم يكن كل الإنجازات العلمية - التى ننعم بها الآن إنما تمت خـــلال قـــرون ثلاثة فقط هى القرن الثامن عشر، والتاسع عشـــر، والقـــرن العشـــرون. إن الإنجازات التى تمت خلال هذه القرون إنما كان أكثرهـــا آتيـــا مـــن العـــالم الأوروبى. العالم الذى لم يقف عند تراثه فقط وبحيث يقوم بـــالتغنى بأمجـــاد ماضية كما نفعل نحن العرب حاليا، بل إنه ترك ماضيا وانطلق للإبداع بكـــل صوره، أما نحن العرب فقد أصبحنا نأخذ من الحضارة الأوروبية، نســـتهلك

الحضـــارة ولا نسهم بنصيب، أى نصيب. أصبحنـــا كمـــا نقــول أصحـــاب توكيلات فكرية.

كم من القضايا الزائفة التى قمنا بإضاعة وقتنا فـــى بحثـــها كقضيـــة أسلمة العلوم، وقضية تصور صراع بين التقدم العلمى والأخلاق، وغيرهمـــا من قضايا ثـــار حولها الجدل، بل اللغط . إن غياب البعد النقدى هو الذى أدى إلىّ هذا الكم من الأخطاء، بل المغالطات.

فلننطلق إذن كعرب حتى نحاول وصل ما انقطع، وصـــل حاضرنـــا بماضينا السعيد وحتى لا نستمر فى لطم الخدود والبكاء على الأطلال، وبحيث نسهم مستقبلا فى بناء الحضارة الإنسانية العالمية، وحتى لا نكـــون مجـــرد آخذين من الحضارات الأخرى. لا نكون مجرد متفرجين أو مشـــاهدين، بـــل نقوم بعمل إيجابى، بفعل حيوى نشيط.

إنها دعوة من جانبنا نرجو أن تجد صداها فى نفوس وعقول الذيـــن يعتزون بعروبتهم، الذين يشعرون بالأسى والحسرة حين يقارنون بين الماضى السعيد وبين الحاضر الذى إن دلنا على شئ فإنما يدلنا على أننا فـــى حالـــة صعود ولكنه ليس صعودا إلى الأمام بل هو صعـــود إلـــى الهاويـــة وبئـــس المصير.

نعم لابد من القيام بثورة نقدية، ويقينى أن هذه الثورة ســـتؤدى إلـــى تصحيح العديد من الأخطاء والمغالطات. إنها ثورة ستكشف لنا عن الشـــهرة الزائفة، الشهرة العمياء، ستبين لنا أن أكثر من نقول عنهم فى أوطاننا العربية إنهم من المثقفين، وإنهم من النقاد، ليسوا بمثقفين بل أشباه مثقفين، ليسوا نقادا بل أصحاب النقد الزائف، النقد الخادع، وإن كان أكثرهم لا يعلمون.

ثانيا: موضوعات الكتاب من منظور ثورة النقد:

قسمنا كتابنا "ثورة النقد" إلى قسمين رئيسيين: قسم ركز على القضايا والمشكلات من منظور ما قصدنا إليه من مصطلح "ثورة النقد" ونحن نعلم أن رأينا سيثير في نفوس ووجدان الكثير من مثقفينا العديد من أوجه الخلاف. ولكن الإختلاف في الرأى من طبيعة الفلسفة والتفلسف. أما إذا كان الخلاف مركزا على الأصول والأسس، فإننا نقول للمخالفين: لكم دينكم ولنا دين.

لقد حاولنا في الفصل الأول من هذا القسم الكشف عن مجموعة من الأحكام الخاطئة في مجال الفكر العربى وذلك بعد اهتمامنا بفكرنا العربى منذ أكثر من أربعين عاما. وحاولنا فى الفصل الثانى الإجابة عن سؤال محدد هو: هل استعد العرب للدخول إلى ثقافة قرن جديد؟ وميزنا فى الفصل الثالث بين المثقفين الذين يبحثون عن نور الوجود، وأشباه المثقفين الذين ارتضوا لأنفسهم ظلام العدم وبئس المصير.

والتمييز بين المثقفين وأشباه المثقفين أدى بنا إلى البحث عن العديد من القضايا والمشكلات ابتداء من "البتروفكر" ثم البحث عن تحديد لمعنى "المثقف"و المثقف والمجتمع، وشبابنا وقضية الثقافة، ولغة النور ولغة الظلام وثقافة النور وأساطير الظلام، وأسطورة الغزو الثقافى، والفكر المصرى وتقديس العقل والتنوير، والتليفزيون وإعلان الحرب على الثقافة، واغترابه عن العقل، وقصة الهجوم على الرواد من جانب الصغار والأقزام، وجائزة نوبل وقصة المحلية والعالمية.. إلى آخر تلك القضايا والمشكلات التى قمنا بحصرها وسبر أغوارها لأنها ترتبط فى رأينا ارتباطا وثيقا بالحديث عن "النقد" وثورة النقد.

أما موضوع الفصل الرابع، فكان عن التسامح الدينى وذلك من خلال دراسة موضوعات الإرهاب، والوحدة الوطنية، والكتاب الدينى، والرؤية القبطية فى الثقافة، المصرية والعربية.

ودرسنا فى الفصل الخامس أحوال جامعاتنا العربية وكيف تخرج من واقع حاضر مؤلم إلى مستقبل مشرق، تخرج من حالة اغترابها عن العقل والثقافة إلى الدخول فى حالة ازدهار ثقافى مؤثر وواضح وملموس.

أما موضوع الفصل السادس، فكان يدور حول مجموعة من القضايا التى يغلب عليها البعد السياسى، ومن بينها الإجابة عن سؤال هو: كيف يمكن كتابة التاريخ بطريقة منهجية دقيقة؟ وذلك بعد أن انتشرت حالات التزوير فى مجال كتابة التاريخ، وحالات المذكرات الكاذبة. وقد يكون من الشائع فيما نرى من جانبنا أن تكتب راقصة مذكراتها وتزعم لنفسها وللناس مجموعة من الأحداث التى تعد خيالا فى خيال. أما أن نلجأ إلى الكذب تارة، والتزوير تارة أخرى فى مجال الكتابة التاريخية، فإن هذا هو الشر المستطير، والكارثة الكبرى، الكارثة التى ستؤدى إلى القضاء على الصالح، والإبقاء على الفاسد، وإن كان أكثرهم لا يعلمون.

وأشرنا فى هذا الفصل إلى مجموعة من القضايا الأخرى، من بينها: العقلية العربية وأيديولوجية العمل السياسى، وأزمة الخليج بين الحاضر والمستقبل، وهل تسهم أحزابنا العربية فى البناء الثقافى، وحرب أكتوبر والرؤية النقدية.

إنها قضايا نحسبها رئيسية، فالإنسان حيوان سياسى كما يقال. وثورة النقد لا تقتصر عادة على مجال دون مجال آخر، بل إنها تشمل العديد من المجالات الفكرية والثقافية والاجتماعية، والسياسية.

أما الفصول الثلاثة التالية، فقد درسنا من خلالها موضوع روايات الخيال العلمى، ورؤيتنا النقدية لما يسمى بأدب المرأة فى عالمنا العربى، وقضية الإستشراق والمستشرقين.

هذه مجموعة من نماذج المشكلات والقضايا التى قمنا بمعالجتها وقمنا بتقديم رأينا حول كل مشكلة أو قضية، وكل ما قصدنا إليه خلال الفصول التسعة التى تضمنها القسم الأول من كتابنا تقديم رؤيتنا النقدية والتى تقوم على اقتلاع الطالح والإبقاء على الصالح.

أما القسم الثانى، فكان جانبا تطبيقيا يتصل اتصالا ضروريا ولا زما بالموضوعات والقضايا التى قمنا بإثارتها فى القسم الأول من كتابنا. لقد كان محور القسم الثانى تقديم رؤيتنا النقدية حول مجموعة من الكتب والشخصيات فى عالم الأدب والفلسفة والسياسة. وشملت رؤيتنا النقدية الحديث عن الماضى القديم، كما شملت دراسة الحاضر الحديث. وقد تضمن هذا القسم من كتابنا ستة وثلاثين فصلا، تمت كتابتها خلال سنوات زادت عن ربع قرن من الزمان، وأعدنا النظر فيها مرات ومرات حتى وصلنا إلى ما ارتأيناه ضروريا من خلال التزامنا بالنقد كما تصورناه من جانبنا،

كلمة أخيرة نراها ضرورية. لقد قمنا بإهداء كتابنا إلى روح زعيم غادرنا إلى عالم الآخرة زعيم آمن بربه وآمن بوطنه، زعيم ظلم حيا وظلم ميتا زعيم التقيت به فى شبابى واتفقت معه كثيرا واختلفت معه قليلا لقد فرق الموت بينى وبين أن التقى به وأنا استعد لمغادرة دنيانا الفانية، الدنيا التى لم أجد فيها إلا الألم والشقاء . إنه الزعيم مصطفى النحاس باشا. ويشاء القدر أن أكتب آخر كلمات تصديرى لكتابى هذا فى ذكرى اليوم الذى اهتزت فيه مصر من أقصاها إلى أقصاها، يوم موت الزعيم، فى الثالث والعشرين من شهر أغسطس. إنه نفس اليوم ونفس الشهر الذى توفى فيه الزعيم سعد زغلول. إنه القدر، وما أعجب حكم القدر. إنه نفس اليوم ونفس الشهر، وإن

كان سعد زغلول قد توفى عام ١٩٢٧م، فقد توفى مصطفى النحاس عام ١٩٦٥م.

نرجو بعد هذا كله أن نكون قد سبرنا أغوار العديد من مشكلاتنا الأدبية والفلسفية والسياسة من خلال منظور "ثورة النقد" منظور تكونت لدينا خيوطه طوال أعوام عديدة متصلة قضيناها فى صومعتنا الفكرية فى غربة عن الناس والمجتمع الصومعة التى نقول فيها دوما: لقد آن لنا أن نستريح من شقاء الدنيا وألم الحياة والوجود وغدر الإنسان بأخيه الإنسان. فمرحبا بالموت وما فيه من سعادة الأبد. مرحبا بعدم حياة وجدت فيها صدق التشاؤم وكذب التفاؤل، وإن كان أكثرهم لا يعلمون.

والله هو الموفق للسداد.

مدينة نصر فى الثالث والعشرين من شهر أغسطس عام ١٩٩٩م

عاطف العراقى

القسم الأول

قضايا ومشكلات (من منظور ثورة النقد)

ويتضمن هذا القسم الفصول والقضايا والمشكلات التالية:

الفصل الأول: أحكام خاطئة فى مجال الفكر العربى.

الفصل الثانى: هل استعد العرب للدخول إلى ثقافة قـــرن جديـــد؟ (منظـــور نقدى).

الفصل الثالث: مثقفون وأشباه مثقفين (الفكر والبتروفكر).

الفصل الرابع: التسامح الدينى.

الفصل الخامس: جامعاتنا والطريق نحو المستقبل.

الفصل السادس: العرب ونماذج من القضايا السياسية.

الفصل السابع: دفاع عن الإستشراق والمستشرقين.

الفصل الثامن: روايات الخيال العلمى (برؤية نقدية)

الفصل التاسع: رؤية نقدية حول ما يسمى بأدب المرأة فى عالمنا العربى.

الفصل الأول

أحكام خاطئة فى مجال الفكر العربى

(تصحيح المسار برؤية نقدية)

"من الأحكام الخاطئة، القول بأن النقد لا يعد علما. كلا: إن الفـــن إذا كان يعبر عن روح ذاتية، إلا أن النقد يعد معبرا عن الإتجـــاه الموضوعى، عن الوقفة الموضوعية. إنه يعد علما. ولكن مـــاذا نفعل أمام صغار الباحثين وأشباه الدارسين والذين تعد كتاباتـــهم جهلا على جهل وإن كان أكثرهم لا يعلمون".

الفصل الأول

أحكام خاطئة فى مجال الفكر العربى

" تصحيح المسار برؤية نقدية "

المحلل والدارس لكثير من الأحكام التى يصدرها البعض منا نحن العرب على فكرنا العربى سواء ما يمثل منه مجال الأدب أو الفلسفة أو غيرهما من مجالات تدخل فى إطار الفكر والثقافة، يجد أن الكثير من هذه الأحكام خاطئة ومشوهة وبلغت حد السذاجة والسطحية إلى أكبر درجة.

ومن الغريب أننا إذا كنا نقوم بالرد على بعض المستشرقين حين يصدرون بعض الأحكام على فكرنا العربى، فإننا فى الواقع نصدر من جانبنا أحكاما تعد معبرة عن الجهل وعدم الموضوعية أكثر من الأحكام التى يصدرها بعض المستشرقين نعم لقد أصدر نفر منا الكثير من الأحكام التى شوهت فكرنا العربى؟ وهذا يعنى أننا قمنا بتشويه فكرنا العربى أكثر من محاولات بعض المستشرقين.

من الأحكام الخاطئة، القول بأن النقد لا يعد علما. كلا إن الفن إذا كان يعبر عن روح ذاتية، إلا أن النقد يعد معبرا عن الإتجاه الموضوعى، عن الوقفة الموضوعية. إنه يعد علما. ولكن ماذا نفعل أمام صغار الباحثين وأشباه الدارسين، والذين تعد كتاباتهم جهلا على جهل، وإن كان أكثرهم لا يعلمون. ومن هذه الأحكام التى نرى من جانبنا أنها تعد أيضا أحكاما خاطئة، الحكم على مفكرينا من أمثال محمد عبده وطه حسين وعباس العقاد، بأنهم لم يقدموا شيئا جديدا لأنهم كانوا عالة على أكثر من مفكر أو فيلسوف أو أديب غربى سبقهم إلى الوجو.

إن هذا يعد حكما خاطئا لأن من أصدروه يكشفون عـــن جهلــهم أو تجــاهلهم بأن المفكر أو الأديب لابد وأن يتأثر بالسابقين بأى صـــورة مــن صور التــأثر ولكن هذا لا يجعله صورة طبق الأصل من مفكـــر أو أديــب سبقــه، إذ لو كان صورة طبق الأصل لما أفردنا له مجالا فى تــاريخ الأدب أو تاريخ الفكر بصورة عامة. بالإضافة إلى أننا يجب أن نضع نصب أعيننـــا أن التأثر بالسابقين يعد ظاهرة صحية ولا يعد ظاهرة أو علامة مرضية.

حكم آخر من الأحكام الخاطئة يعد مختلفا تماما عن الحكم الســـابق. يذهب بعض الباحثين المتسرعين إلى نفى تأثر مفكرينـــا بمـــن ســبقهم مـــن مفكرين. فإذا قال فلاسفة العرب مجموعة من الأفكار استفادوها من فلاســـفة اليونان، فإننا نجد أمرا يدعو إلى العجب من جانب بعــض البــاحثين الذيـــن يتصورون أن فلاسفتنا قد قالوا بما قالوا به من أفكار لأول مرة ولم يكونـــوا مسبوقين بغيرهم من الفلاسفة والمفكرين. إن هذا الحكم من جـــانب بعــض المتســـرعين يكشف عن جهلهم بتاريخ الأفكار أدبية كانت أو فلســـفية (ولـــو كلفوا أنفسهم الرجوع إلى الماضى لما وقعوا فـــى تلـــك الأحكـــام الســـاذجة والخاطئة).

من الأخطاء التى نقع فيها أيضا أننا فى أحكامنا على مفكرينا نلجأ إلى الأحكام العامة بمعنى أننا نقول أن "أ" من المفكرين كان مفكرا ممتـــازا، "ب" من المفكرين كان سيئا فى تفكيره وهكذا. ولعمرى أن تلك الأحكام تعد أحكاما خاطئة قلبا وقالبا. إننا إذا قمنا بدراسة تراث كل أديب أو مفكر فيجب علينـــا التنبيه إلى إيجابياته وسلبياته أيضا. فإذا كان لشوقى دوره الكبير فـــى مجـــال الشعر، إلا أننا يجب أن ننبه إلى أن البعد الذاتى الذى يجب أن يتوافـــر فـــى الشعر ، غير واضح عند شوقى ومن هنا كان شعره أقرب إلى النظم منه إلى الشعر بمعناه الدقيق. وإذا كان لجمال الدين الأفغانى إيجابياتـــه فـــى مجـــال السياسة ومجال الإصلاح الدينى، إلا أننا يجب أن ننبه إلى عـــدم دقتـــه فـــى

أحكامه الفلسفية وضحالة بضاعته الفلسفية وموقفه الخاطئ من العلم والحضارة الأوروبية.

ومن أحكامنا الخاطئة التى شاعت كثيرا فى السنوات الأخيرة سواء فى كتبنا وصحفنا، أننا نسارع بإثبات تأثير أفكار فلاسفتنا وأدبائنا على المفكرين الذين عاشوا بعد مفكرينا العرب. وأمثلة تلك الأخطاء لا حصر لها ومن بينها الذهاب خطا إلى تأثر ديكارت بالغزالى وتأثر كانت Kant بالغزالى وتأثر ديفيد هيوم الفيلسوف الإنجليزى بالغزالى وتأثر الوجوديين من الأدباء والفلاسفة بالمعتزلة فى قولهم بحرية الإرادة الإنسانية وهكذا (إلى آخر الأخطاء التى يقع فيها أكثر الباحثيين عندنا. إننا نظن أن مكانة المفكر تتحدد على أساس تأثر من عاشوا بعده به وهذا يعد خطأ نظرا لأننا نعلق أهمية مفكرينا على مدى تأثر اللاحقين بهم فى حين أننا يجب أن نعتقد أن أبا العلاء المعرى يعد عظيما حتى إذا لم يتأثر به دانتى، والمعتزلة عظماء حتى إذا لم يتأثر بهم أصحاب المذهب الوجودى وهكذا).

هذا يعنى أننا يجب أن نكون على حذر تام حين نتحدث عن فكرة التأثر والتأثير، تأثر مفكرينا بمن سبقهم وتأثيرهم فيمن عاشوا بعدهم، لأن الفكرة إذا انتقلت من بيئة إلى بيئة أخرى، فقد تكون لها دلالات فى البيئة الجديدة تختلف اختلافا يكاد يكون جذريا عن بيئتها القديمة (إن المتسرعين فى إثبات فكرة التأثر والتأثير قد أساءوا إلى فكرنا العربى وشوهوا أفكار مفكرينا من العرب وكانوا كالدبة التى أرادت حماية صاحبها ولكنها أصابته منه مقتلا).

خطأ آخر ضمن أخطاء لا حصر لها يقع فيها الدارسون لفكرنا العربى. وهذا الخطأ يتمثل فى تقديس التراث بكل ما فيه حتى لو تضمن مجموعة من الخرافات. إن التراث يعنى ما خلفه السابقون علينا. والسابقون علينا هم مجموعة من أفراد االبشر. والبشر معرضون للوقوع فى العديد من

الأخطاء و لقد قالوا ماقالوا به بحكم عصرهم ومكانهم (أى البيئة التى عاشوا فيها والزمان الذى عاشوا خلاله). وعصرنا الآن غير عصرهم فليس من الضرورى إذن أن يكون كل ما قالوه صوابا. إننا لن نستطيع التقدم خطوة إلى الأمام ولن نجد أى أمل فى ظهور فلاسفة عرب إلا إذا كان لدينا الحس النقدى الذى بواسطته يكون لدينا القدرة على قبول فكرة من التراث ورفض فكرة أخرى. فليس كل ما نجده فى التراث يعد صالحا لعصرنا وبيئتنا، ولا يصلح أيضا أن نرفض التراث كلية حتى لا نصاب بفقدان الذاكرة، بل يجب أن تكون أحكامنا فى دراستنا للتراث العربى قائمة على أساس الروح النقدية.

من أخطائنا الأخرى التى نقع فيها دائما أننا نلجأ إلى التعسف فى فهم بعض أفكار مفكرينا فمن الحقائق الثابتة أن الفيلسوف العربى ابن رشد يقول بقدم العالم، أى بوجود مادة قديمة وليس عنده الإعتراف بوجود العالم من العدم، ومع ذلك نجد البعض يلجأ إلى التعسف وسوء الفهم بسبب ضحالة بضاعته الفلسفيه بحيث ينسب آراء إلى هذا المفكر أو ذاك لم يقل بها. إن هذا الفريق من أشباه الدارسين قد أساء إلى فكرنا العربى إساءة بالغة، إساءة تتمثل فى نسبة آراء لبعض مفكرينا لم يقولوا بها إطلاقا.

من أخطائنا التى ترتبط بما ذكرناه منذ قليل، أن البعض منا بسبب إلتزامه باتجاه معين، يقع فى الخطأ حين دراسته لاتجاهات أخرى تختلف عن اتجاهه الذى يظن أنه الإتجاه الصحيح. فإذا غلب التيار الأشعرى أو التيار الصوفى على دارس معين فإننا سرعان ما نجده يقوم بالهجوم على المفكرين العقليين رغم أنهم أحسن ما عندنا وذلك لأنه يعلم أن التيار الأشعرى يعبر فى أكثر زواياه عن اللامعقول وكذلك الإتجاه الصوفى الذى يدخل فى اللامعقول إلى حد كبير. إن الموضوعية تفرض علينا وتلزمنا بأن نحترم الرأى الذى نقوم بدراسته وتحليله، لا أن نلجأ إلى تشويهه وتزييفه، وإظهاره بصورة غير الصورة التى ذهب إليها القائل به.

الواقع أن أخطاءنا فى مجال الفكر العربى تعد عديدة ولا حصر لهان وحينمـا يشيع الخطأ عدة سنوات، يظن البعض أنه أصبح حقيقـة وواجبنـا إعادة النظر فى أكثر أحكامنا الخاطئة فى مجال الفكر العربـى ومـا أكـثر مجـالاته من أدب وفلسفة وفكر بوجه عام. لقـد أدت بنـا أحكامنـا غـير الناضجة والمتسرعة إلى القول على سبيل المثال بـأن الغزالى يعد فيلسـوفا فى حين أن الواقع يقول إنه لا يعد فيلسوفا من قريب.... أو من بعيد. لقد أدت بنا أحكامنا الخاطئة إلى تصور أن الشهرة هى معيار أن يكون الأديب، أديبـا ممتازا، والواقع يقول إن الشهرة عمياء. لقد أدت بنا أحكامنا الخاطئـة إلـى القول بوجود فلاسفة عرب فى عالمنا العربى المعاصر، والواقـع يقـول لا. وكل ما نرجوه هو أن نعيد دراسة أحكامنا التى أصدرناها على مجالات فكرنا العربى لأن أكثرها يعد خاطئا وإن كان أكثرهم لا يعلمون.

والتساؤل هل لدينا مذاهب أدبية، هل لدينا فلسفة عربية، هـل لدينـا فلاسفة، يعد من أهم التساؤلات التى لابد أن يسـألها الإنسـان فـى عالمنـا العربى، الإنسان الذى يجد أنه على الرغم من وجود مذاهب أدبية وفلسفية فى الماضى، إلا أنه لا يجد فى وقتنا الحاضر أى مذاهب أدبية، بل لا يجد أديبـا يعد داخلا من قريب أو من بعيد فى إطار المذاهـب الأدبيـة. إن العيـب أو الخطأ الذى نقع فيه باستمرار هو أن نلجأ إلى البحث عـن مجموعـة مـن التبريرات، نبرر بها أخطاءنا، نبرر بها قصورنا عن إيجاد مذاهب أدبية.

إننا إذا تساءلنا: هل لدينا مذاهب أدبيـة؟ فإننـا نقـول إذا تمسـكنا بالموضوعية والإدراك الشامل العميق، وتسلحنا بالشجاعة بعدم وجود مذاهب أدبية لدينا .

وما يقال عن المذاهب الأدبية، يقال عن المذاهب الفلسفية[1]، فليس لدينا فى عالمنا العربى المعاصر، فلاسفة. ولا يمكن أن نعلل ذلك بقصر الفترة الزمنية بين إنشاء الجامعة المصرية، وبين ما نعيشه الآن. والواقع – فيما أرى من جانبى– أننا إذا كنا لا نجد مذاهب أدبية أو مذاهب فلسفية فإن ذلك لا يرجع إلى الحكم العثمانى، بل يرجع إلى مجموعة من الأسباب أشرنا إليها وهى كلها تعد أهم من الحكم العثمانى . علينا أن نبحث عن العيب فى أنفسنا فهذا أفضل من القول بأسباب سطحية، وإلا لحقتنا لعنة الأدباء والفلاسفة.

[1] سيجد القارئ أسباب ذلك فى كتابنا الذى سيظهر قريبا بعنوان "هل لدينا فى عالمنا العربى المعاصر فلاسفة؟

الفصل الثانى

هل استعد العرب للدخول إلى ثقافة قرن جديد؟

(منظور نقدى)

"الرؤية المستقبلية فيما نراها من جانبنا تقوم على الإنفتاح على كل الأفكار والتيارات من خلال منظور نقدى وبعد ذلك فلنأخذ منها ما نأخذ ولنرفض منها ما نرفض. أما أن نظل فى حالة تقوقع حول أنفسنا بحجة التراث تارة، وبحجة أن الغرب سيقوم بابتلاعنا تارة أخرى، فإنها تعد من الحجج الزائفة وسنظل جامدين عندها دون أمل فى أدنى تقدم. ولابد من وقفة نقدية تدك أرض التقليد دكا"

الفصل الثانى
هل استعد العرب للدخول إلى ثقافة قرن جديد؟
(منظور نقدى)

التساؤل عن مدى استعداد العرب للدخول إلى ثقافة قرن جديد، يعد تساؤلا هاما، إذ أنه يرتبط بنوع من التحديات التى تواجه المسلمين سواء الآن، أو فى القرون القادمة، تحديات سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية.

فثقافة القرن الجديد تعد إذن نوعا من أنواع هذه التحديات وما أكثرها. ويقينى أن هذا النوع، التحدى الثقافى يعد على رأس هذه التحديات إننا نستطيع الحكم على أى مجتمع من المجتمعات إذا عرفنا نوعية ثقافته، وطبيعة الثقافة السائدة، بالاضافة إلى أن كل التطبيقات التكنولوجية إنما ترتبط بأفكار، ترتبط بقيم ثقافية معينة، سائدة فى مجتمع دون مجتمع آخر، بل إن الجوانب الإجتماعية والسياسية والحربية لا يمكن فصلها عن الجوانب الفكرية والثقافية.

نقول هذا ردا من جانبنا على ما يشاع فى الكثير من المجتمعات العربية الإسلامية الآن من أنه من الضرورى الأخذ بالتطبيقات التكنولوجية التى نجدها نتاجا لأمريكا ودول أوروبا، دون أن نلزم أنفسنا بالأخذ بالأفكار.

إنها فيما أرى تعد نوعا من المغالطة لأن الأفكار ينتج عنها تطبيقات. وإذا اقتصرنا على أخذ التطبيقات فسوف لا نسهم مستقبلا فى دنيا المعرفة والإبداع . ودليلنا على ذلك أن التطبيقات التكنولوجية التى وجدناها فى قرون ثلاثة فقط وهى القرون الثامن عشر والتاسع عشر وهذا القرن العشرون ، تعد أضعاف أضعاف ما وجدناه طوال تاريخ الإنسان. وهذه التطبيقات وجدنا

أغلبها فى أمريكا وأوروبا بوجه عام نظرا لأنها مرتبطة أساسا كما قلت بأفكار وجدت فى هذه الدول دون غيرها.

السؤال إذن عن التحديات فى القرن القادم، التحديات التى تواجه المسلمين، يعد سؤالا جوهريا وبالغ الأهمية. ونظرا لأنه تساؤل يرتبط بالعديد من القضايا والأبعاد والمجالات، فإننا سنقتصر على دراسة جانب واحد منه، وهو الجانب المثار الآن والذى يمثل تحديا للعرب، وهو موضوع العولمة. وسوف تكون دراستنا لهذا الجانب قائمة على الربط بين الماضى والحاضر، وبحيث ننتقل منهما إلى المستقبل، فالتاريخ ليس مجموعة من الحلقات المنفصلة، بل كل حلقة ترتبط بالحلقة السابقة عليها، وتكون مؤدية إلى الحلقة التالية لها.

سنتحدث إذن عن قضية العولمة فى صلتها بالتنوير من جهة، وبالإتجاه النقدى من جهة أخرى إذ أن المفكرين العرب، أصحاب الفكر التجديدى قد أثاروا العديد من القضايا التى ترتبط بالتحديات التى تواجه المسلمين. ومعنى هذا أن الفكر التنويرى بوجه عام لم يكن مقطوع الصلة بإثارة موضوع التحديات التى تواجه أو ستواجه المسلمين، بل إن أصحاب هذا الفكر كانت تشغلهم بالدرجة الأولى هموم أوطانهم.

نعم أثاروا العديد من القضايا المرتبطة بهذه التحديات، ومن بينها قضايا التقدم العلمى والأخلاقى[1]، قضايا الهوية، وهل سنفقد هويتنا نحن المسلمين والعرب إذا أخذنا بالثقافة الغربية الأوروبية بوجه عام وغيرها من قضايا أحسبها تحتل مكانة كبرى فى فكر كل مسلم وكل عربى.

وإذا كنا سنبلور الإجابة عن هذا السؤال وهو عن مدى استعداد العرب للدخول إلى ثقافة قرن جديد، حول موضوع العولمة، فإننا نبادر بالقول

---

[1] يمكن للقارئ الرجوع إلى كتابنا: العقل والتنوير في الفكر العربي المعاصر.

بأن هذا الإختيار ، اختيار العولمة، ليس من الضرورى أن يكون هو الإختيار الوحيد أمامنا، بل إن المسلمين عن طريق شخصيتهم المتميزة وعن طريق العمل الدائب من جانبهم يستطيعون الوقوف موقف المؤيد لفكرة ما، والرافض لفكرة أخرى، وخاصة بعد زوال الاستعمار.

وقد لا أكون مبالغا فى القول بأن البحث فى موضوع العولمة وما يرتبط بها من قضايا سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية، يعد من البحوث الهامة والتى تشغل دول العالم الآن وستظل إلى فترات طويلة محور الحديث ليس فى الدول المتقدمة فحسب، بل في الدول النامية أيضا. إن البحث فى موضوع العولمة وقضاياها يثير نقاط خلاف رئيسة وجوهرية. وقد نجد من يسعى بكل قوته إلى تأييد هذه الثقافة بكل أبعادها وجوانبها وذلك تصور من جانبه نحو عالم أفضل، وقد نجد على العكس من الفريق الأول من يحارب بلا هوادة فتح النوافذ على هذه الثقافة بكل أبعادها واتجاهاتها وتطبيقاتها. وقد نجد أيضا من يذكر العديد من التحفظات على هذه الثقافة.

وإذا كان البحث فى هذه القضية، قضية العولمة يرتبط كما أشرنا منذ قليل بالعديد من القضايا والأفكار فى المجال الإقتصادى والسياسى وغيرهما من المجالات، فإننا نود من جانبنا دراسة هذه القضية من خلال منظور التنوير، إذ أننا نعتقد من جانبنا أن التركيز على الجانب الفكرى من هذه الثقافة، ثقافة العولمة، وخاصة بالنسبة للهوية الثقافية، لابد وأن يرتبط ارتباطا رئيسا بالقضية الكبرى ، قضية التنوير إنها قضية مصير. وكما قال شكسبير: أن أكون أو لا أكون، ذلك هو السؤال.

إننا فى عالم متغير عالم يسوده الكثير من التيارات. عالم ليس فيه مكان للضعيف فى مجال السياسة والإقتصاد والفكر. ومن هنا فلابد أن ننفتح على هذه الثقافة، وقد أصبح العالم قرية صغيرة. إنها ثقافة العولمة، ولا يصح أن نخشى من تلك الثقافة بل يجب أن نتعامل معها ونأخذ فى

حوار مع قضاياها، وهى قضايا بالغة الأهمية. أما أن نتقوقع حول أنفسنا، فإن هذا لا يعد حلا بأية صورة من الصور وصاحب المعدة القوية لا يخشى من تناول أى نوع من أنواع الأطعمة.

إننا الآن فى عصر تتصارع فيه القوى المختلفة. وإذا لم نبادر بتحديد هويتنا الثقافية العربية من خلال قضايا العولمة، ونبادر أيضا بإتخاذ المواقف من جانبنا، فلن يكون لنا وجود فى المستقبل، لن تكون لنا حياة، كما ينبغى أن تكون الحياة. سنصبح فى خبر كان؛ إن صح هذا التعبير وسيأتى يوم علينا يتحدث فيه العالم عنا؛ كما يتحدث عن الهنود الحمر أو كما يتحدث عن شعوب أصبحت منقرضة وزالت عن الوجود.

وغير خاف علينا أننا الآن فى حالة فقدان الوعى، فقدان الإتزان، أو مرحلة إنعدام الوزن، إننا الأن فى حالة غريبة من الغيبوبة والعالم يتحرك من حولنا حركة سريعة، حركة بغير حدود، إننا فى الوقت الذى نصعد فيه إلى الهاوية، ويكون الحوار أقرب إلى إثارة الخلافات اللفظية الشكلية، بل أقرب إلى ثرثرة النساء، نجد الدول المتقدمة، وخاصة الدول الغربية تبادر إلى إتخاذ المواقف الفكرية البناءة، إن، المواقف التى تصدر عن هذه الدول الغربية المتقدمة يجب أن نتعلم منها القدرة على إتخاذ المواقف، ولن يكون ذلك بإمكاننا إلا إذا أقمنا الجسور -كما قلت - بين أبناء الدول العربية كلها، وأقمنا الحوار الفكرى بين مثقفى الأمة العربية، ومثقفى بقية بلدان العالم من مشرق الأرض إلى مغربها. وهذا هو التنوير فى علاقته بالعولمة.

إن المثقف كما ينبغى أن يكون، هو الذى يهتم اهتماما بالغا بكل قضايا التنوير والقضايا النقدية ولا يمكن أن ننتظر حلولا إيجابية لكل القضايا التى نبحث فيها. سواء أكانت قضايا فكرية، أو كانت سياسية، أو كانت قضايا اجتماعية إلا من خلال التنوير. إن الفرد التنويرى هو الذى تؤرقه هموم الأمة العربية وبحيث تصبح حياته الفكرية هى القضايا المصيرية لعالمنا العربى فلا

يحيا إلا بهذه القضايا ولا يعيش إلا من أجل هذه القضايا ولا يتنفس إلا هواء هذه القضايا.

هذا هو االمثقف التنويرى فى رؤيته المستقبلية، وأقول بالرؤية المستقبلية لأننا للأسف الشديد سواء في الماضي، الماضي القريب على الأقل، وفي الحاضر أيضا بكل تأكيد لا نجد رؤية واضحة، رؤية محددة المعالم، بل رؤية كلها ظلام فى ظلام رؤية يسودها الضباب الكثيف. ودعونا نتكلم بصراحة وموضوعية لأننا أمام قضية مصير قضية تحديد لهويتنا ، قضية أن نكون أو لا نكون، ولنبتعد تماما عن التفاؤل الساذج والقول بأن كل شئ تمام.. لقد أسرفنا فى التفاؤل وما فيه من سذاجة وأدى هذا كله إلى أن أصبحنا في وضع لا نحسد عليه وأصبح أكثر مثقفينا فى واد، وقضايا الأمة العربية في واد آخر، أصبح حديثهم عن قضايا الأمة العربية حديثا يثير القلق والغثيان حديثا سطحيا، تماما كما يتحدث السائح عن بلدة من البلدان التي زارها وبقى فيها ساعة من الزمان، إنه حديث سطحى لأنه لا يقوم على رؤية تحليلية دقيقة.

لقد أدت بنا الرؤية الظلامية، الرؤية الضبابية التى يسعى إليها أنصار الإتجاهات التقليدية، إلى العديد من التصورات الخاطئة والتي تقوم على المبالغة، والمناداة بأن الحل إنما يتمثل فى الرجوع إلى الماضى السعيد، ماضى التراث وما فيه من أخطاء ومغالطات. ولكن ماذا نفعل إزاء أناس فقدوا الملكة النقدية.

إننا إذا كنا قد وجدنا فكرا تنويريا فى بعض بلدان عالمنا العربى فى منتصف القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين، لكن ماذا حدث بعد ذلك؟ إننا نجد نوعا من الردة.. أو التراجع عن المكاسب التنويرية في العديد من المجالات، سواء كانت سياسية أو فكرية أو إجتماعية، نجد

تراجعا فى مجال حرية الفرد واتجاها نحو نوع مـــن الديكتاتوريـــة الفكريـــة الرجعية.

هل من المعقول أن ننتظر حلا لمشكلاتنا الفكرية والسياسية فى الوقت الذى نعلن فيه الهجوم على ثقافة العولمة بدون التسلح برؤية نقدية دقيقة فـــى الوقت الذى نضيع فيه جهدنا فى محاولة الإجابة على أسئلة عفا عليها الزمن، أسئلة فردية شخصية جزئية، لماذا لا يتجاوز المثقفون العرب من خلال رؤية تنويرية عوائق البحث عن أفضل حل فكرى لنا نحن أبناء الوطـــن العربـــى، رؤية تنويريـــة تتخطى الخلافات الزائلة الطارئة وبحيـــث تضـــع المســـتقبل أمامها دائما.إن أكثر المثقفين العرب وللأسف الشديد يـــدورون فـــى حلقـــات مفرغة ويلجأون إلى منطق التبرير وهو منطق زائف لأنه يؤدى إلى الدفـــاع عن سلبيات الماضى وسلبيات الحاضر وما أكثرها من سلبيات. علينا أن نعتقد بأن الفكـــر التنويرى هو الذى يوجه التطبيقـــات السياســـية والعكـــس غـــير صحيح، وهذا الإعتقاد يؤدى إلى بث الثقة فى نفوس المثقفين العرب. ودولـــة بغير فكر تنويرى يقوم على أسس فكر العولمة هى تماما كجسد بـــلا دمـــاغ، وإذا خـــلا الجسد من الدماغ فإنه سيكون أقل مرتبة من الحيوانات الضالـــة، نعم ينبغى علينا أن نستوعب هذا الدرس أو هذا المبدأ جيدا وإلا ستلحقنا اللعنة فى كل زمان وكل مكان.

الرؤية المستقبلية فيما نراها من جانبنا تقوم على الإنفتاح علـــى كـــل الأفكار والتيارات من خلال منظور نقدى وبعد ذلك فلنأخذ منـــها مـــا نـــأخذ ولنرفض منها ما نرفض، أما أن نظل فى حالة تقوقع حـــول أنفســـنا بحجـــة التراث تارة وبحجة أن الغرب سيقوم بابتلاعنا تارة أخرى، فإنها تعـــد مـــن الحجـــج الزائفة وسنظل جامدين عندها دون أمل فى أدنى تقدم ولابد من وقفة نقدية تدك أرض التقليد دكا. إن التراث الماضى قد صنعـــه مفكـــرون مثلنـــا صنعه أفراد بشر كانوا معرضين للوقوع فى الأخطاء فلماذا إذن نقـــف عنـــد

محاولاتهم ونحن نبكى على الأطلال . لماذا الخوف إذن من ثقافة العولمة هل من المعقول أن يكون تصورنا للمستقبل محكوما بكتب التراث الصفراء محكوما بأفكار مجموعة من المفكرين القدامى. إن كتب التراث إذا كنا نجد فيها بعض الأفكار البناءة الممتازة والتى تفيدنا فى حياتنا المعاصرة، إلا أننا نجد فيها آلاف الأخطاء بل آلاف الخرافات، إن كتب التراث كلها فى المجالات العلمية لن تساعدنا على إختراع أبسط نوع من أنواع المخترعات البشرية وزماننا الآن غير زمانهم ونحن بشر وهم مثلنا بشر فلماذا إذن يصر بعضنا على الوقوف عندهم، فلنأخذ إذن من التراث ما نأخذ ولكن ما نأخذه ينبغى ألا يكون عقبة فى طريق تقدمنا وازدهارنا نحن أبناء الأمة العربية الحديثة. لماذا لا ننفتح على الغرب فى رؤيتنا المستقبلية، لماذا نصر على رفض كل غربى وشن الهجوم على الغرب. هل ننتظر من الغرب أن يتأخر مثلنا . إن واجبنا أن نسعى إلى أن نتقدم مثله لا أن ندعو إلى أن يتأخر هو مثلنا، إنها سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا. إن هذه الأفكار التقدمية الجديدة نأخذها من ثقافة العولمة، الثقافة المستقبلية.

هذه معالم رؤية مستقبلية تنويرية نقدية نقدمها من خلال إدراكنا للقيم الإيجابية لثقافة العولمة.. معالم عامة وكبرى تجعل الهدف من التنوير دك أرض التقليد دكا، وتقيم أساس البناء على العقل. والعقل وحده كما نعلم أشرف ما خلقه الله فينا نحن بنى الإنسان.

ولا يخفى علينا أن المناخ الفكرى السائد فى أكثر بلداننا يعد مناخا غير تنويرى مناخا غير مؤهل للثقافة الجديدة، ثقافة العولمة، وصاحب الرؤية الملتزمة والجادة، صاحب الأيديولوجية التقدمية قد يجد صعوبة بالغة فى التعبير عن رأيه أو موقفه، ومن هنا يشعر بالإغتراب عن الواقع. ولكن هذا لا يعنى أن نطلب منه وهو فى هذه الحالة، أن تدور أفكاره بينه وبين نفسه فحسب، بحيث تكون حوارا مع الذات، بل أن يحاول بكل ما يملك من طاقة

نقدية بناءة وعن طريق تعاطفه مع غيره من أصحاب الفكر التقدمي التجديدي البناء، نشر أفكاره والدفاع عنها سواء ما تعلق منها بدول العالم الثالث وما يحدث فيه من تغيرات، أو ما تعلق منها بالصلة بين بلدان العالم الثالث، والقوى الكبرى العالمية.

والبحث عن أيديولوجية فكرية عربية مستقبلية، لا يمكن أن يتم إلا بالتعاون بين المفكرين والمثقفين من خلال إيمانهم بالأسس الكبرى والقيم البناءة في ثقافة العولمة. هذا التعاون الذي نجده في مجتمع النمل ولا نجده في مجتمع الصراصير، والأليق بنا كمفكرين أن نرتضي لأنفسنا التعاون وأن ننبذ التقاتل والخلاف كما ينبغي علينا القضاء على الشللية والمصالح الشخصية.

إن مشروعا حضاريا للأمة العربية لا يمكن أن يتم أو يتحقق إلا بصدق الفكر مع نفسه وبحيث لا تحركه المصالح المادية، كما ينبغي أن يكون متفتح النظرة واسع الأفق، وهل ننكر أن موقف بعض دول الغرب مع هذه الدولة العربية أو تلك قد يكون مفيدا وفي صالحها في الوقت الذي تجد فيه الخطر، بل العدوان من جارتها العربية؟ هل ننكر سيادة الفكر الرجعي الآن حيث تكون له أدواته وأمواله وصحفه ومجلاته، هل ننكر، أن أكثر بلداننا العربية تعطي أقل قدر من المساحة للرأي التقدمي النقدي في مقابل المساحة الواسعة الضخمة التي تعطي للرأي الرجعي التبريري إن هذا نجده في مجال السياسة وفي مجال الفكر أيضا، إن تأسيس مشروع حضاري للأمة العربية ينبغي أن يكون قائما على العقل، والعقل فقط، ينبغي أن يكون مؤسسا على الفكر التجديدي العلمي البناء وبحيث نطرد تماما كل فكر رجعي، نحذف تماما كل فكر لا معقول كل فكر ميت يعبر عن التخلف لا التقدم، يعبر عن الصعود إلى الهاوية لا السير إلى الأمام.

قد لا نكون مبالغين إذا قلنا بأننا الآن في أمس الحاجة إلى السعي نحو الثورة النقدية، نحو التنوير الثقافي، التنوير الذي يقوم على الإنفتاح على

ثقافة العولمة، التنوير الذى يقوم على تقديس العقل والإيمان بأن الثقافة الخالدة، إنما هى الثقافة الأساسية التى تتخطى حدود الزمان والمكان وبحيث تتحرر من العادات والتقاليد الرجعية وتنطلق ساعية إلى تحقيق سعادة الإنسان، بما تتضمن من آداب وعلوم وفنون سامية رفيعة وعن طريق التنوير نستطيع إرساء نظام ثقافى عربى جديد.

إن أوروبا لم تتقدم إلا عن طريق السعى بكل قوتها وابتداء من عصر النهضة نحو تحقيق مبدأ التنوير وبحيث وجدنا ثقافة أوروبية جديدة، تختلف فى أساسها ومنهجها عن ثقافة العصور الوسطى.

والسعى نحو نظام ثقافى عربى جديد لا يعد شيئا صعبا أو مستحيل التحقيق، إذ نجد العديد من الأفكار التى دعا إليها مفكرون كبار فى العصر الحديث على إمتداد مساحة العالم العربى من مشرقه إلى مغربه، وليكن عملنا هو الإستفادة من أفكارهم وجعلها واقعا حيا نعيشه ونتعايش معه . وهل يمكن أن نقلل من أفكار تنويرية غاية فى الأهمية نجدها عند رفاعة الطهطاوى وأحمد لطفى السيد وقاسم أمين وسلامة موسى وطه حسين وزكى نجيب محمود فى مصر. وعند مالك بن نبى فى الجزائر، وعبد الرحمن الكواكبى فى سوريا وغيرهم من مفكرين كبار كانت لهم رؤيتهم المستقبلية.

وإذا كنا نعيش الآن فى عالم جديد عالم به العديد من المتغيرات عالم أصبح بفضل التطورات العلمية الحديثة قرية صغيرة، فلابد من تغيير أفكارنا تغييرا جذريا لابد من ثورة فكرية تخلق إنسانا عربيا جديدا، وتوجد نظاما ثقافيا عربيا جديدا، وإذا لم نفعل ذلك فسنكون فى واد والعالم المتقدم، العالم الأوروبى بصفة خاصة فى واد آخر. سنكون كمن يتحدث على موجة غير الموجة التى يستخدمها الطرف الآخر.

لابد أن نقضى على الفصل الموجود فى أكثر بلداننا العربية، بين ما يسمى بالتعليم الدينى، والتعليم المدنى الإنسانى، لابد من التنبيه إلى الإنغلاق

الفكرى الذى نجده عند أناس يتحدثون عما يسمونه بالغزو الثقـــافى، إننـــا إذا وجدنا عالما متقدما كالعالم الأوروبى فهل نطلب منه أن يتأخر مثلنا، أم أنـــه من الضرورى أن نفعل مثل ما فعل، وبحيث نتقدم مثله؟ هل من المعقول وقد وصلنا إلى أواخر القرن العشرين وبدأنا نستعد للدخول فى قـــرن جديـــد، أن نقول بأنه لابد من الوقوف عند كتب التراث وبحيث نقوم بحفظها وترديد مـــا فيها دون وعى. هل يصح أن يقوم نفر منا بالهجوم على منجزات الحضـــارة الغربية فى الوقت الذى لا يمكن فيه الإستغناء عن هذه المنجـــزات الكـــبرى. كيف أتفاعل مع العالم وأتحدث عن نظام ثقافى عربى جديد فى الوقت الـــذى أتناقض فيه مع نفسى، أقع فى نوع من الإزدواجية حين أهـــاجم الحضـــارة الحديثة الأوروبية وأكون فى نفس الوقت ساعيا إلى الإستفادة من منجزاتها.

إن نظاما ثقافيا عربيا جديدا لا يمكن أن يتحقق إلا بالتأكيد على أهمية العلم والقضاء على الخرافات التى تعوق مسيرتنا العلمية والإيمان بأن العلـــم يمثل مجتمع المستقبل.

إن هذه أفكار رئيسية نتعلمها من أسس ثقافة العولمة.

فنحن إذن بين طريقين: طريق يمثل الظلام، الطريق المسدود وطريق يمثل النور والضياء وحتى نوجد نظاما ثقافيا عربيا جديدا فلا مفر من الطريق الذى يمثل الإيمان بالتنوير ، يمثل النوافذ على كل التيارات الأدبية والفكريـــة ولا يوجد مبرر للحساسية من الثقافات الأخرى. إن هذه الثقافات لا يخشاها إلا ضعاف الناس. وقد انفتح العرب منذ قرون وفى أيام العصر العباســـى علـــى الثقافات الوافدة وحدث الإمتزاج أو الإقتران السعيد بن ثقافة داخليـــة وثقافـــة وافدة ولم يقل أحد بأن هذه الثقافات قد أدت إلى إلغـــاء شخصيـــة الإنســـان العربى.

إن عالمنا العربى يمتلك طاقة اقتصادية هائلة.. ومن واجبنا تســـخير هذه الطاقة وتوجيهها بحيث تحقق نظاما ثقافيا فى المقام الأول. فالثقافة هـــى

الأساس وما يمكن أن يؤدى إلى الترابط بين الشعوب العربية، إنمـــا يكـــون أساسا فى نوع من الوحدة الثقافية وليتنا نخصص جزءا كبـــيرا مـــن دخـــل البترول فى إرساء دعائم التنوير الفكرى والثقافى. التنوير القائم علـــى ثقافـــة العولمة، وبحيث نتجنب تماما كل الأفكار الرجعية المتطرفة والفكر المغلـــق وهـــل يستطيع أن يتنفس الإنسان إلا فى الهواء المتجدد إن الفكـــر الـــذى لا يتخذ من التنوير أساسا له يعد فكرا ميتا يصيب الإنسان بالإختناق.

ولا نستطيع أن نتصور نظاما ثقافيا عربيا جديدا إذا لم نأخذ من تراثنا كل ما يـــؤدى إلى نهضتنا وبحيث لا يكون معوقـــا لمســـيرتنا الإنســـانية - نستطيـــع أن نسعى إلى النظام الجديد إذا اعتقدنـــا بـــأن النزعـــة الإنســـانية التنويرية هى التى يجب أن تكون سائدة فى مدارســـنا وجامعاتنـــا ووســـائل إعلامنا وكتابات مفكرينا. وكم ارتبط النور بالتقدم والسير إلى الأمام وارتبـــط الظلام بالتأخر والرجوع إلى الوراء والصعود إلى الهاوية.

ولن يصبح لنا دورنا الحيوى النشيط والرائد فى العالم الذى نعيش فيه إلا إذا حددنا دور الثقافة فى مجتمعنا العربى، وقلنا بأن المثقف وهو الكـــائن الإجتماعى الذى لابد و أن تكون أفكاره مؤدية إلى سعادة وتقدم مجتمعه. ولن يؤدى إلى تحقيق تقدم مجتمعنا العربى إلا أن يكون رائدنا هو العقل وطريقنـــا هو طريق التنوير وخصائص ثقافتنا تتمثل فى البعد الإنســـانى أساســـا عـــن طريق هذا كله يمكن تحقيق نظام ثقافى عربى جديد نفاخر به ونتفـــاخر بيـــن دول العالم من مشرقها إلى مغربها بحيث نقـــول: هـــذه بضاعتنـــا الثقافيـــة التنويرية والتى تتخطى حدود الزمان والمكان.. البضاعة التنويرية التـــى إذا كانت قد استعادت بعض جذورها من الماضى، إلا أنها لا تقف عنده وبحيـــث يكون حالها كمن يبكى على الأطلال بل تركز على الحاضر وتنطلق منه إلى المستقبل.

نقول ونكرر القول بأن فكرنا العربى بوجه عام يعد معبرا عن حالات من الضياع والظلام والموت. إنه فكر يخلو من أيديولوجية معينة، ومن هنا نرى أكثره معبرا عن مجموعة من الكلمات المتقاطعة التى قد لا يفهمها أحد وبالتالى لا يمكن إدراكها من جانب القراء لها.

نقول هذا ونحن نضع فى اعتبارنا ضرورة استبعاد الشعارات البراقة الزائفة والتى يزعم لنا أصحابها أنهم يقدمون لنا من خلالها مذاهب أدبية وفكرية فى حين أن الواقع الموضوعى يكشف لنا أن تلك المذاهب فى واد والفكر فى واد آخر، إنها مذاهب لا تستند إلى أساس فكرى أيديولوجى ولا تقوم بنقد الواقع أو التعبير عنه... تعبيرا صادقا.. ومن هنا كان فكرها فكرا مسطحا ، فكرا أجوف. أنظروا إلى الفكر الأوروبى على سبيل المثال وقارنوا بينه وبين ما نطلق عليه فكرا عربيا على سبيل التجاوز وستجدون الفرق الكبير بين الفكر الدقيق الذى يقوم على أرض صلبة وبين الفكر الهش المظلم ونقصد به الفكر العربى فى كثير من جوانبه وأبعاده ومجالاته.

إننا نفتعل الكثير من المعارك ونطلق عليها معارك فكرية فى الوقت الذى تدور فيه هذه المعارك حول قضايا زائفة خيالية. كما نتحدث عن الغول والعفريت وأصبح من الأشياء الشائعة أن يتحدث كل واحد منا عن مشروع له حول الفكر العربى ثم نجد هذا المشروع خيالا فى خيال وليس له معالم محددة. ولا يستند إلى أى نوع من أنواع الصدق.

ويقينى أنه لولا الهالات الإعلامية حول العديد من الكتب والمقالات لقلنا بصدق إننا لا نجد عندنا فكرا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة بل نجد أكثر بضاعتنا الفكرية بضاعة فاسدة لا صلة لها بالنقد كما ينبغى أن يكون النقد، لا صلة لها بالواقع، تماما كمن يبحث عن قطة سوداء فى الظلام أو مثل دون كيشوت الذى يحارب طواحين الهواء.

إننا نعيش الآن فى عصر يعد معبرا عن الظلام وبئس المصير وإذا تحدثنا عن صعود فكرى فإنه يعد للأسف الشديد صعودا إلى الهاوية فأين الأيديولوجية إذن أين الضمير العلمى؟ أين الفكر التنويرى الحضارى؟ إننا إذا وجدنا شعوبا متقدمة فكريا وحضاريا فإن الموقف منها يجب أن يتمثل فى أن نفعل ما فعلت ولا يصح أن نقوم بالهجوم على فكرها تحت مقولة الغزو الثقافى أو الهجوم على الحضارة الوافدة فالمتأخر كما سبق أن قلنا يجب أن يلحق بالمتقدم ولا يصح أن أطلب من المتقدم تحت شعار المشاركة الوجدانية أن يتأخر مثلى لقد أدرك ذلك مفكرون كبار ابتداء من رفاعة الطهطاوى وأحمد لطفى السيد وطه حسين وسلامة موسى وتوفيق الحكيم وزكى نجيب محمود ولكننا للأسف الشديد لم نستفد من الدروس التى ركزوا حياتهم لغرسها فى نفوسنا ولو كنا قد استفدنا من دروسهم لما كنا قد وجدنا الآن تلك الحرب الشعواء ضد العولمة وثقافة العولمة.

ألا يوجد دليل على تخلفنا الفكرى أبلغ من القول بأننا نجد أفكارا تنويرية تحارب الآن ولم تكن تحارب منذ قرون وحتى فى العصر العباسى ألا يعد هذا دليلا على أننا نسير إلى الخلف ولا نمشى إلى الأمام.

فنحن إذا تمسكنا بمجرد الترديد فإننا سنكون أصحاب توكيلات فكرية، تماما كالتوكيلات التجارية، فمن يقوم ببيع سلعة أجنبية يكون دوره مجرد البيع وليس المشاركة فى الإنتاج بالنسبة لهذه السلعة أو تلك.

إننا إذا أردنا أيديولوجية لفكرنا العربى فإن تلك الأيديولوجية لابد أن يكون شعارها تقديس العقل، لابد أن يكون محورها السعى إلى التنوير بكل قوة وجهد، لابد أن تكون قضيتها الكبرى تغيير الواقع بحثا عن الأفضل وليس مجرد تفسير الواقع أو تبريره. وإذا اقتصر الفرد منا على مجرد التفسير أو التبرير فإنه يكون مقلدا وليس مبدعا أو مجددا، سيكون فكره خاليا من الأيديولوجية ولا أساس له. ومن المؤسف أن يقوم أناس بمجرد التبرير أو

الدفاع فتحسبهم من المفكرين وما هم بمفكرين بل أشباه مفكرين، لأنهم يعبرون عن فكر ميت مزيف. وتغيير الواقع فيما نرى من جانبنا لابد وأن يعتمد على أساس قوى، هو الأساس الذى ينظر للعالم على أنه قرية صغيرة إنه أساس العولمة أولا وقبل كل شئ.

إن قضية التنوير فى صلتها بثقافة العولمة تعد قضية مصيرية إنها ترتبط ارتباطا وثيقا بالبحث عن أيديولوجية ولا بقاء لشعب من الشعوب إلا عن طريق السعى نحو النور والتنوير عن طريق السير نحو البحث عن أيديولوجية تحدد هويته الثقافية والفكرية والسياسية والإجتماعية. لا بقاء لثقافة شعب من الشعوب، إلا بإحياء الروح النقدية.

ونود أن نشير إلى أن الحديث عن عوامل تدعيم الإبداع والمشكلات التى تواجه الإبداع ترتبط ارتباطا مباشرا بمشكلة التنوير وقضاياه ودليلنا على ذلك أن العوامل التى تؤدى إلى عرقلة الإبداع إذا كانت توجد بكثرة فى الدول النامية بوجه عام، الدول التى لا نجد فيها تنويرا مطلقا شاملا، فإنها لا توجد بنفس الدرجة فى الدول الأوروبية المتقدمة.

والعوامل التى تؤدى إلى عرقلة الإبداع ترتبط بمجالات كثيرة من بينها التعليم والثقافة والعلم والتكنولوجيا.

فمن الأمور التي تسترعى الإنتباه أننا فى الدول النامية بوجه عام نعد أصحاب توكيلات فكرية، وهذا إن دلنا على شئ فإنما يدلنا على أنه لا نصيب لنا فى العملية الإبداعية، فصاحب التوكيل الفكرى إنما يكون مجرد كوبرى مرور لآراء وتجارب السابقين، دون جهد إبداعى من جانبه.

إننا فى عصر ثورة المعلومات وثورة الكمبيوتر والأقمار الصناعية فهل من المعقول أن نتحدث عن ظاهرة خيالية، هى ظاهرة الغزو الفكرى وذلك فى الوقت الذى أصبح العالم فيه قرية صغيرة، أعتقد أننا إذا قلنا بما يسمى الغزو الفكرى أو الثقافى فإن معنى ذلك أننا سنقضى تماما على أى أمل

فى التقدم نحو الإبداع لا يمكن أن يتحقق إلا فى جو الحرية والإنفتاح على أفكار الآخرين فى دول العالم من مشرقه إلى مغربه. الإبداع يرتبط بالنور والضياء ومعوقات الإبداع لا يمكن أن تحيا إلا فى جو القيود والظلام هذا يعنى أننا إذا أردنا إيجاد القيادات المبدعة، فلابد أولا من الإيمان بأن قضية التنوير (فى صلتها بالعولمة) تعد ألزم القضايا لنا تماما كحاجتنا إلى الماء والهواء. وليت الدول التى تعانى من عدم وجود قيادات مبدعة فى العديد من المجالات؛ ليتها تقوم بتطبيق تجارب الدول الأوروبية التى ينتشر فيها الإبداع بحيث تكون تلك الدول صورة إلى حد كبير من الدول الأوروبية. إن منطق الحياة منطق الوجود يفرض على المتأخر أن يلحق بالمتقدم وليس من المناسب إطلاقا أن نطلب من الدول الإبداعية المتقدمة أن تقلد المتأخر هذا هو منطق الحياة. ويقينى أننا إذا انفتحنا على تجارب الآخرين الأكثر منا تقدما، فإن الطريق إلى الإبداع سيكون سهلا ميسرا. فالإبداع لا يبدأ من فراغ الإبداع إذا قصدنا به الأصالة بمعنى عدم التأثر بالسابقين فإننا لا نجد ذلك إطلاقا أى لا نجد فينا أصيلا. ومن هنا فإن المنطق يفرض علينا الإنفتاح والإستفادة من تجارب الآخرين يفرض علينا وجود موجة مشتركة بيننا وبين الأمم التى نجد فيها الكثير من الجوانب الإبداعية وإذ لم نفعل ذلك فسيكون حالنا كحال من يتكلم على موجة غير الموجة التى يتحدث عليها الآخرون، نقضى على أنفسنا بأنفسنا لأننا سنتنفس هواء راكدا ساكنا وغير متجدد وإذا نظرنا إلى النظريات العلمية الكبرى، وإلى النظريات الفلسفية التى غيرت من فكر الإنسان فإننا سنجد أن هذه النظريات لم تحدث أثرها إلا لكونها جاءت مخالفة تماما لحالة السكون، حالة الركود.

الإبداع إذن يرتبط مباشرا بالسعى نحو التنوير والإنطلاق نحو ثقافة العولمة وهذا الإرتباط يجعلنا نقول بأن عوامل عرقلة الإبداع فى العديد من

المجالات إن لم تكن كلها، إنما هى نفس عوامل عرقلة التنوير إلى حد كبير جدا.

فمن عوامل عرقلة الإبداع الخلط بين الدين والسياسة، من عوامل عرقلة الإبداع أننا ما زلنا ننظر إلى العلمانية وكأنها رجس من عمل الشيطان وأنها مرادفة للكفر والتكفير.

من عوامل عرقلة الإبداع الفصل بين التعليم الدينى والتعليم المدنى ويجب القضاء تماما على هذا الفصل إذ كيف نقول بالمجتمع الواحد، وفى نفس الوقت نفصل بين تعليم وتعليم. من عوامل عرقلة الإبداع أيضا، المطالبة بتدريس الطب وبعض العلوم الحديثة باللغة العربية إن هذه العلوم قد تقدمت تقدما مذهلا فى أوروبا فكيف إذن يكون بالإمكان تدريس تلك العلوم بالعربية كيف سيتعامل المشتغل بتلك العلوم مع الكتب التى تصدر كل يوم وهى بلغات غير عربية.

الواقع إن نظام تعليمنا الحالى لا يؤدى إلى وجود تيارات مبدعة لا يؤدى إلى إحياء الروح النقدية الموضوعية. إنه لا يضع فى اعتباره أن العالم يتغير من حولنا وما كان مفيدا فى الماضى يعد اليوم عديم الفائدة. لابد من ثورة جذرية فى مجال التعليم، إذ ليس من المناسب إطلاقا أن نتغافل فى مناهجنا الحالية عن التطورات الحاسمة فى كل مجال من المجالات الفكرية والثقافية والعلمية فى العالم المتقدم.

وما يقال عن التعليم فى المدارس، ينطبق على التعليم فى جامعاتنا هل أدت المناهج الحالية إلى وجود قيادات مبدعة؟ الإجابة بالنفى بطبيعة الحال.

ومما يؤسف له أننا إذا كنا نتحدث عن الإبداع وعلاقته بالتنوير من منظور العولمة فإنه لا مفر من القول بأن مساحة الظلام فى المناهج الجامعية الحالية تعد أضعاف مساحة النور والتنوير.فإن مناهجنا الحالية تقوم على الحفظ والترديد والتلقين والمقلد ينظر إلى أسفل، ولا ينظر إلى الأمام ومن هنا

فلا إبداع ولا مبدعون. المبدع له نظرته التقدمية أما المقلد فإنه يحاول الصعود إلى الهاوية ولن نجد تقدما فى أى دولة من الدول إلا إذا وجد فيها عدد كبير من المبدعين فى كل المجالات من تعليم وثقافة وفكر بوجه عام.

كيف نتحدث عن الإبداع وتنمية الروح النقدية فى جامعاتنا فى الوقت الذى نجد فيه بعض المناهج تدور حول ما يسمى بالفكر الأصولى هل يدخل هذا فى دائرة المعقول أم دائرة اللامعقول؟ نعم لابد من القضاء على كل فكر رجعى غير تقدمى. إن هذا الفكر سيؤدى بنا إلى الرجوع إلى الوراء الرجوع إلى الخلف باستمرار. إذا قيل وأين مكان التراث فى مناهجنا فإننا نقول إننا يجب أن ننظر إلى التراث نظرة صحيحة موضوعية وكم من خرافات نجدها فى بعض كتب التراث؛ خرافات تزيد عددا عن مجموع سكان الدول العربية ينبغى أن نضع فى اعتبارنا أن كتب القدامى من أجدادنا فى مجالات كالطبيعة والكيمياء والفلك إنما تدور حول المحور الكيفى، والعلم الآن كم وكم فقط فهل يمكن أن ننتظر إبداعا ونحن حتى الآن نقوم بتقديس كتب التراث. إن تدريس آلاف الكتب التراثية فى مجال العلم بفروعه لا يمكن أن يؤدى إلى تخريج طبيب أو عالم من علماء الطبيعة والفلك.

إن العالم يتغير من حولنا وإذا لم ننظر إلى قضية الإبداع نظرة فورية ومن اليوم، وبحيث لا نقوم بتأجيلها إلى الغد فإن الغد سيكون متأخرا من خلال منظور معين، وهو أن العالم تسوده اليوم ثورة التغيير.

نقول ونكرر القول إن تدعيم الإبداع لا يمكن أن يتحقق إلا إذا نظرنا إلى الإنسان نظرة جديدة، نظرنا نظرة شمولية إلى حقوق الإنسان، تلك الحقوق التى لا تقتصر على حقوق الحياة فقط بل حقه فى السلام والتعليم والمعرفة نظرنا إلى الإنسان أيضا ككائن علمى، على أساس أن البحث العلمى نفسه يعد عملا إبداعيا، نظرنا إلى تربية الإنسان على أساس أنها لابد أن تؤدى إلى غد أفضل من الحاضر.

وأعتقد أن هذه النظرة لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال رؤية نقدية تنويرية عالمية رؤية تلتفت فى غضب إلى الماضى وتقول له وداعا، إذ أن

العصر غير العصر ومطالب اليوم غير مطالب الأمس ، رؤية تقتلع جـــذور الظلام اقتلاعا لأن تلك الجذور قد فرضت على النـــاس فـــى المـــاضى دون إرادتهم أو طلب من جانبهم.

هذه النظرة التنويرية تقوم أساسا على احترام حقوق الإنسان والدفاع عن حريته إذ لا يمكن تصور الإبداع وسط الأغلال أو القيود فلنوفر المنـــاخ أولا وبعد ذلك نبحث عن المبدعين فى كل المجالات العلمية والفكرية بوجـــه عام فلنسع بكل قوتنا نحو التنوير، لأنه لا يمكن تصور ابداع بـــدون تنويـــر يتمثل فى فتح النوافذ على الفكر الأوروبى الغربى.

ما أكثر العوامل التى تؤدى إلى عرقلة الإبداع والروح النقدية، ومـــا أكثر أوجه القضاء على معوقات الإبداع ومعوقات النقد الموضوعى والمـــهم فى رأينا أن نحدد بصراحة وشجاعة تلك المعوقات، حتى يمكننـــا التصـــدى بحسم لها فلا مشكلة بدون حل والإرادة الإنســـانية إذا اتخـــذت مـــن العلـــم والمعرفة والإستنارة سلاحا فإنها كفيلة بتحقيق مستقبل أفضل للبشرية. مستقبل يـــزيد فيه عدد المبدعين فى كل مجالات المعرفة الإنســـانية حتـــى يحقـــق الإنسان ذاته ويؤكد على حقه فى السلام والأمن والطمأنينة ولكن هـــل ســـيتم ذلك فى المستقبل القريب؟.. أعتقد بأننا إذا تأملنا بدقة فى الأساليب أو الأسلحة التى تعتمد عليها قوى عرقلة الإبداع والروح النقدية والتقـــدم، فـــإن التـــأمل الموضوعى لابد وأن يؤدى بنا إلى القول إن الإعتقاد بأن تغييرا سيتم من أجل الإبداع، لن يتحقق على أحسن الفروض إلا فى مســـتقبل بعيـــد وليـــس فـــى المستقبل القريب.

إن الطريق إلى أن تكون لنا إسهاماتنا مستقبلا لا يمكن أن نتصـــوره إلا بانفتاح على فكر الأمم الأخرى . لا أمل إذن إلا بالإنفتاح على كل تيارات وثقافة العالم الإنفتاح على كل تيارات الفكر الغربى، الإنفتـــاح علـــى العلـــم والحضـــارة وكفانا تلك الدعوات التى تصدر عن أناس اعتبرهم من المتخلفين عقليا وأقصد بهم أولئك الذين يصورون لنا أن الغرب يعيش ظلاما فى ظـــلام

يصورون لنا العلم وكأنه شر مستطير، يصورون لنا الحضـــارة الأوروبيـــة وكأنها الفك المفترس الذى يريد أن يتغذى على تراثنا القديم.

كلا يا سادة ليس العلم الغربى ظلاما، ليست الحضارة الأوروبية شرا، ولكن الشر يأتى من الدعوات المغلقة فالظلام يرتبط بضيق الأفق ومن يغلــق عليه النوافذ لابد أن يصاب بضيق التنفس أو سيتنفس هواء راكدا فاسدا.

أقول لابد أن نأخذ أسباب العلم والحضارة والعلم الآن بيد الغرب شئنا أم لم نشأ، الحضارة الآن تتمثل فى أوروبا أردنا أم لم نرد فيجب أن نســتيقظ ونعرف تماما أننا إذا أردنا لنا فكرا، إذا أردنا لنا اتجاها فلا مفر من الانفتــاح على كل التيارات.

ثم بعد ذلك فلنأخذ منها ما نأخذ ولنرفض منها ما نرفض أما أن نهاجم لمجرد الهجوم أن نرفض لمجرد الرفض فإننى بصراحة اعتبر هــذا ســلوكا عدوانيا يعد أدنى مرتبة من سلوك الحيوانات المفترسة، ولنعترف بصراحــة ولنكــاشف أنفسنا على حقيقتها وسنرى أننا إذا فعلنا مستقبلا مثل مــا نفعــل حاليا فسوف نصل إلى حالة شديدة من التخلف وإذا أدعينا أننا نصعــد، فــهو صعود إلى الهاوية.

فلنعترف بصراحة أننا نمر الآن بحالة من الكسل العقلى أننا نمر الآن بحالة من جمود الفكر وضيق الأفق. ونحن الآن أمام موقفين كما قلنا يجــب علينا أن نختار موقفا منهما، أما أن نباعد بيننا وبين العقل والحضارة والعلــم وهذا سيؤدى بنا إلى التخلف والإنهيار والاضمحلال، أو أن نتمسك بأســاليب العلم ونجعل العقل هو المعيار وهذا سيؤدى بنا إلى التقدم والازدهار بحيــث يأخذ فكرنا العربى مكانة بين الفكر الغربى فالفكر الغربى يتقدم تقدما ســريعا أما الفكر العربى فقد أصبح فكرا متقوقعا فكرا محليا .

ويبدو لى – وقد وصلنا إلى تلك الحالة التى يرثى لها أنه لا مفر من الإطلاع على الفكر الغربى بكل ما نملك من قوى وأدوات. كفانا – كما قلــت – هجوما على العلم وعلى الحضارة فى أوروبا إنه لمن مصائب الزمــان أن يهاجـم الفرد منا الحضارة والعلم من ميكروفون فى الوقت الــذى يجـب أن

نعلم فيه أن هذا الميكروفون ثمرة من ثمرات الحضارة، يهاجم الفرد منا العلم الأوروبي ثم يسارع لاستعمال السيارة، والسيارة تعد ثمرة من ثمرات العلم ولو كان هذا الفرد الذى يهاجم العلم متسقا مع نفسه وصريحا معها لاستخدم الدواب فى تنقلاته ولكنه للأسف الشديد يتناقض فى سلوكه مع أقواله. يهاجم الفرد منا العلم الأوروبى ويسود آلاف الصفحات يدفع بها إلى المطبعة والمطبعة أيضا تعد ثمرة من ثمرات الحضارة.

ومن هنا كان واجبا علينا وخاصة بعد أن وصلنا إلى تلك الحالة التى يرثى لها ، أن نقوم بالإطلاع على فكر الغرب ونأخذ منه ما نأخذ دون خوف على شخصيتنا فمن يؤمن بطريق النور والتنوير لا خوف عليه لأن هذا الطريق سيؤدى به إلى التقدم إلى الأمام.

إن تراث السلف إذا قصدنا بالسلف أجدادنا من المفكرين لا يعد كله صوابا ولا يعد كله خطأ. إن تراث السلف فى بعضه ما يصلح لنا فى حياتنا الحاضرة. وفى بعضه الآخر ما يعد عائقا بيننا وبين التقدم ولنأخذ فى اعتبارنا أننا لو قرأنا على سبيل المثال كل كتب أجدادنا فى مجال العلوم فلن تساعدنا تلك الكتب على أن نتوصل إلى أى مخترع من المخترعات الحديثة، وجربوا ما شئتم حتى تصدقوا ما أقول به الآن، اجعلوا كتب الماضى هى الكتب المعتمدة والرئيسة فى كلية العلوم فى أى بلدة من البلدان العربية فإذا حدث، لن يكون فى إمكان خريجى تلك الكلية التوصل إلى أى شئ جديد لماذا؟ لأنهم وقفوا عند كتب التراث لأنهم تصوروا أن القديم لابد أن يعد شيئا عظيما مقدسا لمجرد أنه قديم.

إننا أيها القراء أصبحنا كمن يبكى على الأطلال، إن تجاوز التراث والإنطلاق إلى الحديث والمعاصرة يعد أمرا ضروريا وقد قام أجدادنا بما استطاعوا القيام به فلنشكرهم على ما قاموا به. ولكن لا يصح أن نقف جامدين عند أقوالهم. إنهم أقاموا فكرهم العلمى وتصوراتهم المذهبية على أساس القول بالعناصر الأربعة التى قال بها القدماء وهى التراب والماء والهواء والنار... فهل عدد العناصر الآن أربعة كلا أيها القراء... العلم الآن غير العلم فى الماضى.. والمذاهب الفلسفية التى أقيمت على أساس النظام العلمى القديم أصبحت الآن فى خبر كان، أصبحت الآن تراثا ماضيا وولى شأنها فلا يصح الوقوف عندها جامدين بل لابد من الإنطلاق منها إلى الفكر

العلمى الحديث لأن المنهج غير منهج الماضى. العلم الآن ليس فيه أى حديث عن الكيفيات بل العلم الآن كم وكم فقط ومن يحشر فى كلامه العلمى أى قول عن الكيفيات فلا أشك لحظة واحدة فى أنه لابد وأن يكون هاربا من مستشفى من مستشفيات الأمراض العقلية.

إن أوروبا لم تتقدم إلا عن طريق السعى بكل قوتها وابتداء من عصر النهضة نحو تحقيق مبدأ التنوير وبحيث وجدنا ثقافة أوروبية جديدة تختلف فى أساسها ومنهجها عن ثقافة العصور الوسطى . لم تقل أوروبا لنفسها أننا يجب أن نقف عند فلسفة فلاسفة الغرب فى العصور الوسطى. بل إنها آمنت بالإنطلاق نحو العقل، نحو الحضارة الحديثة، نحو التنوير، ولكن ماذا نقول وقد تحولت بعض مجلاتنا الفكرية أن لم تكن كلها إلى أبواق دعاية للظلام والرجعية والهجوم على التنوير وذلك لأسباب عديدة من بينها سحر الدولار وما أدراك ما الدولار.

تحديات كثيرة تواجه العرب إذن فى القرن القادم، تحديات ثقافية وتحديات اجتماعية، وتحديات سياسية، إلى آخر تلك التحديات وما أكثرها كما قلت. ولابد أن نواجه هذه التحديات. فمواجهة التحدى أفضل ألف مرة من السكوت واللامبالاة. إن مواجهة التحدى تعد تعبيرا عن "موقف" والإنسان العربى قادر على اتخاذ العديد من المواقف إزاء كل خطر يواجهه، قادر على أن يقرر لنفسه الحياة فى هذا الزمن والأزمان التالية والمهم هو أن يكون إيجابيا عن طريق التسلح بالروح النقدية وليس سلبيا، أو كما قال الشاعر الإنجليزى وليم شكسبير منذ زمان. أن أكون أو لا أكون هذا هو السؤال، أو هذه هى المشكلة.

هذا ما نقول به اليوم إيمانا من جانبنا بالثورة النقدية، نقول به وخاصة أننا ما زلنا لا نجد أمامنا إلا النقد الكسيح، النقد الزائف، النقد السطحى، وإن كان أكثرهم لا يعلمون.

الفصل الثالث:

مثقفون وأشباه مثقفين (ظلمة العدم ونور الوجود).

ويتضمن هذا الفصل العناصر والمجالات التالية:

١ - البتروفكر.

٢ - من هو المثقف؟

٣ - المثقف والمجتمع.

٤ - شبابنا وقضية الثقافة.

٥ - لغة النور ولغة الظلام.

٦ - ثقافة النور وأساطير الظلام.

٧ - أسطورة الغزو الثقافى.

٨ - الفكر المصرى وتقديس العقل والتنوير.

٩ - التليفزيون وإعلان الحرب على الثقافة.

١٠ - التليفزيون وثقافة الجيل الجديد.

١١ - التليفزيون والإغتراب عن العقل.

١٢ - التكامل الثقافى برؤية فلسفية.

١٣ - الهجوم على الرواد والانهيار الثقافى

١٤ - هل يوجد مستقبل لفكرنا العربى؟

١٥ - جائزة نوبل وقضية المحلية والعالمية.

"غير مجدية فى ملتى واعتقادى الدعوة إلى إغلاق النوافذ بحيث لا نجد إلا الهواء الفاسد الراكد الذى يؤدى بنا إلى الاختناق والصعود إلى الهاوية، يؤدى بنا إلى العدم. لابد إذن من فتح النوافذ حتى نجد الهواء النقى المتجدد. إن هذا يؤدى بنا إلى الوجود، إلى البقاء، فالوجود باستمرار يرتبط بالنور، وإن كان أكثرهم لا يعلمون".

(١)

البتـــروفكـــر

"لقد وجدنا تحت تأثير البتروفكر قضايا زائفة، كقضايا الغزو الثقافي، والهجوم علـــى الحضارة الغربية، والخلط بين الدين والعلم، وأسلمة العلـــوم، ونشـــر الفكر الأصولي، وتدعيم الفكر الإرهابي، والـــهجوم علـــى الفكـــر الفلســـفي وتدريسه بمدارسنا وجامعاتنا، والدفاع عن التراث جملة وتفصيلا رغـــم مـــا نجده في تراثنا من خرافات قد يكون عددها أكثر من عدد سكان الدول العربية من محيطها إلى خليجها ومن مشرقها إلى مغربها".

"البتـــــروفكـــر"

قد لا أكون مبالغا إذا قلت بأن ظاهرة "البتروفكر" تعـــد مـــن أكـــثر الظواهر شيوعا فى عالمنا العربى إنها للأسف الشديد تعد معبرة عن نوع من التخلف العقلى والصعود إلى الهاوية، وبحيث أدى انتشارها إلى ضعف ثقافتنا العربية، وجعلها ثقافة محلية راكدة لا نستطيع أن نخاطب بها مثقفـــى العـــالم الحر، المثقفيـــن فى البلدان المتقدمة. بل من المؤسف لـــه أن نجـــد ثقافتنـــا العربية المعاصرة وكأنها أضعف من بيـــت العنكبوت. ثقافة أضعف بكثـــير من الثقافة التى وجدناها عند رواد التنوير فى عالمنا العربى عامة، ومصــــر على وجه الخصوص، وذلك منذ أكثر من قرن من الزمان،وإن كان أكـــثرهم لا يعلمون.

لقد أثيرت تحت تأثير البتروفكر مجموعة من القضايا الزائفـــة فـــى الوقت الذى كنا ننتظر فيه أن تكون أموال البترول مؤدية إلـــى نشـــر الفكـــر الواعى المستنير فى عالمنا العربى، وخاصة أن العروبة تعد ثقافـــة قبـــل أن تكون سياسة، ولكن حدث العكس. فتحت تأثير البتروفكر وجدنا على ســـبيل المثال لا الحصر قضية الغزو الثقـــافى، قضيـــة الـــهجوم علـــى الحضـــارة الأوروبية، قضية الخلط بين الدين والعلم، قضية أسلمة العلوم، قضيـــة نشـــر الفكر الأصولى وتدعيم الفكر الإرهابى، قضية الهجوم على الفكـــر الفلســـفى وتدريسه بمدارسنا وجامعاتنا، قضية الدفاع عن التراث جملة وتفصيلا رغـــم ما قـــد نجده فى تراثنا من خرافات قد يكون عددها أكثر مـــن عـــدد ســـكان الدول العربية من محيطها إلى خليجها ومن مشرقها إلى مغربها.

صدقونى أيها القراء الأعزاء حين أقول لكم بأن العيب ليس فى الدين، بل فى الفهم الخاطئ للدين. العيب ليس فى التراث، ولكن العيب كل العيب إنما يكمن فى الوقوف عند التراث ورفض التأويل، وبحيث أصبح حالنا كحال من يبكى على الأطلال.

لقد وجدنا فى مصر وفى مطلع عصر التنوير مجموعة من الإتجاهات الفكرية والأدبية كان بالإمكان أن تتبلور فى المستقبل إلى مذاهب أدبية ومذاهب فلسفية، ولكن حدثت النكسة، نكسة الفكر حين انتشرت بيننا ظاهرة البتروفكر، أى الفكر الذى يدور فى فلك البترول وارتباط البترول بالدولار، وما أدراك ما الدولار وسحر الدولار.

إننى أحمد الله تعالى على أننى لم أعمل بدولة من دول البترول، ومن هنا فإننى أتكلم بكل صراحة ووضوح. إن أكثر دراساتنا الحالية وخاصة من حيث المنهج، منهج دراستها، قد أصبحت أضحوكة عند الباحثين والمستشرقين الأوروبيين. وهل من المعقول أن يصبح فكر ابن تيمية وتحت تأثير البتروفكر، هو الفكر المسيطر على أذهان المشتغلين بالفكر فى بلداننا العربية، وذلك على الرغم من لا عقلانية فكر هذا الرجل، وما قد يؤدى إليه فكره من إيجاد نوع من الإرهاب الثقافى. هل يستطيع واحد من هؤلاء الذين يخضعون للبتروفكر أن يكتب كلمة واحدة يدافع فيها عن الفكر الغربى الأوروبى وعن الحضارة الأوروبية؟ كلا ثم كلا. إن المثقف منا إذا كتب دراسة واحدة عن "ابن رشد" وحقيقة فلسفته، فإن الأبواب ستكون مغلقة تماما أمامه . أما إذا كتب عن "ابن تيمية" وفكره، فإن الأبواب ستكون مفتوحة أمامه وأموال البترول ستكون طوع أمره. هذا ما نقوله بصراحة وبحيث يؤدى بنا إلى الاعتقاد بالصلة بين الغنى والتأخر الفكرى، وبين الفقر والتقدم الفكرى.

إن المناخ الفكرى السائد فى أكثر بلدان العالم العربى إنما يعد معبرا عن الترحيب بالفكر الذى لا يمكن اعتباره عقلانيا وبالتالى الضيق بالفكر الحر، الفكر العقلانى التنويرى. ومن المؤسف له أن الأفكار التى وجدناها فى عالمنا العربى وقبل انتشار ظاهرة البترونفكر، تلك الأفكار الحية والتنويرية، قد لا يستطيع أحد القول بها حاليا وإلا سيكون مصيره التصفية الجسدية وهذا إن دلنا على شئ، فإنما يدلنا على أننا نرجع إلى الوراء فكريا ولا نتقدم إلى الأمام ولا تصدقوا فردا من الأفراد يزعم بأن لدينا مذاهب نقدية أدبية، ومذاهب فلسفية، إذ أن الواقع يبين لنا أننا لا نجد فى عالمنا العربى المعاصر فردا واحدا يمكن أن نطلق عليه لفظ "الشاعر" إلا إذا قلنا بأن الشعر إنما يتمثل فى الكلمات المتقاطعة. لا نجد لدينا حركة نقدية، إذ أن ظاهرة البترونفكر قد أدت إلى ضرورة القول برأى واحد مقرر على الكل. ألم يذهب ابن تيمية منذ قديم الزمان فى هجومه على الفلسفة إلى القول بأن الفلسفة قد أدت إلى اختلاف الناس؟

لا نجد لدينا مذاهب فلسفية، وإذا قال فرد بغير ذلك، وادعى لنفسه أنه يعد فيلسوفا، فإن هذا القول يعد نوعا من تضخم الأنا، نوعا من السلب والنهب، تماما كشركات توظيف الأموال التى اتخذت من الدين ستارا تختفى وراءه ما تقوم به من إرهاب اقتصادى وخداع للآخرين.

وتحت تأثير البترونفكر وجدنا أناسا يقومون بالهجوم على منجزات الحضارة الأوروبية ويقولون بأن كل ما أتى من الغرب إنما يعد فسادا فى فساد. وضلالا ما بعده ضلال. ومن المؤسف له أن هؤلاء النلس الذين يقعون تحت سطوة البترونفكر، يتناقض سلوكهم مع أقوالهم. إنهم من أكثر الناس استفادة من منجزات الحضارة الأوروبية. وإذا أصاب واحدا منهم المرض، فإنه يكون من أسبق الناس طلبا للعلاج بالخارج. ويذهب إلى الخارج بطائرة، والطائرة من منجزات الحضارة الأوروبية. إن الواحد من هؤلاء إذا أراد

أن يكون متناسقا مع نفسه، فلابد ادن أن يطلب العلاج على أيـــدى حلاقـــى الصحة، ولكى ينتقل إليهم فلا مفر من استخدامه الدواب فى الترحال.

وظاهرة "البتروفكر" قد أدت بما أدت إليه إلى انتشار الخلط بين الدين والعـــلم. لقد وجد بيننا أناس تصوروا أن الإنتصار للدين إنمـــا يتمثـــل فـــى دفاعهم عن القول بإمكانية استخراج كل النظريات العلمية من الآيات القرآنية. وهذا لعمرى يعد نوعا من الإساءة إلى الدين. فالدين ثـــابت والعلـــم متغـــير، فكيف إذن نلحق الثابت بالمتغير؟ وإذا قلنا مثلا بأن نظرية النسبية للعبقـــرى أينشتين يمكن استخراجها من الآيات القرآنية، فكيف يكون الحـــال إذا خـــرج عالم من العلماء على نظرية النسبية وقال لنا بنظرية علمية أخرى. أذكـــر أن عالما كبيرا من رجال الدين فى دولة بترولية قد ذهب إلـــى القـــول بـــأن الأرض ثابتة وليست متحـــركة ويدلل علـــى رأيـــه بـــالعديد مـــن الحجـــج المضحكة. وحين قابلت عالما من علماء الجغرافيا بمصر وكان قادما لتوه من تلك الدولة العربية، سألته عن كيفية تدريسه للجغرافيا فى تلك البلـــدة رغـــم اعتقاد بعض رجالها بأن الأرض ثابتة، فأجابنى قائلا: إننى كنت أبـــدأ دروس الجغرافيا بالقول: يقول الكفار والعياذ بالله بأن الأرض متحركـــة، فالحقيقـــة الجغرافية إذن كنت أنسبها إلى الكفار. أرأيتم أيها القراء الأعزاء مثالا أوضح من هذا المثال وتحت تأثير البتروفكر أيضا انتشر القـــول "بأســـلمة العلـــوم" والـــواقع أن القائلين بهذا الـــرأى لم يضعوا في اعتبـــارهم أن العلـــم عنـــد العرب لم ينشأ أساسا كعلم دقيق إلا فى العصر العباسى، لسبب بســـيط جـــدا وهو حركة الترجمة، ترجمة الكتب العلمية من اللغة اليونانيـــة إلـــى اللغـــة العربية. وهذا يعنى أننا لا نجد نتاجا علميا للعرب إلا ابتـــداء مـــن العصـــر العباسى، وكل ما وجدناه قبل ذلك إنما يعد من قبيل الخبرات، ولا تدخل هـــده الخبرات فى مجال الفكر العلمى من قريب أو من بعيد.

لقد انتشر بيننا الفقر الفكرى، وأصبحت ثقافتنا كلاما فى كلام. وشروحا على شروح ووقفنا عند كتب التراث الصفراء، دون أن نضع فى اعتبارنا أن التراث يعنى ما تركه السابقون علينا. وهم مجموعة من أفراد البشر قالوا ما قالوا به بحكم عصرهم، وعصرنا الآن غير عصرهم وليس من الضرورى إذن أن يكون كل ما قالوه صوابا. وهل من المعقول أن أقف عند حدود علمهم الذى قام على نظرية العناصر الأربعة، وبحيث أضرب عرض الحائط بالعلم الحديث، البالغ الدقة واليقين.

بل إن ظاهرة التأكيد على القول بأن فلسفتنا تعد فلسفة إسلامية، إنما تعد تلك الظاهرة معبرة عن الوقوع تحت تأثير "البتروفكر"، إذ أن الصحيح هو القول بأن فلسفتنا تعد فلسفة عربية، تماما كما نقول الفلسفة الإنجليزية والفلسفة الفرنسية والفلسفة الألمانية. صحيح أننا وجدنا أناسا قالوا إن فلسفتنا تعد فلسفة إسلامية وقبل انتشار ظاهرة البتروفكر، ولكن من الصحيح أيضا أن الترويج حاليا لتسمية فلسفتنا بأنها فلسفة إسلامية، إنما تم تحت تأثير البتروفكر، تماما كما وجدنا حاليا وتحت تأثير البتروفكر، ظاهرة الخلط بين الدين والسياسة.

والواقع أنه ليس بالإمكان الحديث عن سلبيات وأخطاء ظاهرة البتروفكر . ونقول كم من الأخطاء والكوارث حدثت تحت تأثير تلك الظاهرة. لقد خلطنا الأوراق، وأدى الخلط إلى الإرهاب الفكرى والثقافى، أدى إلى حياة الظلام والكهوف والمغارات . ويقينى أن التنبيه إلى أخطار ومفاسد البتروفكر سيؤدى إلى كشف العلاقة بين الأصولية والإرهاب وسيؤدى إلى القول بأن الطريق إلى التنوير، الطريق إلى المستقبل الوضاء المشرق سوف لا يتم إلا بالإيمان بقدرة العقل، العقل الذى خلقه الله فينا. ويوم ينتشر بيننا الفكر العقلانى المستنير وبحيث نبتعد تماما عن ظاهرة "البتروفكر" وبحيث نقول لأصحابها إلى الجحيم وبئس المصير وأن لكم دينكم ولنا دين، فسوف يصبح الحال غير الحال وعندها تصبح لنا كعرب قوة مؤثرة فى مجال التيارات الفكرية والعلمية.

(٢)

من هو المثقف؟

"غير مجد فى ملتى واعتقادى، التوحيد بين المثقف مـــن جهـــة، والمتخصص فى مجـــال من المجالات الأكاديمية من جهة أخرى. فإذا اقتصر المتخصص على مجال معين من المجالات، فإنه لا يعد بالضرورة مثقفا. إنه لا يكون مثقفا إلا إذا أضاف إلى تخصصـــه، اهتماما بالمجالات الثقافية على اختلاف أنواعها ومظاهرها وبمـــا تشمله من فنون وآداب".

(٢)
من هو المثقف؟

كثر فى السنوات الأخيرة وخاصة فى عالمنا العربى، الحديث عن الثقافة، وتحديد الشروط التى من أجلها نقول إن فردا من الأفراد يعد مثقفا، أى من هو المثقف، وحاول الكثيرون التفرقة بين المثقف وغير المثقف، وتحديد المصادر التى يأخذ منها المثقف ثقافته.

ومن الأمور التى يؤسف لها فى عالمنا العربى، أننا مازلنا نخلط خلطا غريبا بين المثقف من جهة، والمتخصص الدقيق فى مجال من مجالات العلوم الإنسانية وغيرها من العلوم من جهة أخرى. بل حاول بعضنا قصر الثقافة على نوع واحد هو الثقافة الدينية،بمعنى أن الفرد لا يعد مثقفا إلا إذا كانت ثقافته تعد أساسا ثقافة دينية، بل إن الثقافات الأخرى الإنسانية لا تعد عندهم ثقافة، بل تعد جهلا وضلالا، تعد نوعا من الإنحراف الفكرى وبحيث يكون صاحبها داخلا فى دائرة الجهل ومبتعدا بالتالى عن دائرة الثقافة.

بل إن بعض الباحثين فى قضايا الثقافة فى بعض بلدان العالم العربى، قاموا بالربط بين الثقافة من جهة والإلتزام بأيديولوجية فكرية وسياسية واجتماعية معينة، من جهة أخرى، حتى أنهم يصفون غيرهم، أى الذين لا يلتزمون بتلك الأيديولوجية، وليكن مثلا الفكر الإشتراكى، فإذا خرجوا عن إطار هذا الفكر وما يقوم عليه من أيديولوجية محددة، فإنهم يكونون إذن من غير المثقفين، والثقافة منهم براء. وهكذا إلى آخر الأخطاء وما أكثرها، والتى نجدها شائعة فى أكثر بلدان عالمنا العربى من مشرقه إلى مغربه.

ولهذا كله وجدنا من جانبنا أنه من الضرورى أن ننبه إلى الأخطاء العديدة التى تشيع فى بلداننا العربية شرقا وغربا، الأخطاء التى تتعلق بقضايا الثقافة، وتحديد من هو المثقف.

غير مجد فى ملتى واعتقادى التوحيد بين المثقف من جهة، والمتخصص فى مجال من المجالات الأكاديمية من جهة أخرى. فإذا اقتصر المتخصص على مجال معين من المجالات فإنه ليس من الضرورى أن يكون مثقفا بل إنه لا يكون مثقفا إلا إذا أضاف إلى تخصصه اهتماما بالمجالات الثقافية على اختلاف أنواعها ومظاهرها وبما تشمله من فنون وآداب.

وإذا كنا نعيش فى عالم متغير متطور. عالم نجد فيه العديد من المذاهب الأدبية والإجتماعية والفنية بالإضافة إلى المخترعات العلمية، فإن الفرد منا لا يكون مثقفا إلا إذا ألم بهذه التيارات.والمذاهب الأدبية والفنية على اختلاف صورها. ومن هنا يجيئ دور الكتاب ودور الأجهزة الثقافية ووسائل الإعلام أيضا فى تشكيل الفرد وبناء شخصيته وذلك حتى يكون مثقفا ثقافة شاملة إلى حد كبير ولعل الكتاب يأتى فى مقدمة المصادر الثقافية وسيظل الطريق الذهبى نحو الثقافة فى أعلى صورها. فيجب علينا إذن الإستفادة من الكتاب وغيره من المصادر الثقافية وذلك حتى نكون مثقفين ثقافة حقيقية وحتى نستطع مواكبة العصر الذى نعيش فيه. ولننظر إلى ما كان يفعله الناس فى عصر التنوير فى أوروبا وما كان يفعله مفكرونا الكبار من أمثال لطفى السيد وطه حسين وسلامة موسى. إن كتاباتهم تشهد على أنهم نظروا إلى الثقافة، نظرة حقيقية. ومن هنا نجدهم يكتبون فى شتى المجالات الفكرية والثقافية والإجتماعية الأدبية والفنية. وليس من المنطقى ولا من المناسب أن يكون الفرد وهو يعيش فى القرن الواحد والعشرين، غير ملم بأبرز التيارات الإجتماعية والسياسية وأهم المذاهب الأدبية والفنية. إنه إذا

لم يفعل ذلك فإنه سيكون غريبا عن عصره ، سيكون في واد وعصره في واد آخر تماما كما يجلس الفرد الذى يجهل لغة من اللغات وسط أناس يتكلمـــون تلك اللغة التى يجهلها، إن التفاهم بينه وبينهم سيكون مستحيلا. سيكون الحوار بينه وبينهم مقطوعا تماما.

يجب إذن أن نعيش عصرنا. وكم قلنا ونكرر القول بأن كتب التراث إذا كانت مفيدة فى الماضى، فإنه ليس من الضرورى أن تكون لها نفس الفائدة فى العصور الحاضرة أو المستقبلة. بل إن دور المثقف الآن يختلف عن دوره منذ ربع قرن أو نصف قرن، وذلك لأن المثقف الحالى مطالب بالإلمام بكـــل التغيرات التى تحدث فى السنوات التى يعيشها.

ومن علامات المثقف وخصائصه أن يكون مستنيرا، ألا يكون مغلقـــا ومنغلقا على نفسه. أن يكون عقله مفتوحا على كل التيارات الفكرية وأن يكون وجدانه ثريا وبحيث لا يتردد فى داسة الأفكار الأدبية والتيارات الفنية. كما أن المثقف ثقافة حقيقية لا يلجأ إلى أى نوع من أنواع الإرهاب الفكرى، فـــالعقل أعدل الأشياء قسمة بين البشر، فإذا كان يقول بمجموعة من الحجج والأدلـــة، فإن غيره يستند أيضا إلى أنواع من الحجج والأدلة. ومن هنا فإن المثقف يلجأ إلى الحوار الهادئ المستنير ولا يلجأ إلى الضغط أو الإرهاب. وانظروا أيـــها القراء الأعزاء إلى بلدان كثيرة وفى عصور متعددة وخاصة عصر التنويـــر بأوروبـــا وستجدون أوروبا تموج بالعديد من التيـــارات الفكريـــة والأدبيـــة ويكون الناس حريصين على الإطلاع عليها، دون أن يلجا الواحد منهم إلـــى السخرية من آراء لا تتفق والآراء التى يقول بها.

من علامات المثقف أيضا، أن تكون له وجهة نظر.وكم أكد على هذا المعنى الكثير من كتاب الغرب، بل كتابنا العرب أيضا ومن بينهم زكى نجيب محمود. فالفرد إذا اطلع – كما قلنا – على العديد من التيـــارات والمذاهـــب الفكرية والسياسية والإجتماعية، فإنها لابد أن تؤدى به إلى تشكيل وجهة نظر

له يدافع عنها، ويناقش فى هدوء أوجه النظر الأخرى. ومن ليست له وجهة نظر فإنه لا يمكن أن يكون مثقفا على وجه الحقيقة.

نضيف إلى ذلك قولنا بأن سلوك المثقف حتى فى حياته العادية اليومية، يختلف عن سلوك غير المثقف. فالمثقف حين يقرأ جريدة يومية فإنه لا يقف عند السطور، بل يتعدى ظاهر السطور، إلى ما وراء السطور إن صح هذا التعبير إنه بمقتضى ثقافته التى كونها لنفسه يمتلك قدرة نقدية. يمتلك القدرة على التحليل والموازنة والحكم على الأحداث الإجتماعية والسياسية. أما غير المثقف فإنه يفتقد هذه القدرة، هذه الملكة النقدية ولذلك نراه يقف عند السطح، يقف عند الظاهر إنه يكون مجرد متابع للآخرين، فى حين نجد المثقف وقد امتلك الروح النقدية، قادرا على المقارنة، ويتسم بالروح الشكية، إنه يعتز بشخصه فهو لا يتابع الآخرين مجرد متابعة يعرف تماما..، أنه لا توجد بصمة من البصمات تطابق تمام المطابقة بصمة أخرى. يدرك تمام الإدراك أنه لا توجد ورقة شجر إلا وتختلف عن أوراق الشجر الأخرى فى كل أرجاء العالم شرقا وغربا. ومن هنا فلابد أن تكون للمثقف شخصيته التى تتميز عن الشخصيات الأخرى. وإذا لم نجد للفرد شخصية محددة المعالم ، ومتميزة الملامح، فإن معنى ذلك أنه لا يعد مثقفا ثقافة حقيقية. معنى ذلك أن المصادر الثقافية التى أطلع عليها لم يستفد منها الإستفادة الحقيقية.

وإذا كان المثقف هو – كما قلنا – من يكون حريصا على الإطلاع على كافة التيارات الفكرية والثقافية والفنية، فإن هذا لابد أن يقوم على تفضيله للجوانب المعنوية ورفعها فوق الجوانب المادية الجسدية. وكلما ارتقى فكر الإنسان واتسعت دائرة معرفته كلما كان مفضلا لكل ما هو معنوى ومدركا لأهميته لأن دور المثقف الحقيقى إنما يتمثل فى القراءة والقراءة المستمرة وذلك حتى يكون مثقفا، وحتى يكون مختلفا عن الحيوان، إذ أن

الإنسان فى حقيقته إنما هو حيوان مثقف. حيوان حضارى يسعى إلى ما هــو أعلــى، إلى ما يحقق إشباعا لذاته الفكرية وروحه الســامية، وحتــى يكــون جديرا بصفة الإنسانية.

والمثقف لابد أن يكون له منهجه فى القراءة. فلا يمكن أن يكون الفرد منا مثقفا إذا كانت معارفه عبارة عن شتات من المعلومات المتنــاثرة وغــير المتواصلة أو المنظمة. إنه عادة يكون له منهجه فى القراءة والإستزادة مــن المعــرفة. يكون له القدرة على الحكم على الأحداث الإجتماعية والسياســية بعد التعمق فى الثقافة من كافة مصادرها ووسائلها، وبعــد التــأمل الطويــل والتأنى فى إصدار الأحكام، إذ أن هذا كله سيؤدى به إلى الإبتعاد تماما عــن كل ما هو خرافى ، كل ما هو أسطورى، كل ما يعد تعبيرا عــن اللامعقــول والدجل والشعوذة.

(٣)

المثقف والمجتمع

"ليس من المناسب إطلاقا أن يزعم الفرد منا لنفسه وللآخرين أنه يعد مثقفا فى الوقت الذى لا تكون له اهتماماته الفكرية والسياسية، فالإنسان حيوان مفكر حيوان سياسى، وإن كان أكثرهم لا يعلمون".

(٣)
المثقف والمجتمع

نحن نعيش فى عالم متغير، عالم يخضع للعديد من التطورات الإجتماعية والسياسية والفكرية الهائلة. ولا يصح إطلاقا أن يكون المثقف فى واد وما يحدث فى مجتمعه من تطورات وتغييرات جذرية فى واد آخر بل إننا لا نبالغ فى القول إذا ذهبنا إلى الإعتقاد بأن الفرد منا لا يكون مثقفا، إلا إذا حاول من جانبه الإسهام فى حل مشكلات المجتمع الذى يعيش فيه وتقديم رؤية مستقبلية تنطلق إلى حد كبير من الواقع السياسى والإجتماعى والفكرى ليس لمجتمعه فقط، بل لسائر المجتمعات الأخرى شرقا وغربا وخاصة أن دول العالم تتشابك الآن تشابكا عجيبا فى المصالح والأغراض.

ليس من المناسب إطلاقا أن يزعم الفرد منا لنفسه وللآخرين أنه يعد مثقفا فى الوقت الذى لا تكون له اهتماماته الفكرية والسياسية، إذ أن الإنسان حيوان مفكر، حيوان سياسى. وإذا ضرب الفرد منا بالجوانب الفكرية والسياسية عرض الحائط، فإن معنى ذلك أنه لا ينتسب إلى الدائرة الإنسانية من قريب أو من بعيد، وإن كان أكثرهم لا يعلمون. إننا نستطيع بسهولة أن نفرق بين متخصص فى مجال من المجالات الأكاديمية وبحيث يحصر نفسه فى هذا المجال، وبين متخصص فى دائرة من دوائر العلوم إنسانية كانت أو مادية، وفى نفس الوقت تكون له إسهاماته البارزة ليس فى المجال النظرى فقط بل فى مجال العمل، العمل الاجتماعى والسياسى، وله موقفه الذى يتميز عن موقف الأخرين فى مجال رؤيته لحل مشكلاتنا الفكرية والسياسية

والإقتصادية وغيرها من المشكلات. وانظروا إلى مفكرينا من المعاصرين. لقد جمع طه حسين بين دوره كأستاذ بالجامعة متخصص في الأدب أساسا وبين الريادة الفكرية في مجتمعه. وكم جمع عباس العقاد بين المجالات النظرية والإهتمامات السياسية والفكرية. وكان أحمد لطفي السيد رئيسا للجامعة وفي نفس الوقت أستاذا لجيل وأجيال في القضايا الإجتماعية والفكرية التي بحث فيها وكم نجد ذلك واضحا غاية الوضوح ولا يحتاج إلى دليل أو برهان عند مفكرنا زكي نجيب محمود حين يجمع بين عمله الأكاديمي في الجامعة وبين ريادته الفكرية وخوضه العديد من المعارك الفكرية، إلى آخر الأمثلة التي تبين لنا أنه من الضروري لكل فرد يريد لنفسه أن يكون مثقفا أن تكون له إسهاماته الفكرية والإجتماعية، تكون له وقفة ورؤية في مجال الحاضر، بل في مجال المستقبل أيضا.

ويقيني أننا إذا فعلنا ذلك، فإنه سيكون بالإمكان حل أكثر مشكلاتنا سواء في مصر، أو في غيرها من بلدان العالم العربي، ولكننا للأسف الشديد نلهو بالثقافة، نتأثر بظروفنا الإجتماعية وفي نفس الوقت لا نكن مؤثرين في مجال تشكيل ثقافتنا وفكرنا وواقعنا الذي نعيش فيه. إن أكثر العلوم والفنون لها دورها الإجتماعي، بل دورها السياسي أيضا. ولنفهم هذا جيدا. لا يصح للفرد منا أن يعيش في برجه العاجي أو ينظر إلى الحاضر أو المستقبل من خلال منظور الماضي. أليس مما يدعو إلى الحزن والأسى أن يحاول البعض منا البحث عن حلول لمشكلاتنا الفكرية والسياسية والإجتماعية في واقعنا المعاصر، عن طريق التمسك بآراء الأقدمين، عن طريق الإلتزام بكل فكرة موجودة في الكتب الصفراء، كتب التراث، رغم ما قد نجده في بعض كتب التراث من أباطيل وخرافات. أليس من المناسب والأجدى أن تكون لدينا القدرة على أن نأخذ منها مانأخذ ولكن لابد أن نرفض منها ما لا يتفق وواقع مجتمعاتنا المعاصرة وإلا سنكون كمن يبكي على

الأطلال. لقد كان مؤلفو تلك الكتب أفرادا بشرا مثلى ومثلـــك أيـــها القـــارئ العزيز ولم يكونوا قديسين. والوقوع فى الأخطاء من طبيعة البشر. هل ننتظر لأنفسنـــا تقدما فى المجالات الطبيعية والكيميائية والفلكية مثلا إذا جعلنا مناهج كلياتنا العلمية قائمة على دراسة الآراء العلمية عند أمثال جابر بن حيان وابن سينا والحسن بن الهيثم وأبى بكر الرازى وغيرهم؟ لقد أدى هـــؤلاء دورهـــم الممتاز ولكن فى الماضى ولكن ليس من الضرورى أن نقف عندهـــم وعنـــد آرائهم التى تقوم على نظرية العناصر الأربعة والتى تســـتند إلـــى الجوانـــب الكيفية، فى حين أن العلم اليوم كم، وكم فقط. هل يمكن أن تقف بحوثنا فـــى مجال الطيران عند عباس بن فرناس الذى حاول الصعود إلـــى أعلـــى عـــن طريق تركيب جناحين فقط له وكانت النتيجة الحتميـــة أن يكـــون صعـــوده، صعودا إلى الهاوية؟

إن المثقف الحقيقى هو من يحاول أن يسأل نفسه قائلا: ما الدور الذى أستطيع أن أقوم به فى مجتمعى من خلال المجال الذى تخصصت فيه وجعلته هواية لى؟ ونجد ذلك واضحا غاية الوضوح عند طراز ممتاز من المفكريـــن أصحاب الفكر التجديدى. إنهم لم يقفوا عند اجترار الماضى والتغنى بأمجـــاده وإلا لكانوا من المقلدين الكسالى، بل حاولوا الربط بين القضايا الفكرية وبيـــن أحداث المجتمعات التى عاشوا فيها. ويقينى أن كل مجال من المجالات العلمية والأدبيـــة والفكرية يمكن أن يكون - كما أشرت منـــذ قليـــل - لـــه أبعـــاده الوظيفية والإجتماعية. وانظروا إلى الدراسات التى تدخل فـــى مجـــال علـــم الجمال على سبيل المثال، عند مفكرين أمثال توفيق الحكيم فى كتابه الممتـــاز "تحت شمـــس الفكر"، وعباس العقاد فى كتابه "مراجعات فى الآداب والفنون". أليس هذا أفضل لنا ولمجتمعنا من أن نجعل دراساتنا فى هذا المجال مجموعة مـــن الكلمات المتقاطعة قد لا يفهمها حتى من يكتبها نفسه لأنها كـــلام فـــى كلام. إننى لا أقصد من هذه الأمثلة أن أبتعد عن إيمانى بأن الفن للفن ولكـــن

كل ما أود أن أشير إليه أن الباحث أو المتخصص منا فى مجال من المجالات من واجبه أن ينطلق من القاعدة النظرية إلى القاعدة الإجتماعية العملية الإنسانية إن هذا واجب علينا جميعا وإلا سنكون كالفرد الذى يتكلم مع نفسه ويدور فى حلقة مفرغة. إننا إذا لم نفعل ذلك وبكل ما نملك من قوة وجهد، فسنجد نوعا من الإنفصام بين الفكر والواقع، بين النظر والعمل. إن أى مجال من المجالات الأدبية والفنية والفلسفية يمكننا أن نربط بينه وبين الواقع. وكم نبهنا الفيلسوف الإنجليزى "رسل" إلى ذلك، حتى أنه فى دراسته لتاريخ الفلسفة ابتداء من الفلسفة قبل الميلاد، قد حاول أن يبين لنا صلة الفكر بالواقع، صلة الفلسفة بالمجتمع. نعم يجب علينا الربط بين "المثقف" و"المجتمع" وإذا لم نفعل ذلك فإننا سنكون فى حالة سكون وجمود أو سنرجع إلى الوراء فى حين أن العالم يتحرك من حولنا وذلك حين يحاول الربط الوثيق بين الفكر والواقع، كما يحاول توظيف العديد من الأفكار فى أكثر المجالات العلمية والأدبية. وكم نجد ذلك واضحا فى تاريخنا المعاصر القريب عند أمثال د. أحمد زكى، د.علـى مشرفة، أحمد أمين، سلامة موسى، لويس عوض وذلك بالإضافة إلى ما سبق أن ذكرناه من أسماء شخصيات حاولت وما زالت تحاول تأصيل أفكارنا وغرس جذورها فى أعماق مجتمعنا العربى من مشرقه إلى مغربه. فلنبادر إذن إلى ذلك العمل الحيوى وإلا لحقتنا لعنة المفكرين فى كل زمان وكل مكان، وبحيث تتحول حياتنا إلى سواد فى سواد، ونشقى بثقافة الظلام، الثقافة الجرداء فى الأرض القاحلة، وبحيث نباعد بيننا وبين ثقافة النور، ثقافة الإنفتاح على كل التيارات العالمية، وبشرط أن نغرس أفكارنا فى المجتمع، ونربط بين الأبعاد النظرية، والمجالات أو الميادين العملية الواقعية الإجتماعية.

غير مجد فى يقينى واعتقادى أن نباعد بين أفكارنا وبين ما تعانيه مجتمعاتنا العربية من مشكلات، وما يهم مجتمعنا العربى من خليجه إلى

محيطه من قضايا نجد بعضها يعد داخلا فـــى إطـــار القضايـــا المصيريـــة. والعجيب أننا نسرف أحيانا فى بحث قضايا يغلـــب علـــى أبعادهـــا الطـــابع النظرى، المسرف فى تجريداته، قضايا سوف لا نجد حلولا لها حتى علـــى مستوى الفكر، لأن طريقة طرحها، إنما كانت خاطئة من الأساس. وانظـــروا إلـــى ما يثار من قضايا، وستجدون أن أكثرها ربما يعد مقطوع الصلة بواقعنا الفكرى وأهدافنا التى نسعى إلى تحقيقها. وكم أسرفنا فى بحث قضايا العلاقـــة بين الدين والعلم، الدين والفلسفة، و لم ينتج عن بحوثنا إلا ما قد يعد نوعا من الإساءة إلى الدين، أو الإساءة إلى العلم، لأن لكـــل منـــهما مجالـــه وأدواتـــه ووظائفه. كم أخطأنا وأسرفنا فى الكلام عن الغزو الثقافى، مع أن الثقافـــة لا وطن لها كما نقول اطلبوا العلم ولو فى الصين. ولكن ماذا نفعـــل إزاء قـــوم يظنون أو يتوهمون عن طريق خيالهم وأمزجتهم وجود غزو ثقافى، وكأن هذا الغزو له جيوشه. كفانا إذن البحث فى قضايا فارغة، ولنوجه كل مجـــهوداتنا نحن المثقفون إلى الربط بين أفكارنا وبين ما يحدث بمجتمعاتنا، وذلك حتـــى نشعر بأن للفكر وظيفته السامية، وأن للعقل قيمته الإبداعية الخلاقة والمؤثرة.

(٤)

شبابنا وقضية الثقافة

"سل أكثر شباب اليوم عن القضايا الفكرية وما تخرجه مطابع العالم من كتب، وستجد أن الشباب بوجه عام يحفظ عن ظهر قلب كل ما يتعلق بكرة القدم وأخبار السينما، ولكنه لا يكاد يدرى شيئا عن الثقافة، وقضايا الثقافة".

(٤)
شبابنا وقضية الثقافة

اعتقد اعتقادا راسخا أن من يتأمل بعمق وموضوعية أحـوال شبابنـا اليوم وموقفه من الثقافة لابد وأن ينتهى به الأمر، إن كان دقيقا فى أحكامـه وأخذ الأمور مأخذ الجد لا الهزل، إلى الإعتقاد بأن شباب اليوم – على الرغم من أنه فى حد ذاته وطبيعته يعد خيرا وعلى درجة كبيرة من الذكـاء – قـد وصل إلى حالة يرثى لها، حالة تعد معبرة عن الجهل لا عن الثقافـة، تعـد معبرة عن السطحية والسذاجة وليست معبرة عن العمق والثراء الفكـرى. لا أقول هذا من جانبى تعبيرا عن الإعتقاد بالتشاؤم وفقدان الأمل فـى إصـلاح أحوال شبابنا، ولكننى أضع فى الإعتبار المقارنة بين شباب المـاضى الـذى كـانت الثقافة بالنسبة له مذهبا وعقيدة يؤمن بها ويجد فى طلبـها والبحـث عنها، وبين شباب اليوم الذى يكاد يعلن الحرب على الثقافة حتى أصبح فـى واد والثقـافة فى واد آخر، شباب اليوم الذى لا يكاد يهتم بالجوانب الفكرية أو الثقافية من قريب أو بعيد، شباب اليوم الذى أصبح البعد بينه وبيـن الثقافـة كالبعد بين الجن والإنس أصبح البعد بينه وبين الثقافة كـالبعد بيـن السـماء والأرض. وإذا اعتقد البعض بأن هذا الحكم يعد قاسيا، فلهم دينهم ولنا دين.

وإذا تساءلنا عن نوعية الكتب التى يقبل عليها شبـاب اليـوم، فإننـا للأسـف الشديد نجد أن أغلب الشباب لا يقبل على الكتب الأكاديمية الجـادة، لا يقبل إلا على الكتب المسطحة التى تقدم لـه معلومـات غـير ناضجـة، معلومات لا ينتظر من ورائها تكوين العقلية الناضجة، العقلية التى نجدها عند

شباب الماضى. سل شباب اليوم عن القضايا الفكرية، سل شباب اليوم عن محتويات ما تخرجه المطابع من كتب، وستجد أن الشباب بوجه عام يحفظ عن ظهر قلب كل ما يتعلق بكرة القدم مثلا أو أخبار السينما، ولكنه لا يكاد يدرى شيئا عن الثقافة وقضايا الثقافة. وإذا انتظرت من أكثر شبابنا إجابة عن أسئلة تدخل فى مجال الثقافة الجادة، فوقتك ضائع عبثا، لأن إجاباتهم تعد جهلا على جهل. إن جيل اليوم من الشباب هو جيل الأشياء المسلوقة الفجة، جيل التليفزيون، جيل الساندوتش إن صح هذا التعبير.

ولكن ما الذى أدى بشبابنا إلى أن يصل إلى تلك الحالة من عدم الإقبال على القراءة وعدم الإهتمام بالقضايا الفكرية؟ سؤال لابد من طرحه ومحاولة الإجابة عنه، إذ أن العيب قد لا يكون عيب الشباب كشباب، بل ما يحيط به من ظروف وأحوال. إن ما يقدم لشباب اليوم - فيما نرى من جانبنا - لا يعد ثقافة بالمعنى الدقيق لكلمة ثقافة. فإذا قلنا أن للجامعة وظيفتها التعليمية الأكاديمية ووظيفتها الثقافية أيضا، فإننا نلاحظ أن الجامعات لم تحقق بصورة واضحة بارزة وظيفتها الأكاديمية ولا وظيفتها الثقافية. ولا نريد أن ندخل فى تفصيلات تتعلق بمشكلات التعليم الجامعى أكثر من تعلقها بقضية الثقافة التى نثيرها هنا، ولكننا نكتفى بالقول بأنه من الصعب بل من المستحيل أن تؤدى الجامعة وظيفتها الأكاديمية ووظيفتها الثقافية فى ظل آلاف الآلاف من الطلاب الذين يحشرون حشرا فى قاعات الدرس. لا يمكن أن يتحقق الهدف الثقافى فى الوقت الذى نجد فيه نفرا من الذين يقومون بالتدريس لم يعدوا إعدادا كافيا، وفاقد الشئ لا يعطيه. أذكر أننا حينما كنا طلابا منذ ثلث قرن أو يزيد، كنا نحرص على حضور ندوات العقاد الفكرية كما كنا نحرص على حضور محاضرات طه حسين وزكى نجيب محمود وتوفيق الطويل لأنهم أعلام فى تخصصاتهم الأكاديمية، ونوابع فى دنيا الثقافة وكل واحد منهم

يعد هرما شامخا عملاقا فى فكرنا العربى وكانوا جميعا هم المثل الأعلى لنا، المثل الذى نحتذيه. فقارن هذا أيها القارئ العزيز بحالة شباب اليوم.

ولكن رغم ذلك كله، فإن شبابنا وفيه الخير كل الخير، يعد معذورا من بعض الجوانب، إذ أن مناهج الجامعات بصورتها الحالية قد وصلت إلى صورة غير متكاملة. ماذا يفعل شباب اليوم وهو يجد أن الكتب الثقافية التى تعمق شخصيته وتؤدى إلى نضجه الثقافى وتكامله قد أصبحت أثمانها فوق طاقته بكثير. إننى اقترح أن تدخل فى مناهج جامعاتنا، مناهج جديدة فى كل كليات الجامعة سواء كانت كليات نظرية أو كليات عملية. ومن هذه المناهج التى اقترحها اليوم، المناهج الخاصة بتكوين الروح العلمية حتى نبعد عن شبابنا الخرافة واللامعقول. المناهج الخاصة بتاريخ الفكر المصرى والعربى حتى نخلق لديه القدوة الحسنة. المناهج الخاصة بأبعاد الشخصية المصرية حتى ننمى لديه الإحساس بالمواطنة. للأسف الشديد هذه مناهج لا نجدها فى أكثر جامعاتنا إن لم يكن فى كلها.

إن شبابنا إذا كان لا يعد قارئا فإن الأسباب المحيطة به قد يكون لها بعض الدور فى ذلك. فهو لا يتلقى فى بعض جامعاتنا ثقافة أكاديمية وخاصة بعد انتشار ما يسمى بالجامعات الإقليمية وهى فى الواقع تعد مدارس وكتاتيب، وإذا تجاوزنا الجامعة إلى خارجها من مؤسسات ووسائل إعلام، فإن شبابنا لا يجد فيها الثقافة الجادة. أين المكتبات العامة؟ لماذا لا يوجد فى كل حى مكتبة تقوم بتمويلها الأجهزة المسئولة عن الشباب؟ هل أدت الإذاعة دورها وأدى التليفزيون دوره فى مجال الثقافة؟ إن برامج الإذاعة والتليفزيون فى واد والثقافة فى واد آخر. قد يقال إنه توجد برامج ثقافية فى هذين الجهازين ولكن هل تكفى الأسماء، أسماء البرامج للقول بوجود برامج ثقافية فى هذين الجهازين؟ الواقع يقول لا. فبعض المتحدثين يشجعون الخرافة لا العلم والثقافة فى نفوس الشباب. إن الإذاعة والتليفزيون يعتمدان على مجرد

أسماء مكررة وكأنه لا يوجد مفكرين فى مصر غير تلك الأسماء التى استهلكت وحشرت حشرا فى دنيا الثقافة، أسماء تتكلم فى أى شئ ماعدا الثقافة.

وبالإضافة إلى ذلك يوجد تساؤل آخر. هل أدت الأجهزة المسئولة عن الشباب دورها؟ الواقع يقول لا. هل العناية بالشباب تعنى فقط أمور الرياضة البدنية؟ إن الرياضة البدنية وهى الشغل الشاغل لكل أجهزة الشباب فى مصر لا تكون عقلا بل تكون جسما. هل يمكن أن يؤدى تنازع من اللاعبين على كرة قدم واحدة، أى تلك التى تسمى بلعبة كرة القدم إلى تكوين الشباب ثقافيا؟ هل الثقافة فى القدمين أم فى العقل والدماغ؟ وإذا كان هذا هو حال الجامعات وحال أجهزة الشباب رغم المجهودات التى يقومون بها، فمن الطبيعى أن يوجد فراغ فكرى لدى شبابنا. وإذا وجد الفراغ الفكرى فما أسهل أن يقع الشباب فريسة لبعض الاتجاهات الدينية المتطرفة التى يدعو إليها من لا ضمير لهم ولا خلق. إننى اعتقد بأننا لو تداركنا أوجه القصور فى جامعاتنا وفى الأجهزة المسئولة عن الشباب وفى وسائلنا الإعلامية أيضا، واهتممنا بقضايا الثقافة والفكر قدر اهتمامنا الحالى بالرياضة البدنية، فإن هذا سيؤدى إلى أن نجد أمامنا شبابا مثقفا، شبابا لا نجد عنده فراغا فكريا. أقول هذا لأننى أعتقد أن شبابنا هو المستقبل الوضاء، شبابنا هو أمل مصرنا المعاصرة ووطننا العزيز.

(٥)
لغة النور ولغة الظلام

"إن لغتنا الفصحى، تعد لغة النور، أما التطوير الذى سيؤدى إلى جعلها لغة عامية، فإن ذلك سيؤدى بها إلى أن تكون لغة الظلام. نقول هذا ولا نمل من تكراره نظرا لأننا نجد فى أرضنا الثقافية من يفسد فيها".

(٥)
لغة النور ولغة الظلام

اعتقد من جانبى اعتقاداً لا تخالجنى فيه ذرة من شــك، أن التصــدى للبحث فيما صارت إليه أمور لغتنا العربية، يعد من أوجب واجباتنا الثقافيـــة والفكرية. إن اللغة هى وعاء الفكر، ولا فكر بدون لغة للتعبير عن الأبعــاد الفكرية والثقافية فى أى مجتمع من المجتمعات.

بل أقول بأننا إذا كنا نبحث حتى الآن فيما نسميه بقضيـــة الأصالــة والمعاصرة، فإن البحث فى هذه القضية الكبرى غير مقطوع الصلة بـــالبحث فى مشكلة لغتنا العربية. تلك المشكلة التى استفحل خطرها بحيـــث أصبحنـــا نحتاج لمواجهتها إلى حلول جذرية، حلول حاسمة، حلول كتلك الحلول التـــى يجد الجراح أو الطبيب أنه لا مفر من اللجوء إليها وذلك بأن يعمد إلى البـــتر والقطع والاستئصال، استئصال الأسباب أو الأعضاء التـــى يجـــد أنـــه مـــن الضرورى أن يتخلص منها المريض، وإلا زادت حدة مرضه.

نعم إن البحث فى مشكلة لغتنا العربية يعد على علاقة وثيقة بمشكلتنا الكبرى، مشكلة الأصالة والمعاصرة. ومن يريد لنفسه طريق المعاصرة فقـــط فقد يجد الحل فى اللجوء إلى تطوير اللغة تطويراً قد يؤدى بها إلـــى فقـــدان هويتها وكأنها أصبحت أية لغة إلا أن يقال عنها إنها اللغـــة العربيـــة. ومـــن يطـــالب بالأصالة أى التراث فقط فقد يظن أن الحل إنما يتمثل فـــى الحفـــاظ على لغة الأجداد كما هى بدون اللجوء إلى أى تطوير قد يكـــون ضروريـــاً لمواجهة العصر ومتطلباته، حتى أنهم يطلبون منا أن يتم تدريس الطب باللغة

العربية. وهذه تعد دعوة خاطئة قلباً وقالباً. والحل الأول والحل الثانى فيما نرى من جانبنا لا يمثلان الطريق السليم. إننا إذا قلنا على المستوى الثقافى والفكرى بأنه من الضرورى الجمع بين القديم والجديد، المواءمة بين التراث والمعاصرة، فإن الحل فيما نرى أن نحافظ على لغتنا بكل ما نملك من قوة ونستميت فى الدفاع عنها، ولكن لا مانع من تطويرها، تطويراً لا يؤدى بنا إلى أن نفقدها خصائصها وأبعادها الرئيسة. إن ذلك أفضل لنا من أن ننادى بتدريس بعض العلوم المتطورة باللغة العربية.

إن لغتنا الفصحى يا سادة إنما هى لغة النور، أما التطوير الذى يؤدى إلى جعلها لغة عامية فإنما ذلك سيؤدى بها إلى أن تكون لغة الظلام. إن كل لغة تخضع لنوع من التطوير بمرور العصر وهذا يحتاج منا إلى القيام بعملية اختيار وانتقاء لا أن نحشو عقول الدارسين بنفس المفردات التى نجدها فى كتب التراث القديمة. إن ذلك قد يؤدى بهم إلى الإبتعاد عن اللغة العربية وكراهيتهم لها. وهل من المناسب الآن أن نلجأ إلى تعليم لغتنا لطلابنا باستخدام نفس الألفاظ والمفردات اللغوية التى نجدها عند شاعر من شعراء الجاهلية على سبيل المثال؟ كلا ثم كلا.

فلنواجه الأمر بصراحة وموضوعية ولنقل إن جزءاً من المشكلة، مشكلة اللغة العربية إنما يتمثل فى أسلوب تدريسنا لها. إننا إذا لم نواجه المشكلة مواجهة حاسمة، فسيؤدى بنا ذلك إلى نوع من الإغتراب عن لغتنا، والغربة عن ثقافتنا العربية المجيدة.

غير مجدٍ فى يقينى واعتقادى أن نتصور الحل فى اللجوء إلى ما يسمى اللغة العامية. هل العامية يا قوم تعد لغة، أى قواعد نجدها لتلك اللغة؟. هل سمعتم عن لغة بلا قواعد؟ أليس من المؤسف والمخجل أيضاً أن نتباهى بتلك الجرثومة أو الزائدة الدودية والتى نطلق عليها ظلماً وعدواناً لغة عامية. إننى أقطع بأن العامية هى لغة الظلام، لغة الركود، لغة الشوارع الخلفية.

أما لغتنا التى يجب أن نتباهى بها بين الأمم قاطبة من مشـــرق الدنيــا إلـــى مغربها فإنها اللغة العربية الفصحى، لغة النـــور، لغـــة المســتقبل الوضـــاء المشرق. اللغة التى يدافع عنها مجمع اللغة العربية وعلـــى رأســـه الدكتـــور إبراهيم مدكور. لقد استطاعت لغتنا الفصحى أن تنقل إليـــها كـــل المعـــارف والفنون والعلوم التى وصلت إلى العرب فى العصر العباسى، وأدت مهمتـــها على خير وجه. أما أن نلجأ إلى اتهام لغتنا بالتقصير بحيث نتركها تعتمد على مجموعة من الأصوات غير المفهومة ونطلق على تلك الأصوات التى تشبـــه الكلمات المتقاطعة إنها لغة عامية، فإن هذا يعد من مصـــائب الزمـــان. يعـــد تسليما من جانبنا وارتضاء من جانبنا للغة الظلام، تماماً كما يكتب البعض منا مجمـــوعة من العبارات التى لا تسير على قاعدة ويطلق عليها شعراً حديثاً أو شعراً حراً.

إن العروبة – كما بين زكى نجيب محمود – ثقافة قبـــل أن تكـــون سياسة. وهل يمكن التعبير عن ثقافتنا العربية بلغة عرجاء مشوهة هى اللغـــة العامية. إن الفصحى تؤدى إلى التوحيد بين الشعوب العربية، أما العامية فـــلا يمكنهـــا ذلك من قريب أو من بعيد. إنها لا تزيد عن كونها لهجة من اللهجات إذا فهمها أفراد إقليم داخل دولة فقد لا يفهمها سكان الإقليم الآخر داخل الدولة الواحدة، فهل نطمع والأمر كذلك بأن تكون العامية أداة توحيـــد ثقـــافى بيـــن الشعـــوب العربية قاطبة. إننا حين نقول الشعوب العربية، فإن ذلـــــك يعنـــى أســـاساً الشعوب التى تتكلم بالفصحى ، بحيث تكون الفصحى هى القاعدة هى النور، ولا تكون العامية إلا الإستثناء النادر الشاذ لأنها لغة الظلام.

نعم إنها لغة الظلام لأنها لا تمثل طريقاً مشتركاً وموجة موحدة: فإذا كان الفرد فى الظلام لا يرى من يمشى بجواره فكذلك العامية تجعل الفرد منا وكأنه يرسل على موجة غير الموجة التى يرسل عليها زميله العربى فى بلـــد آخر من البلدان العربية وما أكثرها.

إن لغتنا الفصحى، لغة النور، بإمكانها التعبير عن فنوننا وآدابنا.إن أفضل ما قامت بغنائه أم كلثوم على سبيل المثال إنما.. كان بالفصحى. وأفضل حديث مفهوم إنما يكون بلغتنا الفصحى. وإنني أرجو من كل برامجنا الإذاعية أن يكون البرنامج الثقافى بالإذاعة هو مثلها الأعلى. إنه البرنامج الوحيد الذى يلتزم إلى حد كبير بلغتنا الفصحى ويجعل كل فرد منا نحن العرب يطمئن تماماً على مستقبل لغته، إن كل مواد البرنامج الثقافى بالإذاعة تجعلنا نعتقد بأن لغتنا العربية الفصحى لديها القدرة على التعبير والأداء، تجعل كل واحد منا يفاخر بلغته. ويوم أن تقوم كل برامجنا وموجاتنا الإذاعية بالسير على طريق البرنامج الثقافى بالإذاعة المصرية، فسنضمن للغتنا العربية طريق التقدم والإزدهار والتطور إلى الأمام. ستكون لغتنا هى لغة النور.

إننى إذا كنت أضرب مثالاً يحتذى بالبرنامج الثقافى للإذاعة فإن هذا يؤدى بنا إلى الاعتقاد بأن لغتنا الفصحى، لغة النور، يمكن تعميمها فى كافة برامجنا الإذاعية الإعلامية.

الواقع أننا وصلنا كما قلت إلى حالة من الإغتراب عن لغتنا العظمى، اللغة العربية الفصحى ومن يقارن بين لغتنا فى الماضى، وأحوالها الآن، لابد وأن يشعر بالأسى والحزن. لماذا لا نلزم المتحدثين فى وسائلنا الإعلامية باحترام اللغة وتقديسها، اللغة الفصحى. وإذا كان هذا الأمر يلتزم به تماماً البرنامج الثقافى بالإذاعة، فإنه لا يستطيع وحده القضاء على اللغة العامية التى تشيع كما قلت فى البرنامج والموجات الأخرى إذاعية كانت أو تليفزيونية، اللغة العامية التى تشيع أيضا فى بعض صفحات جرائدنا ومجلاتنا. ليتنا نعيد النظر فى نظام القبول بجامعاتنا فيما يتعلق بأقسام اللغة العربية فى بعض جامعاتنا. وإن من يقرأ إجابات طلابنا يجد أن بعدها عن

اللغة العربية أبعد من الفرق بين الإنس والجن. أبعد من الفرق بين النور المبهج الوضاء والظلام الدامس الموحش.

فلنرجع إلى لغتنا ولنتمسك بها تمسكنا بعروبتنا، تمسكنا بحياتنا ووجداننا. ومن فقد لغته فقد سر وجوده وسبب حياته. والعيب فينا نحن وليس العيب فى لغتنا.

وأقول من جانبى عن اعتقاد ويقين إن لغتنا الفصحى إنما هى لغة النور، لغة الإنفتاح، لغة المستقبل. أما السخرية منها واللجوء إلى تلك اللغة التى حشرت حشراً فى لغتنا، أى اللغة العامية فإن هذا بعينه هو طريق الظلام، الطريق المسدود ولكن أكثرهم لا يعلمون. إنها دعوة من جانبى للتمسك بلغة النور والابتعاد تماماً عن لغة الظلام. فهل يا ترى ستجد صداها عند المهتمين بأمور لغتنا والغيورين عليها؟

(٦)

ثقافة النور وأساطير الظلام

"لابد أن نأخذ بأسباب العلم والحضارة. والعلـــم الآن بيـــد الغرب شئنا أم لم نشـــأ. الآداب العالمية الآن تكاد تتبلـــور فـــى البلدان الأوروبية. الفنون الراقية لا نجدها الآن إلا فـــى حضـــارة البحر الأبيض المتوسط إلى حد كبير. فيجب علينا إذن أن نستيقظ ونعـــرف تماماً أننا إذا أردنا لنا فكراً، أردنا لنا اتجاهاً، فلا مفـــر من الانفتاح على كل التيارات."

(٦)
ثقافة النور وأساطير الظلام

أعتقد من جانبى اعتقاداً لا يخالجنى فيه أدنى شك، أننا مقبلون على عصر يمكن أن نطلق عليه عصر الركود الثقافى، عصر الظلام، عصر الضياع فكرياً وثقافياً، عصر سنقول فيه للثقافة الجادة - إن لم نكن قد قلنا فعلاً الآن - وداعاً أيتها الثقافة فلا مكان لك فى مجتمعنا لأننا قد فضلنا الظلام على النور.

انظروا إلى الواقع الثقافى فى مصر الآن، وقارنوه بالواقع الثقافى فى مصر منذ نصف قرن أو يزيد، وستجدون أن ثقافة مصر فى ماضيها القريب، أفضل ألف مرة من الثقافة فى مصر الآن هذا إذا تجاوزنا فى القول وقلنا بوجود ثقافة فى مصر الآن.

غير مجدٍ فى يقينى واعتقادى أن ننظر إلى الثقافة على أنها تعد شيئاً كمالياً يمكن الإستغناء عنه. إننا إذا كنا قد وصلنا إلى هذه الحالة فإننا نستحق لعنة المفكرين فى كل زمان ومكان.

والحل فيما أرى، هو الإنفتاح على كل تيارات الفكر الغربى، الإنفتاح على العلم والحضارة الأوروبية. إن الثقافة الأوروبية الآن تمثل ثقافة النور، فلننفتح عليها. وهذا هو ما فعلته مصر، وما فعله مفكرونا منذ ما يقرب من نصف قرن، بحيث كانت تلك الفترة تمثل عصر التنوير فى مصر. كفانا ياسادة تلك الدعوات التى تصدر عن أناس اعتبرهم من المتخلفين عقلياً، وأقصد بهم أولئك الذين يصورون لنا أن حضارة الغرب تعد ظلاماً فى ظلام. يصورون لنا العلم وكأنه شر مستطير، يصورون لنا فكر الغرب وكأنه الفك المفترس الذى سيقضى على تراثنا القديم.

إننا إذا تحدثنا عن وجه مصر الثقافى، وقارنا بين حالنا الآن، وما كنا عليه منذ نصف قرن أو أكثر منه بقليل، فلابد أن نأخذ فى اعتبارنا دومًا أن وجه مصر الثقافى، الوجه المنير، الوجه المشرق الوضاء، لم تتحدد معالمه ولم يؤثر تأثيراً كبيراً على كافة بلداننا العربية، إلا لأنه انفتح على الغرب. إن الظلام يرتبط بضيق الأفق. ومن يغلق على نفسه النوافذ والأبواب لابد أن يصاب بضيق التنفس، وسيتنفس هواء راكداً كهواء الشوارع الخلفية، أو هواء الأزقة والحارات.

أقول لابد أن نأخذ بأسباب العلم والحضارة، والعلم الآن بيد الغرب شئنا أم لم نشأ الآداب العالمية الآن تكاد تتبلور فى البلدان الأوروبية. الفنون الراقية لا نجدها الآن إلا فى حضارة البحر الأبيض المتوسط إلى حد كبير فيجب علينا إذن أن نستيقظ ونعرف تماماً أننا إذا أردنا لنا فكراً، أردنا لنا اتجاهاً، فلا مفر من الإنفتاح على كل التيارات، ثم بعد ذلك فلنأخذ منها ما نأخذ ولنرفض منها ما نرفض. أما أن نهاجم لمجرد الهجوم، أن نرفض لمجرد الرفض، فإننى بصراحة اعتبر هذا سلوكاً عدوانياً يعد أدنى مرتبة من سلوك الحيوانات المفترسة، ولنعترف بصراحة ولنكاشف أنفسنا على حقيقتها وسنرى أننا إذا فعلنا مستقبلاً مثل ما نفعل حالياً فسوف نصل إلى حالة من التخلف يرثى لها، سنكون فى حالة ظلام دامس نتخبط فيه، وإذا ادعينا أننا نتحرك فى الظلام فهى حركة إلى الخلف، أو حركة جمود فى نفس المكان. وإذا ادعينا أننا نصعد فهو صعود إلى الهاوية.

يجب علينا متابعة الوجه المشرق لمصر، الوجه الذى يتمثل فى الثقافة الجادة. إن مصر لم تأخذ مكانتها بين أمم العالم جميعها، إلا عن طريق ثقافتها. لقد كانت علامة جودة الكتاب، أن مؤلفه يعد مصرياً. يجب علينا أن نعتقد بأن حضارة أى شعب إنما تقوم على العقل، تقوم على الفكر. لا تقوم الحضارة على الإهتمام مثلاً بكرة القدم حتى لو أقمنا ملايين المباريات. فالدماغ هو الذى يفرز التفكير، والأرجل لا ينتج عنها إلا السلوك الغليظ، السلوك الوحشى. الدماغ يؤدى إلى ثقافة النور، والجسم لا يؤدى إلا إلى

الظلام، الجسم لا يؤدى إلى الحضارة وإلا كيف نفسر أن الإنسان بماله من عقل هو الذى يبدع الحضارات، أما الحيوان فلا نجد لديه حضارة، أى نوع من الحضارة.

لا أمل فى أن يستعيد العرب مكانتهم الثقافية إلا بتشجيع الكتاب، فالكتاب يمثل العصر الذهبى للثقافة: فلنقم بتدعيمه كما نقوم بدعم رغيف الخبز المخصص لبناء الجسم. لا أمل إلا أن تكون الثقافة فى مقدمة اهتماماتنا. هل سمعتم أيها القراء الأعزاء عن مجلة أدبية كانت تخسر فى الماضى القريب أما الآن فلا نجد لدينا مجلات أدبية متميزة، إذا قصدنا بالأدب معناه الدقيق. لماذا؟ لأن الفكر كان المحور، كانت الناس تتسابق للحصول على الفكر والأدب من أى مكان، أما الآن فلا حديث لها إلا عن المهارة فى استعمال الأرجل، أى كرة القدم مثلاً، لا حديث لها إلا عن المسلسلات التليفزيونية التى تؤدى فى اعتقادى إلى إصابة الإنسان بالتخلف العقلى لأنها تمثل ثقافة الظلام.

لا أمل إلا بأن ننظر إلى تراثنا نظرة جديدة. لنأخذ منه ما يصلح لإرساء ثقافتنا الحاضرة، ولنرفض منه ما لا يصلح لإقامة وجودنا الثقافى المعاصر. أما أن نغلق على أنفسنا الأبواب، ونجتر من التراث لمجرد أنه تراث، فإن هذا لهو الخسران المبين. أى تراث يا سادة. احفظوا كل كتب التراث ولن يكون باستطاعتكم اختراع أبسط نوع من الإختراعات الحديثة. إن التراث وحده لا يكفى. وأقولها بصراحة: إن فى بعض كتب التراث كما هائلاً من الأخطاء، بل الخرافات ربما زاد عددها عن تعداد الشعوب العربية. فالزمان الآن غير زمان الماضى، ومشكلاتنا غير مشكلات أجدادنا فى الماضى البعيد.

لا أمل فى أن يسترد العرب الوجه الثقافى الذى عرفوا طريقه فى الماضى، إلا بتشجيع الترجمة. أليس من المؤسف أننا لا نجد حتى الآن ترجمة عربية لبعض مؤلفات أرسطو. لقد فتح لنا أحمد لطفى السيد طريق التنبيه إلى أهمية مؤلفات أرسطو وقام بترجمة بعضها. أليس من المؤسف أننا

لا نجـد حتى الآن كتباً تؤرخ للفلسفة اليونانية إلا فى القليل النـادر وبحيث نجد الشائع، القيام بكتابة مجموعـة مـن المذكـرات لطـلاب المـدارس والجامعات، ولا يقدم عليها إلا أناس على درجة كبيرة من الجهل إننا لو انفقنا على ترجمة الكتاب قدر ما ننفقه على إخراج حلقة فى مسلسـل تليفزيونـى هابـط ، لكان حالنا قد تغير تغيراً جذرياً. لو قمنا بتدعيـم وتقويـة موجـة البـرنامج الثقافي للإذاعة المصرية وهو القناة الثقافية الوحيدة فى الإذاعـة، كما أنه يعد وجهاً مشرفاً لمصر، لكان حالنا غير الحال.

إن الإناء ينضح بما فيه. انظروا إلى كلمات الأغانى فـى المـاضى. انظروا إلى الأفلام السينمائية فى الماضى والتى كانت تجوب العالم العربـى كله من مشرقه إلى مغربه وكانت تمثل الدخل الثانى لمصـر بعـد القطـن. انظـروا إلى الحركة النقدية فى مصرنا العزيزة منذ نصف قرن، وقارنوا هذا كله بما نجده الآن، وستجدون أسباب انصراف شبابنا عن الفكـر والثقافـة، ستجدون مبررات اهتمامنا بكل شئ ماعدا الفكر وقضاياه.

يقينى أننا لو جعلنا المحور الأساسى فى حياتنا هو الفكـر والثقافـة الجادة والتزمنا بذلك دواماً، فسنجد أن وجه العرب الثقافى يعود إلـى سـابق أمجاده وعظمته التى كانت له فى الماضى.

فى اعتقادى أننا لو جعلنا القدوة عند الشباب اليوم ممثلة فـى كبـار كتابنا وأدبائنا سواء من رحل منهم عنا أو من لا يزال على قيد الحياة، ولـم نجعل القدوة ممثلة فى أصحاب الثقافة السطحية، ثقافة القشور، ثقافة الظـلام، فسوف نجد أن ثقافة العرب مستقبلاً لا تقل عن ثقافة العرب فـى المـاضى البعيد. فالفكر يا قوم هو المعبر عن عظمة الإنسان. الثقافة هى أسـمى مـا يسعى إليه الإنسان وإذا باعدنا بين أنفسنا وبين الفكر، وفصلنا أنفسـنا عـن الثقافة فقد اخترنا لأنفسنا طريق الموت والعدم والفناء والظلام.

(٧)
أسطورة الغزو الثقافى

"إننا إذا رددنا بيننا ما يقال عنه "غزو ثقافى"، فإننا سنصبح فى حالة اغتراب عن الثقافة، وستصبح ثقافتنا فى خبر كان، وسوف يكون حالنا كمن يتحدث على موجة غير الموجة التى يتحدث من خلالها الطرف الآخر. فالعولمة آتية لا ريب فيها، وعلينا التكيف معها منذ الآن".

(٧)
أسطورة الغزو الثقافى

من القضايا الزائفة والتى كثر الجدال حولها فى السنوات الأخيرة، قضية الغزو الثقافى. نقول إنها قضية زائفة لأنه ليس من المعقول فى الوقت الذى أصبح فيه العالم قرية صغيرة، أن نتحدث عن وجود ثقافة غربية أوروبية يجب أن نبقى نحن أبناء العالم العربى بمعزل عنها.

فكلنا يعلم أن الثقافة الأوروبية هى الثقافة العظيمة التى نجد فيها كل ما هو جديد ورائع فى مجالات الآداب والعلوم والفنون، وبحيث نقول: ليت عالمنا العربى يصبح قطعة من أوروبا فى مجال الثقافة والعلوم والفنون ، وخاصة أننا لا نجد لدينا الآن إلا ما يسمى بالتوكيلات الفكرية، بمعنى أننا لا نجد فكراً إبداعياً لدينا نحن العرب فى عالمنا المعاصر. وإذا كانت الثقافة الأوروبية ينظر إليها أصحاب الفكر التقليدى الجامد، على أنها تعد نوعا من الغزو، فإننا نقول: مرحباً بهذا الغزو، إذ أنه يعبر عن ظاهرة صحية، وليس عن ظاهرة مرضية رجعية.

هل من المعقول وبعد انتشار وسائل الإتصال، أن نتحدث عن الغزو الثقافى؟ هل يمكن أن نتصور مثقفاً الآن إذا كان يجهل أحدث النظريات العلمية والأدبية والفنية والفلسفية. كيف يمكن أن نقوم بنشر ثقافة النور، وتطوير جامعاتنا العربية ونحن نقيم سداً منيعاً بين ثقافتنا المحلية المحدودة الإنتشار، وبين الثقافة الأوروبية العالمية؟ إننا إذا رددنا بيننا ما يقال عنه "غزو ثقافى" فإننا سنصبح فى حالة اغتراب عن الثقافة وستصبح ثقافتنا فى

خبر كان، وسوف يكون حالنا كمن يتحدث على موجة غير الموجة التي يتحدث من خلالها الطرف الآخر.

يجب أن نسعى بكل قوتنا إلى نشر الأفكار الأوروبية، أفكار الدول الأخرى، وذلك عن طريق الترجمة، عن طريق جميع وسائلنا الإعلامية، حتى نكون جديرين بالحياة والبقاء بين الأمم. فالثقافة المحلية لا تشكل مثقفاً. الثقافة الداخلية لا يمكنها أن تؤدى إلى خلق المواطن المعاصر.

غير مجدية فى ملتى واعتقادى الدعوة إلى إغلاق النوافذ وبحيث لا نجد إلا الهواء الفاسد الراكد الذى يؤدى بنا إلى الإختناق والصعود إلى الهاوية، بل لابد من فتح النوافذ حتى نجد الهواء النقى المتجدد وكم دعانا مفكرونا قديماً وأيضاً ابتداء من رفاعة الطهطاوى إلى ضرورة الإستفادة من ثقافة الآخرين. نجد هذا عند عميد الفلسفة العقلية ابن رشد، كما نجده عند مفكرين عظام من المعاصرين أمثال لطفى السيد وطه حسين وسلامة موسى وزكى نجيب محمود والأب جورج قنواتى.

كيف نتحدث عن قضايا التنوير، والثقافة العالمية، فى الوقت الذى يتحدث فيه :أشباه المثقفين عن وهم هو الغزو الثقافى. وإذا فرضنا أن نشر ثقافة الآخرين يعد غزواً، فإننا نقول مرحباً بهذا الغزو، إذ لا يمكن تصور فكر جاد، أدب عالمى، ثقافة إبداعية، إلا عن طريق الإقتران السعيد بين ثقافة الداخل، وثقافة الأمم الأخرى،ومن المنطقى أن يلحق المتأخر بالمتقدم، ولا يصح أن نطلب من المتقدم أن يقف فى مكانه ساكتاً جامداً حتى يلحق به المتأخر. إنها سنة الله فى خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً. هذا ما نقول به اليوم حتى ندخل فى عصر جديد، يماثل تماماً عصر النهضة الأوروبية.

(٨)

الفكر المصرى وتقديس العقل والتنوير

"إن الفكر المصرى إذا كان قد قدر لـــه مواصلـــة حركـــة التنوير الممتازة التى وجدت فى مصر منذ أكثر مـــن قـــرن مـــن الزمان، فإن حاله سيكون أفضل ألف مرة ممـــا نجـــده الآن مـــن ضياع فكرى تمثل فى عدم وجود نظريات أدبية عندنا أو وجـــود نظريات فلسفية، وإن كان أكثرهم لا يعلمون."

(٨)
الفكر المصرى وتقديس العقل والتنوير

يمكننا القول من جانبنا فى مجال تقديم رؤية لثقافة المستقبل بأننا إذا أردنا لأنفسنا مستقبلاً مزدهراً فى مجال الفكر المصرى فلا طريق إلى ذلك إلا بالسعى بكل قوتنا نحو تقديس العقل من جهة، والتمسك بثقافة النور والتنوير. ومن المؤسف له أن الفكر التنويرى العربى والذى ازدهر خلال فترات طويلة من منتصف القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين، يحدث عليه الآن نوع من الهجوم من جانب أنصار الظلام والرجعية وكتب التراث الصفراء. إن التنوير يرتبط بالحياة وبالوجود. أما الظلام فإنه يرتبط بالعدم والفناء. ولا أحد منا يملك ذرة من العقل يرتضى لنفسه حياة الظلام وإلا لكان من مملكة الخفافيش التى تفضل الظلام والأماكن المهجورة.

غير مجدٍ فى ملتى واعتقادى الوقوف عند قضايا زائفة تمثل نوعاً من الإرهاب الفكرى ومن بينها الخلط بين الدين والعلم ومحاولة استخراج النظريات العلمية من الآيات القرآنية، والهجوم على الحضارة الغربية التى تمثل فيما نرى أعظم أنواع الحضارات الإنسانية، ومحاربة التنوير تحت اسم الصحوة الإسلامية كما يفعل بعض رجال أو جنود الإرهاب الفكرى أو أنصار محاكم التفتيش، والهجوم أيضاً على المذاهب الأدبية والفلسفية والتى لها العديد من الإيجابيات، كالوجودية مثلاً وذلك كما حدث فى مصر فى السنوات القليلة الماضية من جانب أناس لم يطلعوا على كتاب واحد من كتب فلاسفة وأدباء الوجودية، أو هجوم بعض الأشباه أو متخلفى العقول على

كتب الصوفى العميق ابن عربى وهكذا إلى آخر السلبيات وما أكثرها والتى وجدناها ومازلنا نجدها فى سنواتنا الحالية.

لابد أن نضع فى اعتبارنا أننا نرجع إلى الوراء أو نصعد إلى الهاوية وذلك حين نسخر من تيار التنوير الذى دعانا إليه أمثال رفاعة الطهطاوى وأحمد لطفى السيد وطه حسين وزكى نجيب محمود. أليس من المؤسف له أننا في الوقت الذى نجد أنفسنا فيه فى أمس الحاجة إلى النظرات التنويرية التى تقوم على تقديس العقل والتى نجدها فى كتابات من أشرنا إليهم منذ قليل من أعلامنا الكبار، يقوم نفر منا تسلحوا بالتخلف العقلى، بالهجوم على العقل، أعدل الأشياء قسمة بين البشر، العقل الذى على أساسه أقامت أوروبا حضارتها وأسست مجدها العظيم. العقل الذى يمثل النور والضياء واليقين. أليس من المؤسف له أننا نجد أناسا تحسبهم أساتذة وما هم بأساتذة يدافعون عن الخرافة والأسطورة وحياة العصر الحجرى ويسيئون إلى ديننا الحنيف حين يتحدثون عن علم نفس إسلامى وعلم فلك إسلامى وعلم اقتصاد إسلامى وبنوك إسلامية وشركات توظيف أموال تدعى أنها إسلامية والقصد منها السلب والنهب . أليست هذه كلها ظواهر سلبية حدثت فى عقد التسعينيات وأدت إلى نوع من الضباب الفكرى وعدم وضوح الرؤية. أدت بالإنسان المصرى المتدين بفطرته والعاقل بغريزته إلى نوع من فقدان التوازن والخلل الفكرى وبئس المصير.

صحيح أننا نشهد العديد من الإيجابيات الفكرية فى مجال الفكر المصرى، ولكننى أقول إن أكثر هذه الإيجابيات قد تم إنجازها على يد بقايا جيل الرواد. إنهم أناس آمنوا بوطنهم ونظروا إلى الأمام دائما وأدركوا أن الله تعالى حين خلق أعيننا فى مقدمة رؤوسنا فإنه قد دعانا بذلك إلى أن ننظر إلى الأمام وبحيث لا ننظر إلى الخلف. أليس الحديث الآن عن <u>سلفية معاصرة</u> أو <u>سلفية ثورية</u> مما يعد نوعا من الكلمات المتقاطعة؟ نعم وإنه كذلك لأنه يعد

خلطاً بين الأضداد. أليس الإستماع إلى آراء ابن رشد أفضل ألف مرة من الإستجابة لبعض الآراء التي لا تخلو من تقليد ورجعية ونجدها عند أمثال الغزالي وابن تيمية. وإلى متى سيستمر تقديسنا للتراث وبحيث نأخذ في البكاء على الأطلال واللطم على الخدوده في الوقت الذي قد لا نجد فيه كتابا من كتب التراث يساعدنا على اختراع نظرية علمية. في الوقت الذى نجد في كثير من كتب التراث الآلاف من الخرافات والتي يزيد عددها بالقطع عن عدد سكان الدول العربية من مشرقها إلى مغربها.

إن الفكر المصرى إذا كان قد قدر له مواصلة حركة التنوير الممتازة التي وجدت في مصر منذ أكثر من قرن من الزمان، فإن حاله سيكون أفضل ألف مرة مما نجده الآن من ضياع فكرى تمثل في عدم وجود نظريات أدبية عندنا أو وجود نظريات فلسفية. ألم نشهد في الماضي دعوة إلى الإنفتاح على ثقافات الأمم الأخرى نظراً لأن الإنغلاق يؤدى إلى السكون وعدم الحركة. يؤدى بالإنسان إلى أن يتنفس هواء فاسداً راكداً. فلنتجه بكل قوانا إذن إلى تقديس العقل، إلى السعي نحو الحضارة الأوروبية، إلى رفض الدعوات التي تعبر عن تخلف عقلي وبئس المصير كالقول بغزو ثقافي، أو شن الهجوم على ترجمة الآداب والعلوم الأوروبية. وماذا ننتظر من الغرب؟ هل ننتظر منه أن يتأخر مثلنا. إن واجبنا أن نسعى إلى أن نتقدم مثله لا أن ندعوه تحت اسم المشاركة الوجدانية أن يتأخر مثلنا فلنبادر إذن نحن العرب إلى الاستفادة من الفنون الأوروبية والآداب الأوروبية والفلسفات الأوروبية. ويجب علينا الإبتعاد عن صيحات من ينادون بتحريم هذه الفنون والآداب والفلسفات. إنها تقوم على العقل والوجدان. والله تعالى قد خلق عقولنا ووجداناتنا فلماذا إذن نقوم – وكما حدث في السنوات القليلة الماضية – بتحريم هذه الجوانب المضيئة والمشرقة التي تؤدى إلى المتعة

العقلية وتشيع البهجة والسرور فى حياتنا وبحيث نبتعد عـــن ألــم الإكتئــاب وقسوة روتين الحياة.

إننا إذا وجدنا قوما من أنصار الرجعية والتقليد يشنون الحرب علـــى هذا الإبداع الإنسانى الحضارى التنويرى فإننا يجب أن نقول لهم: لكم دينكـــم ولنا دين. وإذا أردتم أن تعيشوا أفكاركم الرجعية فيجب عليكم استخدام الدواب فى تنقلاتكم من مكان إلى مكان. ولكنهم بطبيعة الحال تتناقض أفعالـــهم مـــع أفكارهم السوداء. إنهم يهاجمون الحضارة من ميكروفون، والميكروفون ثمرة من ثمرات الحضارة. يهاجمون الحضارة من خلال صفحات كتـــاب أســـود مظلم الأفكار ومطبوع فى المطبعة، والمطبعة ثمرة من ثمـــرات الحضـــارة. تنتشر أفكارهم عن طريق الأقمار الصناعية قمة التقدم العلمـــى الحضـــارى، ورغم ذلك يهاجمون منجزات الغرب الحضارية. أليست هذه كلها تعد أمثلـــة علـــى أن أفكارهم تعد كلاماً فى كلام، تعد نوعاً مـــن ثرثـــرة النســـاء فـــى الشوارع والبيوت.

نقول ونكرر القول: إن مصر بتاريخها الحضارى المزدهر وبعطائها الخالد والذى امتد منذ قرون قبل الميلاد وبحيث عبرت عـــن أعظـــم وأقـــدم حضارة من حضارات البحر الأبيض المتوسط، حضارة الفراعنة، يجب عليها أن تتجه بكل قوة إلى تقديس العقل الذى خلقه الله تعالى لنا وبحيث تقيم عليـــه النزعة الإنسانية التنويرية. وإن كتبا معاصرة مثل: مستقبل الثقافة فى مصـــر لطه حسين، وفن الأدب لتوفيق الحكيم، وتجديد الفكر العربى لزكـــى نجيـــب محمود وغيرها من كتب تمثل الواجهة الحضارية لمصر، ينبغـــى أن تكـــون أساس دستورنا الفكرى والثقافى.

أما الكتب السوداء التى تلجأ إلى التجارة بالدين، والوقوف عند التراث لمجرد أنه تراث، وتدعو إلى القول بالغزو الثقافى وغيرها من دعوات مظلمة مغلقة، أو تقول بتحريم كل ما هو حضارى، فإن أنسب مكان لها ونحن نقترب

من نهاية قرن وبحيث ندخل فى قرن جديد، هو أن تلقى فـــى النـــار وبئـــس المصير. فنحن بين طريقين لا ثالث لهما: إما طريق العقل والتنويـــر، وإمـــا طريق الخرافة واللامعقول والظلام والضياع. ومصر بمنجزاتها الحضاريـــة لابد وأن تؤكد على الطريق الأول. الطريق الذى يتمثل فى إحيـــاء النزعـــة الإنسانية العقلية التنويرية. إن هذه النزعة تقيم الجسور بيننـــا وبيـــن الـــدول المتقدمة فكريا، الدول الأوروبية. ولا سبيل إلى إحياء فكرنـــا المصـــرى إلا بإقامة الجسور، إلا بالتواصل بيننا وبين الأفكار الحضارية.

إن هدم هذه الجسور سيؤدى بنا إلى الإغتراب عن الواقع،الإغـــتراب عن الحضارة. فلنبادر إذن بالمحافظة على إيجابيات السنوات الماضية، ونقوم فى نفس الوقت باقتلاع السلبيات التى تمثل فكراً زئبقياً هلامياً طفيليـــاً، فكـــراً رجعياً مظلماً. ولا يمكن أن نعيش عصر تقديس العقل، عصـــر التنويـــر، إلا بإزالـــة كل الحواجز والمطبات والعوائق حتى ندك أرض التقليد والرجعيـــة دكاً وبحيث نصعد إلى الفكر الحى لا الميت، الفكر العلمى التجديدى البنـــاء، ونتجه إلى الآداب الراقية والفنون السامية.

(٩)

التليفزيون وإعلان الحرب على الثقافة

"إن الخريطة الثقافية فى الماضى لم تكن تركز على المشهورين،لأن الشهرة عمياء، وارجعوا ما شئتم إلى أسماء الذين كانوا يكتبون فى مجلاتنا الثقافية فى الماضى، أو من كانوا يتحدثون فى برامجنا الإذاعية، وستجدون أن الثقافة قد تأكدت فى الماضى لأن العبرة لم تكن بالشهرة، أو عن طريق عملقة الأقزام، الثقافة فى الماضى قامت على أكتاف أناس لهم رصيدهم الثقافى".

(٩)
التليفزيون وإعلان الحرب على الثقافة

من الأمور التى تسترعى الإنتباه وتثير الأسف والدهشة معاً، أننا حين نعالج قضية من القضايا ونبحث عن أسباب القصور فى أى مظهر من مظاهر حياتنا، نبادر بإرجاع أسباب ذلك إلى نقص الإمكانيات المادية حتى نعفى أنفسنا من تحمل مسئولياتنا إزاء كل جانب من جوانب القصور فى حياتنا الفكرية وما أكثرها.

فحينما نتحدث عن البرامج الثقافية بالتليفزيون، نجد أن نفس النغمة تتردد. نغمة نقص الإمكانيات المادية. كلا يا سادة، ليست القضية قضية نقص الإمكانيات، بل هى أخطر من ذلك.

ونبادر أولاً وقبل أن نقدم مقترحاتنا الخاصة بما يقال عنه برامج ثقافية بالتليفزيون بالقول بأن تلك البرامج لم تؤد الغرض المقصود منها. ومن هنا فإنه لا توجد علاقة مباشرة حالياً بين التليفزيون وبين الثقافة. فهذا الجهاز الذى يستمر إرساله أكثر ساعات النهار والليل والذى يمكن أن يؤدى دوراً ثقافياً بارزاً، يقف عاجزاً عن أداء أى دور ثقافى ملموس، وذلك على الرغم من أن شبابنا اليوم فى حالة تدهور ثقافى لا يعلم مداه إلا الله تعالى. وإذا كان شبابنا يقبل على برامج التليفزيون ويظل عدة ساعات أمام هذا الجهاز السحرى، فواجبنا إذن أن ننتهز الفرصة ونجعله وسيلة للتثقيف، وسيلة لعلاج ما وصلنا إليه من جهل وأمية ثقافية. إن وظيفة التليفزيون الرئيسية يجب أن تتبلور حول إعطاء أبناء أمتنا جرعة ثقافية وزاداً من العلم والفكر، وخاصة أن شبابنا قد وصل - كما أشرت منذ قليل - إلى حالة يرثى لها.

أقول وأكرر القول بأن التليفزيون لم يؤد حتى الآن دوراً ثقافياً ملموساً فى حياة أمتنا. والقضية ليست قضية نقص الإمكانيات. نعم ليس السبب هو نقص الإمكانيات المادية. لا يصح أن تكون الشماعة التى نعلق عليها أخطاءنا هى الإمكانيات المادية. ودعونا نتحدث بصراحة ولنترك الحساسيات جانبا.

هل كانت الإذاعة فى الماضى تملك الإمكانيات المادية المتاحة لها الآن؟ ومع ذلك كانت البرامج الثقافية فى الماضى كما وكيفاً أفضل كثيراً من البرامج الثقافية فى الحاضر. هذا إذا تسامحنا فى القول وأطلقنا على برامج اليوم، برامج ثقافية. هل كانت السينما فى الماضى تملك الإمكانيات المادية المتاحة لها اليوم؟ ومع ذلك فكانت توجد فى الماضى أفلام سينمائية ما زالت حتى الآن تعد معالم على الطريق ولا نستطيع أن نتغافل عنها إذا أردنا أن نؤرخ للسينما فى بلدنا. بل إن صناعة السينما فى مصر فى الماضى بإمكانياتها المادية المتواضعة كانت تمثل الدخل الثانى لمصر بعد القطن مباشرة. ما دخل الإمكانيات المادية فى أن نجد متحدثين ممتازين ومتخصصين وبرامج ثقافية تستحق أن تسمى بذلك الإسم؟ قد لا يعلم القارئ أن كثيراً من الأحاديث الإذاعية والتليفزيونية والتى يقوم بها مثقفون ثقافة دقيقة، لا يأخذون عليها أجراً لأنه يتم تسجيلها أحياناً خارج الإذاعة والتليفزيون. هل الإمكانيات المادية هى سبب قلة البرامج الثقافية؟ أعتقد تمام الإعتقاد أنه ليست هناك صلة بين نقص الإمكانيات المادية وقلة البرامج الثقافية والدليل على ذلك أن إنتاج تمثيلية أو سهرة راقصة تستغرق مساحة ساعة من الإرسال التليفزيونى يتكلف أضعاف أضعاف ما يتكلفه برنامج ثقافى وخاصة أنه لا يوجد فى العالم كله شرقاً وغرباً، مؤلف أو متحدث فى مجال ثقافى، يطالب التليفزيون بمكافأة توازى عشر مكافأة ممثل فى فيلم تليفزيونى أو راقصة تؤدى رقصة تستغرق عدة دقائق أو ثوان.

هذا بالنسبة للكم. أما بالنسبة للكيف فالرأى عندى هو نفس الرأى لا يصح الإحتجاج بالإمكانيات المادية حينما نرى أن التليفزيون أصبح فى واد والثقافة فى واد آخر. بل إن المثقف ثقافة دقيقة حينما يشاهد بعض ما يقال عنه برامج ثقافية بالتليفزيون، يعتقد اعتقاداً راسخاً أن التليفزيون قد دخل معركة ضد الثقافة. إن أكثر ما يقال عنه برامج ثقافية قد أصبح هزيلاً ولا يلبى أى مطلب من مطالب الإنسان الثقافية.

وحتى لا يقال إننى أكتفى بذكر المشكلات دون ذكر الحلول، فإننى أقترح ما يلى على سبيل المثال لا الحصر، لعلاج أوجه التخلف الثقافى بالتليفزيون.

١- يجب الاستعانة فى تخطيط البرامج الثقافية بالتليفزيون-بالمتخصصين فى لجان المجلس الأعلى للثقافة حتى لا يكون التليفزيون فى واد والثقافة فى واد آخر.

٢- يجب تعيين مستشار ثقافى بالنسبة لكل برنامج من البرامج الثقافية أو مشرف أو مسئول عن المادة العلمية التى تقدم بكل حلقة من حلقات أى برنامج ثقافى مع تحديد طبيعة كل برنامج. وكفانا ما حدث. كفانا محاربة الثقافة بهذه الطريقة، طريقة حشد الأخطاء التى لا حصر لها فى أكثر برامجنا الثقافية بالتليفزيون ولا يصح إطلاقاً أن نترك ذلك لمقدم البرنامج، إذ أحياناً ما تكون وظيفته إدارية وليست وظيفة ثقافية. وهل من المعقول أن يكون مقدم البرنامج متخصصاً فى كل المجالات الثقافية التى تدخل فى إطار برنامجه الذى يقوم بالتقديم له. وليس هذا الإقتراح من جانبى، اقتراحاً غريباً. ففى الجامعات بكلياتها على سبيل المثال نميز بين وظيفة إدارية ووظيفة فنية.

٣- المصيبة أننا ما زلنا فى التليفزيون نركز على الأسماء المشهورة، فى حين أن الشهرة عمياء. ليس من الضرورى أن يكون أصحاب الأسماء

المشهورة، مثقفين ثقافة أكاديمية دقيقة. فمن الأمور التي يؤسف لها أننا نخلط بين ما يحدث في السينما وما يحدث الآن بالنسبة للبرامج الثقافية. فإذا كان في السينما نجم شباك كما يقال، فلا يصح أن يكون في الثقافة مثل هذا النظام. هل بذل التليفزيون جهده في البحث عمن يعملون في صمت؟ أعتقد أن هؤلاء يستطيعون تغيير الخريطة الثقافية للتليفزيون. وهل يعقل أن يكون بإمكان مجموعة من الأدباء والمفكرين وأكثرهم ربما يكون قد وصل إلى ما وصل إليه بدون رصيد ثقافي للأسف الشديد، هل يعقل أن يكون بإمكانهم الحديث كل يوم وفي كل برنامج دون احترام التخصصات التي أصبحت سمة للعصر الحديث. إن الخريطة الثقافية في الماضي لم تكن تركز على المشهورين وارجعوا ما شئتم إلى أسماء الذين كانوا يكتبون في مجلاتنا الثقافية في الماضي أو من كانوا يتحدثون في برامجنا الإذاعية وستجدون أن الثقافة قد تأكدت في الماضي لأن العبرة لم تكن بالشهرة. الثقافة في الماضي قامت على أكتاف أناس لهم رصيدهم الثقافي أساساً، ولم يكونوا ممثلين لعملقة الأقزام.

٤- لو احتفل التليفزيون بذكرى علمائنا ومفكرينا سواء منهم القدامى أو من رحلوا عنا منذ فترة ليست بعيدة، وخصص ما يسمى بالأسبوع الثقافي في ذكرى كل عالم أو مفكر بحيث نجد طوال هذا الأسبوع تغطية لأكثر إسهامات المفكر الذي رحل عنا، لتغير حال شبابنا - إن شباب اليوم. والمسئول عن ذلك التليفزيون إلى حد كبير - يحفظ عن ظهر قلب كل ما يتعلق بأي مطرب حتى ما يتعلق بحياته الشخصية في حين أنه لا يكاد يعلم شيئاً عن علمائنا ومفكرينا، بل ربما يحسبهم من أهل الرقص والطرب أو من رجال الإستيراد والتصدير!!!. ومن العجيب والغريب أننا نهاجم الطبيب الذي يخطئ في طبه الجسماني، ولا نشير مجرد إشارة

إلى الأخطاء التى يقع فيها متحدثون فى برامج تليفزيونية، المفروض فيها أنها موجهة إلى العقل، وكأن العقل عندنا أصبح لا قيمة له.

٥- على التليفزيون متابعة ما يحدث فى مجتمعنا وفى العالم كله من أحداث ثقافية فظهور الكتاب حدث ثقافى، وندوة علمية حدث ثقافى.. إلخ فهل يفعل التليفزيون شيئاً يذكر إزاء ذلك؟. لعل المستمعين قد تابعوا ما حدث منذ عدة سنوات فى مناسبة اعتزام مطرب على أن يغنى أغنية من أغانيه، إذ تحدثت أغلب البرامج عن تلك الأغنية حتى قبل أن يؤديها المطرب وناقشت كلماتها وكأنها نص فلسفى مهم. نعم تحدثت أغلب البرامج عن تلك الأغنية وكأن ظهورها سيهز الأرض هزاً ويدكها دكاً ويغير من مجرى تاريخ الغناء فى العالم كله. فهل يفعل التليفزيون ذلك إذا ظهر كتاب أو غير ذلك من أحداث تدخل فى مجال الثقافة. والأدهى من ذلك أن برنامجاً بالتليفزيون قد ارتبط فى أذهان الناس بالجانب الثقافى، يخصص حلقة مدتها عدة ساعات للحديث عن لاعب كرة وكأن الثقافة قد انتقلت من الرأس إلى القدم، من الدماغ إلى الرجلين!!!

والواقع أننى أعتقد أن التليفزيون وكما سبق أن أشرنا، لم يؤد حتى الآن دوراً ثقافياً بارزاً فى مجتمعنا. والمساحة لا تتسع لضرب مئات الأمثلة على ما نقول به من الأخطاء التى تقع فى برامج يقال عنها إنها برامج ثقافية. وإذا كان البعض من الذين يغلب عليهم التفاؤل بدون مبرر، يرون أن التليفزيون قد أدى دوراً ثقافياً، فلهم دينهم ولنا دين. إننى أعتقد أنه يوم أن نرى أن التليفزيون قد أصبحت أهم وظيفة من وظائفه هى وظيفة التثقيف بحيث تقوم جنبا إلى جنب مع وظيفته الإعلامية ووظيفته الترفيهية، فإن ذلك سيؤدى إلى تغيير نظرتنا إليه، سيؤدى بنا إلى النظر إليه بعين الإحترام والتقدير، أما الآن فإن من يتابع أكثر ما يطلق عليه ظلماً وعدواناً برامج ثقافية، فسيعتقد - إن كان دقيقاً فى أحكامه - أن التليفزيون فى واد والثقافة فى واد آخر.

(١٠)

التليفزيون وثقافة الجيل الجديد

"التلفزيون فى مصر حالياً لم يترك أى بصمة من البصمات القوية على ثقافة جيلنا الحالى، بل نقول إن التليفزيون فى مصـــر قد باعد بين شبابنا، وبين التزود بالثقافة كما ينبغـــــى أن تكـــون الثقافة."

(١٠)
التليفزيون وثقافة الجيل الجديد

سؤال رئيسى يطرحه الإنسان منا على نفسه ويفرع عنه مجموعة من الأسئلة الجزئية وذلك إذا أراد البحث فى العلاقة بين التليفزيون من جهة، وثقافة الأجيال الجديدة من جهة أخرى. هذا السؤال هو: إذا كان التليفزيون قد دخل كثيراً من بيوتنا سواء فى المدن أو القرى وإذا كنا نقول إن الثقافة هى عماد الشباب فى كل زمان وفى كل مكان فهل بالإمكان أن يصبح التليفزيون فى مصر قناة من قنوات الثقافة فى مصرنا المعاصرة؟ هذا هو السؤال الرئيسى أما الأسئلة التى تتفرع عنه فمن أبرزها ما يلى: هل يعتبر التليفزيون ببرامجه الحالية علامة من علامات الثقافة؟ هل وظيفة التليفزيون تتمثل أساساً فى كونه جهازاً من أجهزة الإعلام؟ هل وظيفته هى الترفيه والتسلية فحسب؟ هل يمكن أن ينشر التليفزيون الثقافة بين أبناء جيلنا من خلال وظيفته الإعلامية ووظيفته الترفيهية، هذا إذا استبعدنا أن تكون وظيفته الرئيسية هى الثقافة ونشر العلم والمعرفة؟

هذه أسئلة لابد وأن يطرحها الإنسان على نفسه ويحاول الإجابة عنها. وسأحاول من جانبى تقديم تصور لما ينبغى أن تكون عليه برامج التليفزيون فى مجال الثقافة وذلك حتى تتبين لنا العلاقة بين التليفزيون من جهة وثقافة الجيل الجديد من جهة أخرى.

أول ما أود أن أشير إليه هو أنه ليس بالإمكان أن يؤدى التليفزيون وظيفة ثقافية فحسب، ومن هنا فإن الثقافة بمعناها الأكاديمى الجاد لا يمكن أن يكون مصدرها مجموعة من البرامج التليفزيونية فى مجال الثقافة. إن برامج

التليفزيون الثقافية لا تستطيع وحدها تكوين ثقافة الأجيال الجديدة،ومن هنا فإن الكتاب وليس التليفزيون هو عماد الثقافة كان ذلك فى الماضى والحاضر وسيظل إلى مستقبل أيامنا.

ولكن التليفزيون يمكن أن يكون وسيلة تعليمية كما هو الحال بالنسبة للاستعانة به فى برامج محو الأمية مثلاً أو استخدامه فى المدارس والجامعات.

وإذا انتقلنا من الحديث عن التليفزيون بوجه عام، أى دون تخصيص بلدة دون أخرى من بلاد العالم، إلى الحديث عن التليفزيون عندنا فى مصر وعن برامجه الحالية وهل تسهم فى تكوين ثقافة الأجيال الجديدة، فإننى أعتقد اعتقاداً راسخاً بأن التليفزيون عندنا فى واد والثقافة فى واد آخر، أقول إن البعد الحالى بين التليفزيون وبين الثقافة فى وطننا أكثر من البعد بين الإنس والجن. إن برامج التليفزيون عندنا بوضعها الحالى إذا شئنا الصراحة والتزمنا الموضوعية وابتعدنا بالتالى عن المجاملة، أقول إن برامج التليفزيون الحالية ليس لها أدنى علاقة بالثقافة ومن هنا فإن التليفزيون فى مصر حالياً لم يترك أى بصمة من البصمات القوية على ثقافة جيلنا الحالى، بل نقول إن التليفزيون فى مصر قد باعد بين شبابنا وبين التزود بالثقافة كما ينبغى أن تكون الثقافة، قد باعد بين جيلنا وبين التزود بالقيم الثقافية الخلاقة المبدعة، بحيث لا نرى أثراً يذكر لبرامج التليفزيون الحالية فى حياتنا الثقافية من قريب أو من بعيد. بل أقول فى حسم إن المشاهد والمتتبع لبرامجنا فى التليفزيون والتى يقال عنها ظلماً إنها برامج ثقافية، لابد وأن يعتقد بأن التليفزيون كأنه دخل فى حرب ضد الثقافة وقضاياها أقول وأكرر القول بأن برامج التليفزيون الحالية فى مصر لا يمكن أن تسهم ولو بقدر ضئيل فى تكوين ثقافة الأجيال الجديدة،بل يوجد الآن تلازم ضرورى بين برامج التليفزيون وبين السخرية من الثقافة الصحيحة السليمة الجادة.

إن البرامج الحالية لا صلة بينها وبين الثقافة إلا إذا اعتقدنا أن الثقافة هى الوقوع فى الأخطاء اللغوية التى لا نجد لها مثيلاً فى أى تليفزيون من تليفزيونات العالم شرقاً وغرباً، إلا إذا اعتقدنا أن الثقافة هى مجرد وضع لوحات فيها كلمة "ثقافة" و"ثقافية" و"علم"... الخ. إنها مجرد أكلشيهات، مجرد ظاهر لا ينبئ عن الباطن، مجرد لوحة تخفى ما تحتها من سذاجة وابتعاد عن القيم الثقافية.

أين الثقافة فى برامج التليفزيون؟ هل الثقافة هى أن نكثر من مسلسلات يقال عنها إنها مسلسلات تاريخية عن مفكرين وأدباء، وتتضمن حشداً من الأخطاء لا سبيل إلى حصرها. هل الثقافة هى الإسراف فى الحديث عن لاعبى الكرة وإذاعة مبارياتهم؟ هل الثقافة تتمثل فى الأغانى التافهة الكلمات والرقصات المعبرة عن بعض أعضاء الجسم البشرى؟ كلا ثم كلا. إن الثقافة يا سادة لا تصدر عن الأرجل والأقدام، لا تصدر عن هز البطون والأجساد، بل الثقافة هى ما كانت صادرة عن وجدان راق نبيل، صادرة عن عقل يحترم خصائص التفكير البشرى، عقل يحترم العلم والحضارة.

راجعوا ما شئتم من برامج التليفزيون الحالية وشاهدوا ما يحدث على الشاشة وستدركون معى أن الإنسان يكاد يصاب بالغثيان. إن الجهاز الذى نطلق عليه "التليفزيون" كان من المتوقع أن يكون جهازاً يبث الفن والثقافة فى بيوتنا ولكن للأسف الشديد تحول إلى صندوق قد يستخدمه البعض منا مستقبلاً كحزينة لحفظ طعام البطون كأى صندوق، مجرد صندوق من البلاستيك أو الخشب. ولو أدرك مخترعو التليفزيون أنه سيصل إلى تلك الحالة لما أقدموا على اختراعه، إذ ليس من المعقول إطلاقاً أن يكون هناك سد منيع بينه وبين الثقافة، ليس من المعقول أن يتحول إلى أداة لنشر الأخطاء اللغوية والفكرية والبرامج التافهة التى يعتقد المثقف منا بل نصف المثقف أنها لا تدخل فى إطار الثقافة من قريب أو من بعيد.

غير مجد فى ملتى واعتقادى، النظر إلى التليفزيون على أن وظيفته الأولى والأخيرة هى التسلية والترفيه بحجة أن الشعب يريد ذلك إن هذا يعد مغالطة وإلالما وجدنا أناساً كثيرين فى المدينة وفى القرية أيضاً يتساءلون عن الثقافة فى التليفزيون. إن المثقف ينتظر من التليفزيون الاهتمام بالقضايا الثقافية، وغير المثقف ينتظر من التليفزيون أن يحقق وظيفته الثقافية حتى ينتقل من عدم الثقافة إلى الثقافة . إنها مغالطة إذن أن يقال إن الشعب لا يريد الثقافة. والدليل على ذلك أيضاً أن الشعب هو الشعب فلماذا تنسبون إليه عدم الإقبال على الثقافة، عدم الإقبال على الفنون الراقية؟ إن من يحترم فكره منا ووجدانه لابد وأن يقبل على الأفلام الأجنبية الراقية التىتعرض أحياناً بالقناة الثانية بحيث يقول وداعاً لأفلام تافهة هزيلة يقال عنها إنها أفلام مصرية. إن الفرد منا يجد الرقى الفكرى فى الأفلام الغربية والموسيقا الكلاسيكية ولا يجدها فى أفلام منقولة نقلاً مشوهاً من أفلام أجنبية وموسيقا هى عبارة عن نوع من الخلط والسرقة التى يقال عنها إنها اقتباس.

بل إننا لو قلنا إن وظيفة التليفزيون هى التسلية والتخفيف عن متاعب الناس فى حياتهم اليومية، فهل التسلية فى عرف المسلسلات التليفزيونية هى الصراخ والبكاء ولطم الخدود وكأننا فى جنازة يومية.

ولو قلنا إن وظيفة التليفزيون هى الجانب الإعلامى فقط، فهل الجانب الإعلامى هو أن يقرأ المذيع نشرة من أوراق أمامه أو يقوم بتلخيص سريع لأخبار وردت بالجرائد وقد أطلع عليها الناس قبل ساعات طويلة من قيامه بهذا التلخيص؟ ما الفرق إذن بين التليفزيون والإذاعة؟ كل الفرق هو أن يشاهد الناس وجه القارئ فى التليفزيون.

إن بلدنا يا سادة عامرة بالمفكرين الجادين، مليئة بالأدباء النابهين ويقينى أن التليفزيون حين لا يستعين بهم فإنه الخاسر وليسوا هم بخاسرين. أليس من الأولى حرصاً على القيم الثقافية أن يسعى التليفزيون - إذا أراد

أن تكـــون الثقافة هدفاً من أهدافه - إلى هـــؤلاء الذيـــن تمنعـــهم كرامتـــهم وقدراتهم العلمية والفنية والأدبية والفكرية من السعى إلى التليفزيون. اســـألوا الشباب المثقف فى بلدنا اليوم عن أسماء كبار مفكرينا وأدبائنا ويقينى أنه لـــن يذكر من بين الأسماء حتى اسم من يحسبهم التليفزيون مثقفيـــن وهـــم أشبـــاه مثقفين.

بل إن برامج التليفزيون الحالية أصبح يضرب بها المثل فى البعد عن الثقافة وذلك حين نقول تعبيراً عن جيل غير مثقف ثقافـــة جـــادة إنـــه جيـــل التليفـــزيون، أو جيل "تليفزيونجى" إننى مع تقديرى لدور التليفزيون ، أعتقـــد أن التليفزيون إذا لم يكن بإمكانه وحده تكوين ثقافة الجيل الجديد، إلا أنه يمكن أن ننظـــر إليه كوسيلة من وسائل ثقافة جيلنا، كقناة من القنوات التى تكـــون علم ومعـــرفة أبناء أمتنا حالياً ومستقبلاً وذلك حين يدرك التليفزيـــون بـــأن الثقـــافة تعـــد مطلباً من مطالبه وهدفاً من الأهداف التى يسعى إليها، حيـــن يلجأ إلى كبار مفكرينا وأدبائنا لإنقاذه من عثرته الثقافية.

(١١)

التليفزيون والاغتراب عن العقل

"لا يخفى علينا أن أثر التليفزيون على العقل المصري يعد حالياً أثراً سيئاً وبرامجه تعد معبرة عن الاغتراب عن العقل والمعقول، بل لا أبالغ إذا قلت إن ملايين الأفراد الذين يشاهدون البرامج الحالية للتليفزيون قد يميلون إلى الأسطورة واللامعقول، تاركين الفكر النقدي والمعقول تماماً."

(١١)
التليفزيون والاغتراب عن العقل

يبدو لى أن من أهم القضايا التى أثيرت ومازالت تثار منذ اختراع التليفزيون وتعميم الإرسال التليفزيونى فى أكثر دول العالم إن لم يكن فى كلها، هى قضية أثر التليفزيون على العقل والتفكير بوجه عام سواء فى العالم الغربى أم فى العالم الشرقى والعربى. وسواء أكان هذا الأثر يمثل صورة إيجابية أم صورة سيئة، وهل تؤدى البرامج التليفزيونية إلى تقدم التفكير ونهوض العقل، أم أنها على العكس من ذلك تحدث آثارها السيئة على الفكر الإنسانى العقلى بمختلف صوره وتعدد مجالاته.

لا مفر إذن من الإعتراف بالأثر الهائل للتليفزيون على أبناء هذا الجيل بصفة خاصة، حتى أنه يقال عادة فى وصف هذا الجيل بأنه جيل التليفزيون، اعترافاً بالأثر الكبير لهذا الجهاز العجيب والساحر فى تشكيل عقول ووجدان من يقبلون على متابعة برامجه على اختلاف نوعياتها أى أكانت ثقافية أم كانت ترفيهية أم كانت تعليمية مباشرة.

وإحقاقاً للحق فإننا نقول إن التليفزيون شأنه فى ذلك شأن أى اختراع من الإختراعات البشرية له مزاياه وله مضاره، له سلبياته وله إيجابياته. والعبرة ليست بالإختراع فى حد ذاته، بل بأوجه استخداماته وتطبيقاته، تماماً كما نتحدث عن الذرة وأوجه استخدامها فيما ينفع الناس، واستعمالها أيضاً فى الفتك بملايين الأفراد.

ومن هنا فإننا سنحاول من جانبنا الحديث عن أثر التليفزيون على العقل، سواء أكان أثراً إيجابياً أم كان أثراً سيئاً سلبياً، كما سنبين كيفية تلافى

الأخطاء حتى يصبح التليفزيون قوة خلاقة ومؤثرة فى تشكيل العقل والوجدان والشعور.

لا يخفى علينا أن أثر التليفزيون على العقل المصرى يعد حاليا أثـــراً سيئا، وبرامجه تعد معبرة إلى حد كبير عن الإغتراب عن العقل والمعقـــول، بل لا أبالغ إذا قلت إن ملايين الأفراد الذيـــن يشـــاهدون الـــبرامج الحاليـــة للتليفزيونات قد يميلون إلى الأسطورة واللامعقول، تـــاركين الفكـــر النقـــدى والمعقول تماماً.

يضاف إلى ذلك الأخطاء العديدة التى يجدها المشاهد فى الكثير مـــن البرامج التليفزيونية منذ وجوده فى مصر وحتى أيامنا هـــذه. وهـــل ننســـى المسلسلات الدينية والتى نجد فى أكثرها مجموعة من الأخطاء التاريخية قد لا يقع فيها طلاب المدارس الإعدادية. هل يمكـــن أن نتجـــاوز عـــن الأخطـــاء والمغالطات التى نجدها فى المسلسلات التاريخية وخاصة تلك التى تتعـــرض لمجموعة من الشخصيات القديمة أو المعاصرة، بل ما يصاحب هذا كله مـــن الأخطاء اللغوية التى قد يهتز لها جسد سيبويه فى قبره إذا علـــم بـــها، ومـــا يصاحبها أيضاً من نوع من البطء الشديد الذى يصيب الإنسان بالملل. وكـــم أشارت أكثر من دراسة من الدراسات التى تمت فى أمريكـــا وأوروبـــا إلـــى الصلة بين درجة الإبطاء فى المسلسلات والبرامج التليفزيونيـــة، وبيـــن مـــا يحدث للإنسان من تخلف ذهنى عقلى ولكن أكثرهم لا يعلمون. فإذا أضفنا إلى ذلك أن ثقافة التليفزيون تعد من نوع الثقافة السريعة الجاهزة، أدركنا تمامـــاً مقدار ما تحدثه من تلف للعقل وتخريب له. ويقينى أن المشرفين على العديـــد من البرامج التليفزيونية الثقافية لو تعلموا من البرنامج الثانى للإذاعـــة دقـــة المعلومات وعمقها لكانوا قد جنبوا أنفسهم مئات الأخطـــاء والســـلبيات التـــى وقعوا فيها.

ولكن إنصافاً للتليفزيون نقول إننا نقدر دوره فـــي مجـال الـبرامج التعليمية ودروس محو الأمية فهذه أشياء ضرورية إذ أن التليفزيـــون ليـس للخاصة وحدهم بل لعامة الناس وأيضاً للطلاب. كما نقول إن التليفزيون لـــه وظيفته الإعلامية والترفيهية ومن هنا فلا يصح أن ننتظر منه أن يكون جهازاً ثقافياً فقط كالكتاب مثلاً. وعلى من يريدون التزود بالثقافة الأصيلة والجادة فلا غنى لهم عن الكتاب الذى يمثل التيار الذهبـي المتدفـق والفيـاض بالثقافـة وسيظل كذلك. نقول هذا إنصافاً للتليفزيون وتقديراً للمجهود الذى يقـــوم بـه بعـض المشرفين على هذا البرنامج أو ذاك من البرامج التليفزيونية ولكـــن لابد من التنبيه إلى أننا إذا أردنا للتليفزيون أن يكون قوة دافعة خلاقة للتــأثير تأثيراً إيجابياً فى عقول ووجدان أمتنا وبحيث يعوض ما فاته ويكفر عن ذنوبه وأخطائه، فلا مفر من الأخذ ببعض النصائح والوصايا من بينـــها ضـــرورة التعاون والتنسيق بين برامجه الثقافية، والهيئات الثقافية والتعليمية الأخرى فى المجتمـــع المصرى ومن بينها المجلس الأعلى للثقافـــة والبرنـامج الثـانى للإذاعة ومجمع اللغة العربية.. إلخ. إن إنقاذ العقل والتفكير والوجدان لا يمكن أن يتم عن طريق برامج ثقافية بالتليفزيون أو هكذا يقال عنها. والمشاهد لـــها يدرك تمام الإدراك أنها فى واد، والثقافة فى واد آخر، يعتقد تمام الإعتقاد أنها مقطـوعة الصلة بهيئات ثقافية أخرى فى مجتمعنا لـــها وجهـــها المشـــرق الوضاء فلماذا إذن لا يتعاون التليفزيون فى تنسيق برامجه مع تلك الـــهيئات حتى نضمن واجهة ثقافية وضاءة لمصر. وإذا كنا نجد أكـــثر مـن برنـامج بالتليفزيون يقال عنه إنه برنامج ثقافي ويركز على مجال الأدب وحده، فـــإن هـــذا ليس من المناسب إطلاقاً، فالأدب يعد مجالاً من مجالات الثقافة ولكنه لا يعبر وحده عن الثقافة. فأين إذن البرامج التى تهتم اهتماماً رئيســياً بـــالعلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية؟ إن هذا الفهم القاصر للثقافة يؤدى إلـــى الإخـــلال بالثقافة كما ينبغي أن تكون الثقافة، يؤدى إلى تصور خاطئ للمثقف كما ينبغى

أن يكون المثقف. إن مصر عامرة بالمفكرين والمتخصصين فى كل مجال من المجـالات الثقافية فلماذا إذن لا يقوم التليفزيون بالإستفادة منهم وتقديرهم حق قدرهم وكلهم على استعداد لأن يلبى نداء الوطن، نداء الثقافة، نـداء الفكـر الجاد.

لابد من وضع خريطة ثقافية تكون أمام التليفزيون يشترك فى وضعها وتحديد معالمها مفكرون كبار وبحيث لا تقتصر على مـن يعملـون بحكـم وظائفهم فى التليفزيون. إلى متى سنظل نربط بين الفكر من جهة وأصحـاب المناصب الإدارية البراقة من جهة أخرى إن العكس قد يكون هو الصحيـح. وليراجع المشاهد للبرامج التليفزيونية أسماء أكـثر مـن يقـوم التليفزيـون باستضافتهـم للحديث فى هذا المجال أو ذاك من المجالات الثقافية، ويقينـى أنه سيدرك تمام الإدراك أن المعيار الحالى هو الشهرة، فى حين أن الشـهرة عمياء. ولهذا لم يكن من الغريب أن يشعر من يحترم ثقافته، يحترم عقله، بأن أكثر ما يعرض أمامه من برامج يقال عنها ظلماً وعدوانا إنها برامج ثقافيـة، يشعر بأنها ستؤدى إلى إلغاء عقله، إلى وضعه فى حالة من الإغتراب عـن العقل بحيث يكون داخلاً فى مجال الأسطورة ومجال اللامعقول.

ينبغى أن تمثل البرامج التليفزيونية حالة الإنفتاح على كـل الثقافـات الجادة سواء فى عالمنا العربى أو العالم الغربى، وكم يصاب الإنسان بـالعديد من الصدمات حين يشاهد مجموعة من البرامج يؤدى بعضها إلـى غـرس الأسطورة والخرافة في النفوس ، ويؤدى بعضها الآخر إلـى الخلـط خلطـاً عجيباً بين مجال العلم ومجال الدين. يسلم نوع منـها إلـى مجـرد الإيمـان بالتراث دون نقده، وهذا من أخطر الأمور، لأننا قد نجد فـى بعـض كتـب التراث المئات بل الآلاف من الخرافات والأوهام.

لابد لكن نقوم بترقية المشاعر والسمو بـالوجدان، أن نقتصـر فـى برامجنا الفنية بالتليفزيون على ما يؤكد ذلك ويقـوم بتدعيمـه. وليـس مـن

المصلحة إطلاقا أن ندافع عن بعض الفنون الرخيصة المبتذلة بحجة أنها تعد فنوناً شرقية، وهي أبعد ما تكون عن الفن لأنها تضرب عرض الحائط بكل ما هو سام ونبيل وتؤدي إلى غلظة في الشعور وبرودة في الإحساس الفني.

يجب أن يضع التليفزيون في اعتباره أن وظيفته ليست في الهبوط إلى مستوى المشاهد، بل السمو بعقلية المشاهد، ورفعها إلى مستوى من يتحدثون إليه من خلال البرامج الثقافية والفنية. وليس من المناسب أن يلجأ إلى السطحية بأي حال من الأحوال بحجة أن المشاهدين يريدون ذلك. كلا ياسادة فكل مشاهد ينتظر الإرتقاء بعقله ووجدانه وليس الهبوط بهما إلى القاع، قاع الجهل والضياع ويقيني أن التليفزيون بإمكانه أن يفعل الكثير للنهوض بعقلية المشاهدين ووجدانهم وحينما يتم ذلك سينظر الجميع إلى التليفزيون نظرة إكبار وإجلال واحترام.

(١٢)

التكامل الثقافى برؤية فلسفية

"من أبرز الجوانب التى تؤدى إلى التكامل الثقافى، اللغـــة. وأقصد اللغة الفصحى وليس القصد اللغة العامية. ولا يخفى علينا أن اللغة الفصحى تعد لغة عامة مشتركة بيـــن أبنـــاء الشعــوب العربية من الخليج إلى المحيط. أما اللغة العامية، فـــهى لغـــة لا قواعد لها، لغة محلية".

(١٢)
التكامل الثقافى.... بروية فلسفية

أعتقد من جانبى اعتقاداً لا يخالجه شك بأن التكامل الثقافى بين مصر والسودان، إذا كان يعد أمراً ضرورياً، فإن هذا التكامل الثقافى يحتـــاج إلـــى إبراز الأسس التى يقوم عليها، كما يحتاج أيضاً إلى بيان كيفية إيجـــاد هـــذا التكامل بحيث يصبح واقعاً ملموساً حياً يعترف به كل فرد من أبنـــاء مصـــر والسودان الشقيق.

إننا حين نتكلم عن تكامل اقتصادى وغيره من أنواع التكامل، فإننـــا نعتقد أن كل نوع من هذه الأنواع لابد أن يسبقه أولاً وقبل كل شئ، ما نسميه بالتكامل الثقافى، بحيث أن التكامل الثقافى يعد سابقاً لهذه الأنواع الأخرى، بل لا نبالغ إذا قلنا بأن هذه الأنواع إنما ترتكز أساساً على دعائم التكامل الثقافى.

إن الثقافة تعد خطاً مشتركاً بين أفراد كل الشعوب، ومن هنـــا فـــإن التكامل الثقافى يكون فى العادة سابقاً لغيره من أنواع التكامل، تماماً كما نقول إن من يريد أن يشرع فى إقامة بناء فلابد أن يبدأ أولاً بإقامة الأساس الـــذى سيقيم فوقه البناء.

ولا شك فى أننا سواء فى مصر أو فى السودان قد قطعنا شوطاً فـــى مجال التكامل الثقافى بالإضافة إلى غيره من أنواع التكامل وأجد واجباً علـــىّ كمشتغـــل ومهتم بقضايا التكامل من جهة، وزائر للسودان الشقيق ما يقـــرب من أربعين مرة خلال السنوات الماضية من جهة ثانية، ومن خـــلال لقـــائى بكثير من الشخصيات الثقافية والمؤسسات الثقافية فى مصر والســـودان مـــن جهة ثالثة، أقول أجد من أوجب الواجبات علىّ، تقديـــم بعـــض الإقتراحـــات

ووجهات النظر فيما يتعلق بقضية التكامل الثقافي بين مصر والسودان، وذلك حتى يصبح التكامل الثقافي - كما قلت نامياً ومزدهراً، وواقعاً حياً ملموساً.

أولاً: من أبرز الجوانب التي تؤدي قدماً نحو التكامل الثقافي، اللغة، وأقصد اللغة الفصحى وليست اللغة العامية. ولا يخفى علينا أن اللغة الفصحى تعد لغة عامة مشتركة بين أبناء الشعوب العربية من الخليج إلى المحيط. أما اللغة العامية فلا تعد لغة مشتركة ومن هنا فلنحرص جميعاً على اللغة الفصحى سواء في كتبنا أو مقالاتنا أو في فنوننا وعندنا روائع من الشعر القديم والحديث، تصلح أن تكون أغان وقصائد ويقيني أن الغناء العربي لا يزدهر إلا بالتمسك بالفصحى. صحيح أنه قد يقال إن اللغة العامية تعد أسهل من حيث التعبير ومن حيث الفهم، ولكنها لاتعبر عادة عن فن راق يخاطب الوجدان النبيل والعاطفة السامية. ولو استعرضنا أكثر الأغاني لكبار المطربين والمطربات لوجدنا أن ما كان منها باللغة الفصحى فإنه يكتب له الخلود أكثر بكثير من أغاني العامية، كما نقول إن اللغة الفصحى في الشعر أفضل كثيراً من استعمال اللغة العامية الدارجة. لقد بعدنا وبعدنا كثيراً عن لغتنا الفصحى سواء في حياتنا العادية أو في بعض كتاباتنا وآن لنا أن نعود إليها، نعود إلى اللغة التي تستطيع التعبير في كل مجالات العلوم والثقافة والفنون، تستطيع التعبير عن كل خلجات النفس والشعور.

إن المحاضرة مثلاً إذا ألقاها فرد ما بلغة عامية على مجموعة من الأفراد من بلاد عربية مختلفة، فلن يفهمها كل هؤلاء الأفراد. إذا فهمها مجموعة من الأفراد في بلدة ما، فلن يفهمها مجموعة الأفراد الذين ينتمون إلى بلدة عربية أخرى، ولا سبيل إلا أن تكون مفهومة لدى كل أفراد الدول العربية كلها إلا بأن تكون باللغة الأم، اللغة المشتركة، اللغة الفصحى. ونحمد الله تعالى على أننا في مصر والسودان، لغتنا هي العربية، ولكن كل ما

أرجوه هو التمسك أساساً باللغة الفصحى فى كل المجالات التى تدخل فى إطار الثقافة والفنون. لابد أن نسعي بكل قوتنا نحو لغتنا الفصحى بحيث تكون أداة التعبير فى كل فن أو قصيدة أو كتاب أو مقالة ... إلخ. ومن سنوات بعيدة نبهنا كثير من المفكرين من أمثال طه حسين إلى أهمية التمسك بالفصحى كلغة مشتركة، وبينوا لنا أن اللغة العامية تعد لغة محلية، أى ليست لغة مشتركة.

أذكر أننى حينما كنت أعمل أستاذاً بإحدى جامعات الجزائر، أن اللغة المحلية لم تكن مفهومة بنفس درجة الفهم بالنسبة للغة الفصحى. إن اللغة العامية إذا استعملها فرد جزائرى وفهمها الآخرون من أبناء الجزائر، فإنها قد تكون غير مفهومة – كما قلت – بالنسبة لمواطنين عرب آخرين.

لابد إذن ونحن نهتم الآن بالتكامل الثقافى وقضاياه أن نجعل الفصحى هى أساس التعبير، على اختلاف مجالات ذلك التعبير قولاً كان أو كتابة.

ثانياً: إذا كانت اللغة وهى أداة التعبير لابدو أن تكون اللغة الفصحى، فإننا إذا انتقلنا من الأداة (اللغة) إلى الموضوعات التى يمكن أن نعبر عنها بتلك اللغة، وجدنا موضوعات لا حصر لها يؤدى بحثها إلى تدعيم التكامل الثقافى بين مصر والسودان توجد قضايا عديدة يمكن أن يبحث فيها المثقفون فى مصر والسودان من بينها قضية الأصالة والمعاصرة، وقضية إحياء التراث العربى الإسلامى، وقضية اغتراب الشباب عن الثقافة الجادة بحيث ينصرف عنها إلى الثقافة غير الجادة التى تتمثل فى التليفزيون على سبيل المثال، ومبتعداً بذلك عن ثقافة الكتاب، الثقافة التى لا غنى عنها، إلى غير ذلك من قضايا لا يمكن البحث فيها أو تقديم تصور لها إلا باشتراك المثقفين ورجال الفكر فى كل من مصر والسودان.

ثالثاً: للجامعات سواء في مصر أو السودان دورها الحيوى والهام فى السعى نحو التكامل الثقافى. ولابد من إقامة مواسم ثقافية تأخذ شكل الندوات والمحاضرات، أيضاً يهتم من خلالها أساتذة الجامعات بالبحث فى المشكلات الجامعية، ومشكلات المجتمع أيضاً، وهى مشكلات تهم كل أبناء مصر والسودان.

يضاف إلى ذلك أن المناهج الحالية لجامعاتنا فى مصر والسودان تحتاج إلى إعادة نظر، تحتاج إلى الكثير من التعديلات التى تؤدى إلى خدمة قضية التكامل حتى يكون شباب مصر على معرفة واعية بكل الجوانب الثقافية والتعليمية بالسودان وأيضاً حتى يكون شباب السودان على معرفة كاملة بكل الأبعاد الثقافية الخاصة بمصر.

رابعاً: المجلات الثقافية وغيرها من صحف ودوريات يجب أن تأخذ فى اعتبارها الجوانب والمجالات الثقافية والفكرية والفنية فى كل من مصر والسودان. صحيح أننا قطعنا شوطاً فى هذا المجال عن طريق مجلة "الوادى" على سبيل المثال، ولكننا بإمكاننا الإستمرار فى تدعيم طريق التكامل عن طريق المزيد من الصحف والمجلات.

خامساً: دراسة العادات والتقاليد الإجتماعية فى كل من مصر والسودان، ومما يساعد على ذلك وجود عادات وتقاليد مشتركة أى موجودة فى كل من مصر والسودان. ويقينى أن دراسة تلك العادات والتقاليد والنظم الإجتماعية من الأشياء الهامة والتى لابد أن نأخذها فى اعتبارنا حين نضع أمام أعيننا قضية التكامل.

سادساً: الفنون بكل صورها من لوحات فنية وغناء ورقص وموسيقا وأفلام سينمائية ومسرحيات إلى آخر تلك المجالات الفنية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بموضوع التكامل وينبغى تشجيع الأعمال المشتركة الفنية بين أهل الفن فى كل من مصر والسودان.

سابعاً: الكتب الثقافية في كل من مصر والسودان، ينبغـــي تشجيــع تداولـــها وانتقــالها من وطن إلى آخر ودعمها ماديـــاً، فالكتـــاب مـــن أهـــم المجالات الثقافية وإذا شجعنا بكل قوتنا سهولة إيجاد الكتب الثقافية في كل من البلدين، فإن هذا يعني تدعيماً للتكامل وإرساء لقواعده.

وإذا كان المجال لا يتسع لسرد كل الجوانب التي ترتبـــط بالتكـــامل الثقافي من قريب أو من بعيد، إلا أننا نرجو أن تكـــون تلـــك الأمثلـــة التـــي ذكـــرناها، يؤدي تحقيقها إلى التكامل الثقافي للإخوة الأعزاء في كـــل مـــن مصر والسودان.

(١٣)

الهجوم على الرواد والإنهيار الثقافى

"لا يصح للامعقول أن يطغى على المعقول، فالمعقول هو الذى يصحح اللامعقول. وإذا انتصرنا للامعقول، فقد حقت علينا لعنة السماء وسنصبح من أكثر الأمم تخلفاً وهمجية. ولا يصح ونحن فى القرن العشرين، أن يقيم اللامعقول محاكم تفتيش للعقل والمعقول".

(١٣)
الهجوم على الرواد... والإنهيار الثقافى

ظاهرة يؤسف لها أشد الأسف، ظاهرة تجاوزت مصر إلى بلدان عربية أخرى، تلك الظاهرة هى الهجوم على رواد الفكر فى مصرنا المعاصرة، ولا أشك فى أنها تعد تعبيرًا، تعبيرًا ظاهراً عن الإفلاس الثقافى والضحالة الفكرية.

لقد ظهرت نغمة نشاز فى مجتمعنا المصرى وبلدان عربية أخرى، تلك النغمة هى توجيه مجموعة من المطاعن والإتهامات إلى روادنا فى مجال الفكر والأدب والثقافة، والذين نفاخر بهم بين الأمم ولولا المجهودات التى قاموا بها لما تصورنا وجوداً أو ثقلاً ثقافيا فى مصرنا المعاصرة. إن الأهرامات إذا كانت تعد دليلاً على عظمة مصر القديمة ويأتى إليها الناس من الشرق والغرب انبهاراً بها وتسليماً بعظمة بناتها، فإن روادنا من أمثال محمد عبده وسيد درويش وطه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ إن هم إلا أهرامنا الثقافية والفنية الذين نباهى بهم بين الأمم، كما نفخر بكل من سار على دربهم وشق الطريق أمام أكثر من جيل وذلك وسط الصخور والأشواك من أمثال زكى نجيب محمود وتوفيق الطويل وأمين الخولى ورياض السنباطى إلى آخر هؤلاء العمالقة.

من أعجب الأمور أننا نجد أن القيم قد انهارت وأصبحت الكلمة للصغار دون الكبار، وصار كل متخرج من مدارس محو الأمية يحسب نفسه مفكراً كبيراً وناقداً عظيماً، وهؤلاء هم الأشباه والظلال الباهتة، هؤلاء هم أهل التقليد لا التجديد، أهل الإنغلاق لا الإنفتاح الفكرى والثقافى.

ماذا حدث لحياتنا الثقافية فى العصر الحالى؟ إفــلاس ثــم تخريــب، والــدليل على ذلك تلك الحملات الضارية على نجوم ســاطعة فــى حياتنــا الفكــرية الحديثة والمعاصرة والإعلان من جانب هؤلاء الأشباه بأنهم جيــل بلا أساتذة.

أليس من حق المفكر أن يقول بالآراء التى يعتقد بصوابها ويقدم الأدلة عليها؟ أليس من حق الكاتب أن يختار أسلوبه فى الكتابة للتعبير عن أفكــاره وأدبه؟ فلماذا إذن تلك الهجمات من جانب الأشباه والصغار.

حملات ما أكثرها وتدعو إلى الأسف والتشاؤم من مســتقبل حياتنــا الفكــرية من بينها أن طــه حســين كــان مقلــداً ومروجــاً لآراء بعــض المستشــرقين، وأن طه حسين قد كتب له أناس بعض كتبــه، وأن العقــاد لا يفهم ما يكتبه لأن أسلوبه غاية فى الصعوبة، وأن محمود تيمور لــم يكتــب بعــض قصصه بنفسه، بل كتبها له آخرون.... إلى آخر تلك الحملات التــى إذا حاولنا إحصاءها لملأنا صفحات مجلد من المجلدات، وكان الأجدر بهؤلاء أن يقــدموا شيئاً نافعاً للبشرية ولأبناء وطننا فإن هذا يعد خــيرا لــهم مــن إضاعة وقتهم فى محاولة تحطيم عمالقة فكرنا.

إننا لو وجدنا الآن مفكرين أكثر دقة وعمقا من رواد سابقين فيجب ألا ننــسى أن المفكرين الحاليين قد صعدوا فوق أكتاف السابقين ومــن يصعــد فوق أكتاف الآخرين يكون مدى الرؤية بالنسبة له أكثر اتساعاً من الشخــص الذى تم الصعود فوق أكتافه. يجب علينا أن نتذكر ذلك جيداً حتى لا نخطــئ فى حق روادنا ومفكرينا.

ينبغى علينا أن نتذكر جيداً ونضع نصب أعيننا باستمرار أن كل رائد من روادنا فى مجال الفكر إنما يعد هرماً من أهراماتنا الثقافية، وبناء شامخــاً معبــراً عن حضارتنا ومجدنا، وإن علينا لا إلقاء الحجارة على مفكرينا الكبار والتشكيك فى قدراتهم الفكرية وفى الدور الذى قاموا به، بل مواصلة البنــاء

والسير فى الطريق الذى أصبح أمامنا ممهداً ومعبداً بفضل جهودهم الجبارة إذ كانوا كالمكتشفين الجدد لعوالم فكرية وأدبية وفنية.

إننى أفهم أن نختلف معهم فى الرأى فهذا من حقنا ولكل جيل مطالبه وقضاياه التى قد تختلف فى قليل أو فى كثير عن مطالب وقضايا الجيل أو الأجيال السابقة عليه، ولكننى لا أدرى مبرراً واحداً يدفع البعض منا ومن بينهم أقزام فكر وأشباه دارسين، إلى أن يحاولوا هدم ما بناه مفكرونا وأدباؤنا.

هل أخطأ طه حسين مثلاً حين نادى بحركة التنوير، ونقل إلينا الثقافة الغربية وانتصر للعقل بكل أمجاده؟ كلا ثم كلا. فإذا كان البعض يهاجمه لدعوته إلى العقل فإن اللامعقول يا سادة لا يمكنه أن يطغى على المعقول وإذا انتصرنا للامعقول وللخرافة فقد حقت علينا لعنة السماء وسنصبح من أكثر الأمم تخلفا وهجمية. ولا يصح ونحن فى القرن العشرين أن يقيم اللامعقول محاكم تفتيش للعقل والمعقول.

هل أخطأ طه حسين وكل من ساروا على دربه حين نادوا بالأخذ عن الغرب والإستفادة من فكرهم؟ كلا، إنهم إذا كانوا قد تأثروا بأفكار الغربيين من الفلاسفة والمستشرقين فإن التأثر يعد ظاهرة صحية، وكل مفكر لابد وأن يتأثر بالسابقين بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة وعدم التأثر قد يعنى الجهل والتخلف وإلا فلماذا نمنع على مفكرينا التأثر بالغربيين وفى نفس الوقت نعلن فى أكثر من مناسبة بأن الغرب قد أخذ عن علمائنا ومفكرينا أيام عصر النهضة؟ ألا يعد هذا نوعاً من أخطر أنواع التناقض. إننا يا سادة ما زلنا حتى الآن عالة على مجهودات مفكرى الغرب، عالة على الدراسات التى قدمها لنا المستشرقون وبذلوا من أجلها كل ما أوتوا من صحة ومال. ينبغى أن نضع أمامنا باستمرار قول المفكر الأمريكى ول ديورانت وهو بصدد دفاعه عن ابن سينا. إن ديورانت يقول: إن المبدعين تمام الإبداع، الأصلاء تمام الأصالة لا يوجدون إلا فى مستشفيات الأمراض العقلية. لقد

قال ذلك وهو يرد على من اتهموا ابن سينا وغيره من فلاسفة العرب بأنهم كانوا مجرد مقلدين لفلاسفة اليونان.

هل يعد العقاد مخطئاً حين آثر لنفسه وللقراء أسلوباً تميز به في كتاباته؟ ماذا كنا ننتظر من العقاد؟ هل كنا ننتظر منه أن يكتب باللغة العامية، أن يكتب باللغة التي تسود اليوم وسائلنا الإعلامية، لقد كان العقاد حريصًا على أن يعلن في أكثر ندواته التي تشرفت بحضورها سواء في القاهرة أو في أسوان أنه يهدف إلى رفع القراء إلى مستواه لا أن ينزل إلى مستواهم، فهل هذا يعد خطأً وشراً مستطيراً كما يذهب بعض الأشباه في تلك الأيام. إن البعض منا إذا لم يفهم أسلوب العقاد فليس من الضروري أن يكون العيب في أسلوب العقاد بل قد يكون العيب في هؤلاء الذين لا يفهمون أسلوبه. حدث في أحد الأعوام أن ألف أحد الفلاسفة الألمان كتاباً من كتبه، ويعد أول كتبه ولم يقدر لهذا الكتاب أن يجد رواجاً بين القراء فقال هذا الفيلسوف مدافعاً عن الكتاب ومبينا أن العيب ليس من الضروري أن يكون في الكتاب، إن كتاباً مثل هذا كالمرآة إذا نظر فيها حمار فهل نتوقع أن يرى فيها ملاكاً؟

إن التاريخ يعيد نفسه، والنابغ منا هو الذي يأخذ عظته من التاريخ. لقد هوجم أكثر المفكرين ومن بينهم سقراط والحلاج والسهروردي وابن باجه وابن وشد وديكارت وسبينوزا وصدرت على بعضهم أحكام بالإعدام، ولكن الخلود كان لهم ولم يكن لهؤلاء الذين قاموا بتوجيه التهم والمطاعن إليهم. وإذا كان يحلو للبعض في هذه الأيام أن يهاجم روادنا في مجال الفكر والأدب والثقافة فإن الخلود لن يكون لهؤلاء المهاجمين، بل سيكون للرواد من المفكرين المصريين. لن نسمع عن هؤلاء المهاجمين إلا أسماء مجرد أسماء في سجل المواليد وسجل الوفيات، ولكننا سنظل نتحدث عن روادنا ونفخر بما قاموا به من شق الطريق أمام حركة التنوير العقلي في مجتمعنا المعاصر، وتبديد ظلام الجهل وستظل أعمالهم وآثارهم ناطقة بعظمتهم ونبوغهم.

أسباب واهية إذن وأغلبها تعد داخلة فى مجال الخرافة واللامعقـــول هى التى تدفع بالبعض إلى مهاجمة روادنا من المفكرين فى كل مجـــال مـــن المجالات، حللوا تلك الأسباب ولن تجدوا أنها تخرج عن كونها إما محاولـــة للطعـــن فى الكبار حتى يجلس الأقزام والأشباه والصغـــار مكانـــهم ولكـــن هيهـــات. وإما لأن القائمين بتلك الحملة الهجوميـــة مـــن أصحـــاب العقـــول التقليـــدية المغلقة التى تتمسك باللامعقول والخرافة وتؤثـــر الظـــلام بحيـــث تخشى كخفافيش الفكر، نور العقل الذى دعا إليه مفكرونا العظام وهكذا إلـــى آخر الأسباب التى دفعت بفريق من الناس إلى شن حملات هجومية ضاريـــة ضد مفكرينا ويقينى أننا لو حللنا تلك الأسباب أو الدوافع التى صدرت عنـــها حملتهـــم الهجومية لوجدنا أنها تعد أسباباً ليس لـــها مـــن الموضوعيـــة أى نصيـــب، ليس فيها أى التزام بشروط النقد كما ينبغى أن يكون النقـــد ولكـــن مـــاذا نفعل حيال قوم آثروا الكسل والخمول وظنوا أنـــهم بمحاولتـــهم هـــدم الرواد إنما سيقيمون مجداً لأنفسهم وبريقاً حول أسمائهم وهذا كله وهم علـــى وهم لأن الأشباه غير الأصول ودنيا الأقزام غير دنيا النابغين ولكن أكثرهم لا يعلمون.

(١٤)

هل يوجد مستقبل لفكرنا العربى؟

"إن من أهم المعوقات أمام انطلاق فكرنا العربى، أننا نقدس القديم لمجرد أنه قديم. نقدس القائل به رغم أنه قد قال بما قال به لأسباب تاريخية، أى أسباب خاصة بزمان معين عاش فيه وبيئة معينة قضى حياته فيها. وقد تكون ظروف اليوم غير ظروف الأمس. قد تكون مطالب اليوم أو غداً، غير مطالب الأمس، الأمس البعيد والأمس القريب. نقول هذا ونؤكد على القول به نظراً لأننا مازلنا نجد فى ساحتنا الفكرية من يفسد فيها ويريد لها أن تكون خراباً بلقعاً".

(١٤)
هل يوجد مستقبل لفكرنا العربى؟

أجد لزاماً على قبل الشروع فى الحديث عن رؤية تدور حول حاضر ومستقبل الفكر العربى، أن أؤكد على أننا لو ظللنا نسير فى الطريق الفكـرى الـذى نسير فيه حالياً فلن نجد مستقبلاً مشرقا وضاء لفكرنـا العربـى، بـل سنجد طريقاً مسدوداً، سنجد طريقاً إن أدى إلى مستقبل فإنه سيكون مسـتقبلاً تغشى جوانبه ظلمات فوق ظلمات.

لا أقول بهذا من جانبى الآن تعبيرا عن التشاؤم ولكننى أضـع فـى الإعتبار أننا إذا أردنا لفكرنا العربى مكاناً بين الفكر العالمى ، فلابد من تغيير مسار فكرنا العربى الحالى. أضع فى الإعتبار أيضاً أن أكثر ما نتحدث عنـه الآن من قضايا، إن هى إلا قضايا قد عفا عليها الزمن. وليرجع القارئ إلـى المؤلفات التى تخرجها مطابعنا الآن، ويفحصها فحصـاً نقدياً موضوعياً مصنفاً، وسيجد أن كلها - ما عدا استثناءات قليلة جدا - إما أنها تستند إلـى اجترار الماضى والإشادة بعظمة أجدادنا وكأن مجرد الحديث عـن عظمـة الأجداد، من جانبنا سيؤدى إلى إلزام مفكرى العالم بالتسـليم بعظمـة فكرنـا العربى الحالى . وإما أنها تثير قضايا تقوم على الخرافة واللامعقول، ومن هنا كانت باعثاً على الضحك والسخرية، إذ كيف نجعل لفكرنا العربـى مسـتقبلاً وضاء ونطالب الآخرين بالإعتراف بمكانته ، فى الوقت الذى مازلنا فيه نجده فكراً يعد فكراً خامداً راكداً لأنه يعد تعبيراً عن السخرية من الجزء العاقل من نفوسنا.

إننا إذا رجعنا إلى فكرنا العربى فى الماضى فسنجد مفكرين تنطبق عليهم مقاييس الفكر العالمى بمعنى أننا إذا ذكرنا شخصية كشخصية أبى العلاء المعرى فى مجال الشعر أو كشخصية ابن رشد فى مجال الفلسفة، أو كشخصية ابن خلدون فى مجال التاريخ والإجتماع، فإن هؤلاء بما تركوه لنا من فكر يمكن أن نقول عنهم، إنهم شخصيات تحتل مكانة فى تاريخ الفكر العالمى.

ولكن ما هو الحال بالنسبة لفكرنا العربى الحالى؟

الحال الآن يختلف تماماً عن الماضى البعيد فلا نجد الآن فكراً يمكن أن يقال عنه إنه يدخل فى إطار الفكر العالمى هذا ينطبق على القصة والقصيدة والمجالات الفكرية والفلسفية بوجه عام وإذا تساءلنا الآن عن كيفية إيجاد مستقبل مشرق لفكرنا العربى، مستقبل يتمثل فى جعله فكراً عالمياً ممتازاً، فإننا من جانباً نستطيع القول بأن ذلك لن يتم إلا إذا تحقق ما يلى:

<u>أولاً</u>: لابد من تهيئة المناخ الفكرى الذى يؤدى إلى التقدم نحو إيجاد شخصية لفكرنا العربى مستقبلاً وفى نفس االوقت يكون متواصلاً مع الفكر العالمى. هذا المناخ يتمثل فى حركة التنوير العقلى، كتلك الحركة التى أدت إلى تقدم أوروبا فى عصر النهضة. إن أوروبا قد تقدمت فكريا ابتداء من عصر النهضة لأنها لم تقف عند تقديس الماضى لمجرد أنه ماضى، بل إنها لم تتردد فى أن تطرح الماضى جانبا، أو على الأقل استبعدت منه ما وجدت أنه لا يتفق مع المنهج العلمى الحديث، وما لا يتفق مع الجانب العقلى.

إننا الآن مطالبون بذلك إذا أردنا البحث عن مستقبل لفكرنا العربى لابد من تنقية التراث، عار علينا أن نقف عند الماضى إذا وجدنا فى الماضى آراء واتجاهات تعد داخلة فى صميم الخرافة واللامعقول، بل لابد فيما نرى من تجاوز الماضى إلى متطلبات الحاضر وقضاياه.

إن علماءنا الكبار فى الماضى كابن الهيثم والبيرونى وابن سينا، قــد أعجب الغرب بآرائهم وقام بترجمة أكثر كتبهم لأنها تساند العقــل والإتجــاه العلــمى. ومعنى هذا أننا نجد فى تراثنــا آراء وقيمًــا واتجاهــات وضــاءة مشرقة، يمكن أن نستفيد منها ولكن إذا وجدنا فى هذا الكتاب أو ذاك من كتب التراث ما يستند إلى الخرافة ويدعو إليها، فلابد من استبعاده لأنه لا يصلـــح أساساً نقيم عليه فكرنا العربى مستقبلاً لا يصلح أساساً لبداية الحضارة الفكرية فى أمتنا العربية مستقبلاً.

ثانياً: إذا كنا ندعو إلى الإنفتاح على ثقافة الغرب وتجـــاوز المــاضى إلـــى متطلبات الحاضر، فإن ذلك لا يعنى أن تصورنا لمستقبل الفكر العربـــى يجب أن يكون نابعاً من ثقافة الغرب، كلا ليس هذا ما ندعو إليـــه لأننـــا نعتقد أن رفض التراث العربى كلية يعبر عما نسميه ثورة من الخـــارج وهـــذه الثورة من الخارج لا تصلح بأى وجه مـــن الوجـــوه أن تكـــون دعامة على أساسها نقيـــم مستقبلاً لفكرنا العربى فلدينا جوانب مشرقـــة فى تراثنا القديم وجوانب مظلمة فلنأخذ الجوانب المشرقة التـــى تلتقـــى وثقافة الغـــرب وتتواكب معه ولنبتعد عن الجوانب المظلمة التى لا تعبر عن قيم خلاقة والتى لا تلتقى مع ثقافة الغرب هذا ما نجده بصـــــورة أو بأخرى عنـــد مفكرين من أبناء وطننا العربى ومن بينهم محمـــد عبـــده وطه حسين وعبد الرحمن الكواكبى وزكى نجيب محمود، بل نجد ذلـــك أيضاً عند مفكر إسلامى كبير هو محمد إقبال إن هؤلاء كانوا بأفكـــارهم معبرين عما نسميه بالثورة من الداخل، أى ثورة داخل الفكر، ولم يكونوا معبرين عن الثورة من الخارج، تلك الثورة التى ترفض أساســـاً تراثنـــا العربى وتدعو إلى جعل قيم الغرب وثقافته هـــى أســـاس فكرنـــا فـــى المستقبل، إن هذه الفكرة نرفضها من جانبنا قلباً وقالباً لأنها لا تمثل نوعاً من الإستمرار لا تمثل اعترافاً بما فى تراثنا من قيم.

غير مجدية فى ملتى واعتقادى الدعوة إلى تنحية تراثنا جانباً، بل ما اعتقد به إذا ما أردنا البحث عن مستقبل لفكرنا العربى، هو ما أطلق عليه الثورة من الداخل، أى داخل الفكر العربى نفسه، إن تلك الثورة تعد تعبيراً عن الإنفتاح، تعبيراً عن الإستمرار وليس التوقف. إن الثورة من داخل الفكر تستند إلى أخذ ما فى ماضى تراثنا من جوانب عقلية وعلمية سواء تمثل ذلك فى المنهج أو فى الأفكار، وهذه الجوانب يمكن أن نوائم بينها وبين ثقافة الغرب وبدون أن نفعل ذلك سيظل فكرنا، فكراً محبوساً، فكراً محلياً، بدون ذلك سوف لا نجد مستقبلاً وضاء لفكرنا العربى.

إننا إذا كنا نقول إن الثورة من داخل الفكر العربى لا من خارجه تعد تعبيراً عن مستقبل مفتوح لفكرنا العربى، فإننا ندلل على ذلك بالقول بأن المجددين فى مجال فكرنا العربى لا نجد لديهم اقتصاراً على التراث القديم بمفرده ولا نجد عندهم دعوة إلى الوقوف عند ثقافة الغرب وحدها.

وهذا إن دلنا على شئ، فإنما يدلنا على أن مستقبل الفكر العربى يقوم فى أكثر جوانبه على ما يسمى بإحياء التراث ولأبادر إلى القول بأن إحياء التراث لا يعنى الوقوف عند التراث القديم. فليس من المعقول أن يكون موقف المفكر فى القرن العشرين فى مشكلة من المشكلات، هو نفسه موقف المفكر منها فى القرون الماضية، ليس من المعقول أن تحتفظ المشكلات القديمة بنفس طابعها، بل لابد من النظر إليها نظرة جديدة ومعاصرة يمكن أن تستفيد بعض زواياها من فكر الغرب وثقافته. إن معنى الإحياء إذن يتبلور حول القيام ببعث المشكلات التى أثيرت فى عصور سابقة ولكن لابد من النظر إليها من خلال منظور جديدة، منظور العصر الذى نعيش فيه، ودون أن نفعل ذلك ستظل ثقافتنا العربية راكدة أو كالراكدة ستظل واقفة عند حدود لا تتخطاها وإذا وقفت عند حدود ثابتة مغلقة ، فإنها – كما قلنا منذ قليل – ستكون معبرة عن دائرة مغلقة منعزلة عن الفكر العالمى.

إن من أهم المعوقات أمام انطلاق فكرنا العربى، أننا نقــدس القديــم لمجرد أنه قديم نقدس القائل به، رغم أنه قد قال بما قال به لأســباب تخــص تاريخه، أى أسباب خاصة بزمان معين عاش فيه، وبيئة معينة قضى حياتــه فيها وقد تكون ظروف اليوم، غير ظروف الأمس قد تكون مطالب اليــوم أو غد، غير مطالب الأمس.

ولو ضربنا مثالاً بشخصيتين من شخصيات الفكر العربى شخصيــة تفيدنا فى الإنطلاق نحو مستقبل مزدهر لثقافتنا العربية وشخصية أخرى كانت على النقيض من ذلك تاماً. وجدنا على سبيل المثال شخصية الفيلسوف ابــن رشد معبرة عن النوع الأول وشخصية الغزالى معبرة عن النوع الثانى فلــم يكــن من الغريب أن تأخذ أوروبا بكثير من آراء ابــن رشــد ولا ترتضــى لنفسها آراء الغزالى التى انتشرت فى الشرق أساساً ومن هنا نجد أوروبا قــد تقدمت لأنها اختارت الآراء التى تتفــق والجانب العلمى والجــانب العقلــى (لابن رشد) ورفضت الآراء التى تعد أكثرها معبرة عن الجــانب اللاعقلــى واللاعلمى (الغزالى).

هذا مثال نضربه الآن ونحن نبحث عن أساس لمستقبل فكرنا العربى لكى نذلل به على أننا إذا أردنا استمراراً لفكرنا العربى فى كافة مجالاته مــن أدب وفكر وفلسفة، إذا أردنا له أن يكون فكراً عالمياً، إذا أردنا لــه مســتقبلاً مشرقاً وضاء فلابد فيما نرى من جانبنا من القيام بتنقية التراث، من العمــل على إحياء التراث، من الدعوة إلى الإنفتاح على الغرب، نقل أمــهات كتــب الفكر العالمى على النحو الذى كان يوجد فى العصر العباســى علــى ســبيل المثال.

نقول هذا ونحن نضع فى الإعتبار أن كتابات أكثر كتابنــا ومفكرينــا الآن تعبر عن اللامعقول، تقف عند مجرد طبع التراث، تنقــل آراء الغــرب بطريقة مشوهة ومن هنا كان فكر هؤلاء وما أكثرهم ، تعبيراً عن مجرد فكر

محلى ، فكر لا يستطيع تجاوز المنطقة التى عاش فيها أصحابه، فكـــر يعــد كلاما فى كلام ، فكر يعد جهلاً على جهل، لا يتقدم خطــوة نحــو المســتقبل وضاء وإذا أردنا مستقبلا لفكرنا العربى ، فلا مفر فيما نرى مـــن الإلــتزام بالأسس التى تعد معبرة عن إحياء التراث من جهة وعـــن الانتصـــار للعلـــم والعقل من جهة ثانية ، وعن الدفاع عن الحضارة أينما وجدت، من جهة ثالثة إذ أن الدفاع عن الحضارة والسعى إليها بكل قوة هو ما يميز الإنســـان عـــن الحيوانات العجم فإذا كانت الحيوانات العجم لا تقيم لنفســـها حضـــارة، فـــإن الإنسان هو منشئ الحضارة والساعى إليها بكل قوته الخلاقة. وبـــدون هـــذه الأسس المبدعة لن نجد مستقبلا،أى مستقبل لفكرنا العربى، لن نجد له مكانـــاً بين تاريخ الفكر العالمى.

(١٥)

جائزة نوبل وقضية المحلية والعالمية

"إن أدبنا يعد أكثره، إن لم يكن كله، أدباً محلى الطابع لأنه لا يلتـزم بالقواعد الفنية، لا يلـتزم بـالشروط الدقيقـة للفـن الإبداعى. أقول وأكرر القول إن أكثر أدبنا يعد مسرفاً فى المحلية، شـأنه فى ذلك شأن الموسـيقا العربيـة والتـى لا تسـتطيع أن تتجاوز البحر الأبيض المتوسط. إن أدبنـا العربـى والموسـيقا العربية أيضاً، وسـائر الفنون التى تصدر عنا نحن العـرب، إذا أعجب بها الأشباه والصغار، فإنها لا ترضى ضمائر الذين يبحثون عن الأدب كما ينبغى أن يكون، عن الموسيقا العالمية وقواعدهـا الفنية الدقيقة.

(١٥)
جائزة نوبل وقضية المحلية والعالمية

أود فى البداية أن أؤكد على القول بأننا إذا كنا سنعرض لموضوع قضية نوبل وهل يستحق أدباؤنا تلك الجائزة أم أنهم لا يستحقونها، أن ما سنذهب إليه لا يعنى التقليل من الدور الذى يقوم به أدباؤنا فى تاريخ ثقافتنا العربية، إذ لا يمكن تصور تاريخ مصر الثقافى بدون أسماء أدت وما زالت تؤدى دوراً غاية فى الأهمية، بحيث أصبحت تلك الأسماء من الأسماء الخالدة، من الأسماء التى إذا تحدثنا عن تاريخنا الفكرى والأدبى والثقافى، فإنه لايمكن إغفالها أو تغافلها من قريب أو من بعيد.

لابد أن نضع فى اعتبارنا باستمرار أنه يوجد فرق بين جائزة عالمية وجائزة قومية[١] خاصة بوطن دون وطن أو أمة دون أخرى. فلدينا فى مصر جوائز من بينها جائزة الدولة التقديرية، إذا حصل عليها عن جدارة أدباء مثل طه حسين أو عباس العقاد أو توفيق الحكيم أو نجيب محفوظ فإن هذا لا يعنى أن هؤلاء الأدباء لابد بالضرورة أن يحصلوا على جائزة نوبل. فالأسباب التى من أجلها تعطى الجائزة التقديرية فى مصر لهؤلاء الأدباء الممتازين، تختلف تماماً وجذرياً عن الأسباب والمبررات التى من أجلها أعطيت جائزة نوبل فى الأدب لأدباء من أمثال همنجواى وخيمينيز وألبير كامى وطاغور وأندريه جيد وأناتول فرانس وغيرهم كثيرين.

[١] بعد إثارتى لهذا الموضوع، وفى مقابلة بينى وبين الأديب الكبير توفيق الحكيم بمكتبه بجريدة الأهرام، تفضل بإهدائى كتاباً من كتبه يشير فيه إلى موضوع المحلية والعالمية.

فلا يخفى علينا أننا فى منحنا الجائزة التقديرية نضع فـــى الإعتبـــار العطاء لمصر أساساً ، أى نضع فى الإعتبار الطابع المحلى بمعنى أن هذا هو أحسن الموجود عندنا[1] ولا يشترط فى منح الجـــائزة التقديريـــة أن يكـــون صاحبها مفكراً أو أديباً عالمياً وإلا لما أعطينا الجائزة التقديرية لأحـــد مـــن مفكرينا أو أدبائنا هذا إذا قلنا بأن الجائزة التقديريـــة يتـــم منحـــها لأســـباب موضوعية، إذ أنه حتى بالنسبة للجوائز التقديرية فقد فقدت مصداقيتها ومـــن الأفضـــل إصدار قرار بإلغائها تماماً. أما بالنسبة لجائزة نوبل فى الآداب، فإن شروطها تركز أساساً على الجانب العالمى وليس الجانب المحلى الطـــابع. إن مـــن شروط جـــائزة نوبل أن تمنح للذين يدعون إلى المثـــل العليـــا والقيـــم الخلقية الرفيعة، مـــن شروطها ضرورة خدمة قضية السلام وقضية الإخـــاء الإنسانى، أى النظر إلى الإنسان أساساً وليس الفرد فى مكان دون مكـــان أو زمان دون زمان. وبلغة المنطق نقول إنّ الإنسان يمثل الكل، يمثل النوع كله، أما الفرد فإنه يمثل الجزئى، فهل هذه الجوانب تعد موجـــودة فـــى مفكرينـــا وأدبائنا؟ قول وسأظل دواما أقول به لا ليس أدبنا أدباً عالمياً من قريب أو من بعيد هذا مع استثناء أمثلة غاية فى الندرة.

إننى أذكر أنه منذ سنوات بعيدة سألت العقاد فى ندوته الأسبوعية عن رأيه فى قصص نجيب محفوظ، أديبنا الكبير، وقد قال العقاد أنه يقدر نجيـــب محفوظ وأنه عندما قرأ قصصه وجد أن لدينا أديباً يقترب من مقاييس العالمية. إن العقاد لم يقل عن نجيب محفوظ إنه أديب عالمى، لأن العقاد يعلـــم تمامـــاً مقاييس العالمية وكيف أنها تختلف عن مقاييس المحلية. إن هذا لا يقلل – كما سبق أن أشرت – من أهمية أدبائنا و مفكرينا ولكن لا يصح أن نقول إن أدبنا يعد أدباً عالمياً.

[1] تقرر بعد ذلك منح جائزة أخرى هي جائزة الرئيس مبارك.

وإذا ذهب البعض إلى اتهام أعضاء لجنة جائزة نوبل للآداب، بالتعصب، فإن هذا الرأى من جانبهم، يجانب الصواب إلى حد كبير جداً. لو كانت الجائزة تعطى لأدباء وطن واحد، فإن هذا الإتهام لا يكون بالضرورة اتهاماً صحيحاً . إذ ما رأى الذين يتهمون أعضاء لجنة الجائزة بالتعصب حين نرى أن الجائزة قد أعطيت لأدباء كثيرين فى أرجاء دول العالم ومن بينها أسبانيا وسويسرا والنرويج وألمانيا وفرنسا والدانمرك وايرلنده وبلجيكا. ما رأى هؤلاء فى أن الجائزة قد أعطيت لشاعر الهند العظيم، (طاغور) أعطيت لهذا الحكيم الشرقى. أعطيت لمواطن ليس من أبناء القارة الأوروبية موطن نوبل.

إن من شروط منح جائزة نوبل مراعاة أن الأديب الذى تمنح له لابد أن يكون إنتاجه متجهاً نحو التقدم لا نحو التأخر، بمعنى أن يكون الأديب متجهاً باستمرار نحو العطاء الأدبي، وبحيث لا يكون إنتاجه أخذاً فى الذبول والتلاشى فهل ينطبق هذا على كثير من أدبائنا وفيهم من تتجه شعلة إنتاجه نحو الإنطفاء؟

إن من شروط جائزة نوبل مراعاة إنتاج الأديب كله، وليس رواية معينة أو عملاً أدبياً معيناً وإذا رجعنا إلى تقارير لجانها وجدنا هذا الشرط مطبقاً بدقة إلى حد كبير، فهل ينطبق هذا على كثير من أدبائنا، فى مجال القصة بصفة خاصة، وذلك حين يكتبون القصة ويضعون فى اعتبارهم ظهورها على شاشة السينما أو شاشة التليفزيون، أى يفضلون أحياناً المكسب المادى السريع؟

إن أدبنا يعد أكثره إن لم يكن كله أدباً محلياً لأنه لا يلتزم بالقواعد الفنية، لا يلتزم بالشروط الدقيقة للفن الإبداعى. أقول وأكرر القول إن أكثر أدبنا يعد مسرفاً فى المحلية، شأنه فى ذلك شأن موسيقانا والتى لا تستطيع أن تتجاور البحر الأبيض المتوسط.

إن عيبنا باستمرار أن نسارع إلى إلقاء العيب على أعضاء لجنة نوبل، ولا نبحث عن العيب فى أدبنا وفكرنا. صحيح أن الإنصاف الكامل لا وجود له، بمعنى أننا لا نستطيع القول بأن جائزة نوبل قد راعت العدالة المطلقة، إذ من أصعب الأمور، بل من المستحيل تحقيق الإنصاف الكامل، أو مراعاة العدالة المطلقة، وخاصة إذا وضعنا فى الإعتبار أن أدبنا لم يعرف به التعريف الكامل فى دول الغرب، ولم تتم ترجمة الكثير من الأعمال الأدبية، ولكن يجب أن نضع فى اعتبارنا أن فكرنا وأدبنا لا يعد فكراً أو أدباً عالمياً. وتوجد أسباب عديدة أدت إلى ذلك، ولسنا هنا فى مجال بيانها، ولكننا نكتفى بالقول بأن بعض تلك الأسباب يدور حول ما نسميه بقضية الأصالة والمعاصرة، يدور حول القول بأن مفكرينا وأدباءنا كانوا مضطرين للتركيز على واقع مجتمع معين وهو المجتمع المصرى وما فيه من مشكلات ثقافية. لابد أن نضع هذا فى اعتبارنا حتى لا نقلل من دور أدبائنا. فطه حسين ركز جانباً من تفكيره العقلى على مجال نقد ظواهر فى مجتمعنا المصرى والعربى كالمناهج القديمة فى الأزهر، والتمييز بين مجال الدين ومجال العلم، والبحث فى الشعر الجاهلى. ومحمد عبده ركز جانباً فى اتجاهه العقلانى فى نقد المناهج التى تقوم على الشروح والحواشى، ونقد التواكل الذى نجده عند بعض صوفية الإسلام، ونقد موقف الذين يحاربون التأويل. ونجيب محفوظ فى رواياته ومنها الثلاثية، كان معبراً عن أبعاد محلية لا أبعاد عالمية، وهكذا إلى آخر الأمثلة التى نجدها.

إن أدبنا وفكرنا يعد محلى الطابع إلى حد كبير ولهذا لم يكن من الغريب ألا نجد فيلسوفاً عربياً طوال ثمانية قرون، كان متوقعاً أيضاً ألا تجد جائزة نوبل طريقها إلى أديب مصرى.

إن فيلسوفاً كديكارت يعد عقلانياً، ومفكراً عظيماً كطه حسين يعد عقلانياً أيضا ومع ذلك فإننا نقول إن ديكارت يدخل فى مجال العالمية أكثر

من طه حسين . وليس في هذا ما يقلل من الدور الرائد لطه حسين إذ أنه كان يريد أن يشق طريقاً جديداً لثقافتنا ومن هنا كان مضطراً للدخول في معارك، إذا اهتم بها مجتمعنا العربى، فليس من الضرورى أن تنال نفس الإهتمام فى مجتمعات أخرى إنها تهم مجموعة من الأفراد فى مجتمع معين ولكنها لا تهم بالضرورة الإنسان كإنسان.

إن القارئ المدقق لابد وأن يدرك تمام الإدراك الطابع العالمى الإنسانى فى كتابات أدباء من أمثال همنجواى الأمريكى وخيمينيز الأسبانى، وألبير كامى وطاغور وكلهم حصلوا على جائزة نوبل. لقد عبروا عن جوانب عالمية وقد أكدت على ذلك تقارير أعضاء لجنة نوبل لقد عبروا عن رسالة إنسانية، بمعنى كان تعبيرهم إلى حد كبير جداً عن الإنسان ورسالته وقضاياه، الإنسان فى كل زمان وكل مكان، وليس الفرد فى مجتمع دون مجتمع آخر. إن ظاهرة الإبداع يلمحها القارئ لكتاباتهم. وغالباً ما يعبر الإبداع عن ظاهرة إنسانية عامة ومن هنا كانت كتاباتهم، تعبيراً عن العالمية، شأنها فى ذلك شأن السيمفونية التى تعبر عن لغة عالمية للموسيقا يفهمها كل متذوق للموسيقا.

وإذا كان يقال بأن أدباءنا قد دخلوا فى مجال الشهرة وذيوع الصيت، فإننا نقول من جانبنا إنها شهرة تنطبق إلى حد كبير على حدود مجتمعاتنا العربية، بالإضافة إلى أن الشهرة ليست هى المعيار لإعطاء جوائز نوبل لأن الشهرة عمياء، وإلا كيف نفسر أن جائزة نوبل فى الأدب قد أعطيت فى عام من الأعوام لأديب من بلغاريا، ليس من الضرورى أن يكون قد سمع عنه الكثيرون.

إن النغمة السائدة فى كتابات أدبائنا هى النغمة المحلية وليست النغمة العالمية وإذا كانت جائزة نوبل تشمل بالإضافة إلى مجال الأدب، مجالات أخرى من بينها مجال الطبيعة ومجال الكيمياء ومجال الطب، فإن من المتوقع أن تمنح لأناس يعملون فى هذه المجالات العلمية كالطبيعة والكيمياء والطب

لأن لغة العلم تعد لغة عالمية، أما بالنسبة لمجال الأدب عندنا، فإن شأنه فـــى ذلك شأن موسيقانا وأفلامنا، يعد فى أغلب جوانبه بل فى كلها محلى الطـــابع وإذا كانت توجد أوجه نقد لجائزة نوبل فى الأدب، فــإننى أعتقــد اعتقــاداً لا يخالجنى فيه شك أن عدم إعطاء الجائزة لأدبائنا العمالقة من أمثال طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم، لا يصح أن يكون من بين تلك الأوجه من النقد التـــى توجه إلى الجائزة.

الفصل الرابع: التسامح الدينى

ويتضمن هذا الفصل العناصر والنقاط التالية:

١- الإرهاب: المشكلة والحل.
٢- الوحدة الوطنية بين طريق النور وطريق الظلام.
٣- الكتاب الدينى وتيار العصر والحضارة.
٤- الرؤية القبطية فى الثقافة المصرية والعربية.
٥- طائر الحب والحوار بين الأديان يحلق فى سماء إيطاليا.

"إن أعظم شئ في حياة كل فرد منا، نحن أبناء الوطن العربي، إنما يتمثل في تمسكه بالوحدة الوطنية وإذا حاول واحد منا ضرب الوحدة الوطنية، وظن أن هذا العمل من جانبه إنما يمثل نوعاً من الرقي أو الصعود، فإن هذا يعد ضلالاً في ضلال، لأنه يعد صعوداً إلى الهاوية وبئس المصير".

(١)

الإرهاب... المشكلة والحل

"إذا أردنا القضاء على الإرهاب، فلابد أن نجعل الأفكار التنويرية فى مقدمة اهتماماتنا الفكرية، وبحيث تكون المساحة الكبرى من صحفنا وسائر وسائلنا الإعلامية مخصصة لنشر الفكر التنويرى عند أناس آمنوا بربهم وآمنوا بوطنهم. إنهم أنصار الفكر التجديدى الذين ينشرون النور والضياء فى كل مكان."

(١)
الإرهاب.... المشكلة والحل

قد لا نكون مبالغين في القول إذا ذهبنا إلى أن الإرهاب بكل صوره سياسياً كان أم فكرياً يعد ظاهرة عالمية وليس ظاهرة محلية. إنه لا يقتصر على مصر وغيرها من سائر بلدان الوطن العربي، بل إننا نجده قد أصبح ظاهرة عالمية. صحيح أن الأسباب التي أدت إلى الإرهاب قد تختلف من بلدة إلى أخرى، ولكننا نجد أسباباً من قبيل الأسباب المشتركة ويمكننا القول بأننا لابد أن نبحث في الجذور، نبحث في الأعماق، وإلا لأخطأنا في تشخيص المشكلة وبالتالي في علاجها.

فمن أسباب الإرهاب، الخلط بين الدين والسياسة، الدين والدولة، والقول بما يسمى الحكومة الدينية. ونخلط في تصورنا لماهية الحكومة الدينية. صحيح أننا كشعب عربي نجد التدين في أعماق النفوس ودليلنا على ذلك أن المشروعات التجديدية الكبرى لابد وأن تضع الدين في اعتبارها. هذا صحيح ولكن المشكلة هو أننا نجد خلطاً من جانب البعض بين الدين والدولة. وقد يكون ذلك راجعاً في بدايته إلى ما يسمى بالجناح العسكري للإخوان المسلمين، إذ كان الهدف من هذا الجناح ليس نشر الدعوة الدينية، كما يقولون، بل السعي إلى ما يسمونه بالحكومة الدينية.

وقد انتشرت دعوة هذا الجناح بعد تدفق أموال البترول في بعض البلدان العربية، إذ لابد من الربط بين دعوتهم هذه، وملايين الدولارات التي تتدفق عليهم من بعض دول البترول كما قلنا وبحثت وجدنا ما يسمى بالبتروفكر، أي ذلك النوع من الفكر الذي يرتبط بالبترول وعلاقته بملايين الدولارات. وهل يمكن أن ننسى مأساة شركات توظيف الأموال، هل يمكن أن ننسى الهجوم على كل ما هو غربي أوروبي، هل يمكن أن ننسى الهجوم على الحضارة الأوروبية ومنجزاتها. لماذا لم تنتشر تلك الدعوات في القرن التاسع

عشـــر وفي النصف الأول من القرن العشرين؟ لأن أموال البترول وتسخيرها لنشر البتروفكر لم تنتشر إلا ابتداء من النصف الثاني من القرن العشرين.

وإذا قلنا إننا يجب أن نبحث في الجذور، ونبحث بالتالي في الحلـــول الحقيقية ، فلابد من القيام بخطة طويلة المدى وخاصة بعد أن انتشر الإرهاب بكل صوره. يجب أن نحلل مناهج التعليم تحليلاً نقدياً جيداً وبحيث نحذف منها تماماً كل عبارة قد ترتبط بالإرهاب من قريب أو من بعيد ، أو قد ترتبط أيضاً بالفتنة الطائفية. يجب أن ننشر كل الأفكار التنويرية من خلال كـــل أجـــهزة الإعلام من صحافة وإذاعة وتليفزيون وبحيث لا يسمع أو يـــرى إلا أفكـــار النور والتنوير فكم بين أيدينا من صحف ومجلات نجـــد فيـــها العديـــد مـــن المقالات التي تكون مشجعة من قريب أومن بعيد على نشر الإرهـــاب بكـــل صوره. كم نجد العديد من البرامج الإذاعية والتليفزيونية والتـــي قـــد تكـــون مساعدة على نشر الفكر الإرهابي. لقد ظهر على السطح أناس تحسبهم مـــن المفكرين وهم ليسوا بمفكرين، بل أنصاف مفكرين وأشبـــاه متثقفيـــن. أنـــاس ينشرون أفكاراً سوداء، أفكاراً إرهابية، في حين أنه كان من الواجـــب – إذا أردنا القضاء على الإرهاب – جعل الأفكار التنويرية في المقدمـــة والبحـــث عمن يؤيدون كل فكرة تنويرية وهم قد يعملون فـــي صمـــت لأن الصحـــف والمجلات لا تركز عادة إلا على الشهرة، بالإضافة إلى انتشار ظاهرة الشللية التي أفسدت علينا حياتنا الفكرية وبحيث ظهرت الأفكار الإرهابيـــة الســـوداء على السطح ويقيني أننا لو قمنا بزيادة المساحة التنويرية فـــي كـــل وســـائلنا الإعلامية. لو دققنا في اختيار المشرفين على كل صحيفة أو مجلة أو غيرهما من الوسائل الإعلامية، وبحيث يكون التنوير هو قضيتهم الرئيسية، فإن الحال سيصبح غير الحال.

هذه نقاط عامة، كل نقطة منها تحتاج إلى معالجة تفصيلية، أرجو أن تكـــون موضوعاً لمقالات قادمة نكشف من خلالها عـــن أفكـــار تؤدي إلـــى القضاء على الإرهاب بكل صوره، فلا توجد مشكلة بدون حـــل، والمـــهم أن نتقدم في شجاعة إلى الأمام، نتجه نحو النور والتنوير، وبحيـــث لا نرضـــى لأنفسنا الصعود إلى الهاوية والرجوع إلى الوراء حيث الظلام وحياة الكهوف.

(٢)

الوحدة الوطنية بين طريق النور وطريق الظلام

"إن محاولة المساس بالوحدة الوطنية، تعد كالخنجر المسموم وكيف نتصور مجتمعاً واحداً يتقاتل فيه أبناؤه. إن كلمة الأمة من الأم، فينبغي إذن أن تكون علاقة الفرد بأمته كعلاقته بأمه علاقة المحبة والتقدير والدفاع عن الوطن."

(٢)
الوحدة الوطنية بين طريق النور وطريق الظلام

من الأمور التى يؤسف لها أننا فى مصر لا نستوعب دروس التاريخ جيداً. نهتم بالمظهر ولا نغوص إلى الأعماق حين نتصدى لدراسة مشكلة من المشكلات وبحيث نبحث عن أسبابها ووسائل علاجها. فإذا تكلمنا عن الوحدة الوطنية، التقينا بمجموعة من الشعارات البراقة، والخطب الرنانة الجوفاء. وإذا تحدثنا عن الفتنة الطائفية، اكتفينا بذكر مجموعة من الأحداث أو الحوادث دون أن نكلف أنفسنا بالبحث عن رابطة عضوية تربط بين هذه الحادثة أو تلك من الأحداث. إننا نكتفى بقراءة السطور، ولا نحاول أن ننفذ إلى ما وراء السطور نحاول التسرع فى إصدار مجموعة من الأحكام الخاطئة وكأننا نمثل خير تمثيل جيل الساندوتش أو جيل التليفزيون الذى يكتفى بالمظهر دون الجوهر، يبحث عن الأسهل ولا يكلف نفسه أن يجتهد فى البحث عن الأسباب الحقيقية والدقيقة والصحيحة.

غير مجدٍ فى ملتى واعتقادى الوقوف عند السطح، بل لابد من أن ننفذ إلى القاع الخصيب. ودليلنا على ذلك أن الوحدة الوطنية فى الماضى كانت تسير باستمرار فى طريق النور، طريق التنوير، ولم نكن نسمع عن أحداث تمثل الفتنة الطائفية كتلك التى نسمع عنها الآن، تلك الأحداث التى إن دلتنا على شئ فإنما تدلنا للأسف الشديد على أن الطريق إلى الوحدة الوطنية إنما يعد ممثلاً الآن للطريق المظلم، طريق الضياع.

إن أعظم شئ فى حياة كل إنسان منا إنما يتمثل فى تمسكه بالوحدة الوطنية. وإذا حاول واحد منا ضرب الوحدة الوطنية، وظن أن هذا العمل من

جانبـــه، إنما يمثل نوعاً من الرقى أو الصعود، فإن هذا يعــــد ضــــلالاً فـــى ضلال، لأنه يعد صعوداً إلى الهاوية وبئس المصير.

ومن الأخطاء الشائعة التى تتردد على ألســـنة المتحدثيـن، وكتـــاب المقالات، محاولة إرجاع ضرب الوحدة الوطنية والسير فى طريــــق الفتنـــة الطائفية، إلى أسباب اقتصادية. ولا نقصـــد مـــن ذلـــك اســـتبعاد الجوانـــب الإقتصادية والتى تتمثل فى عدم توافر فرص العمل أمام الشباب، بل كل مـــا نود التأكيد عليه، هو وجود أسباب أقوى وأعمق من مجـــرد الإســـتناد إلـــى الجوانب الإقتصادية. ودليلنا على ذلك أننا قد نجد أناساً يعيشون فـــى حالـــة الفقر، ورغم ذلك فهم أناس يؤمنون بربهم ويؤمنون بوطنهم ولا صلـــة لـــهم بالفتنة الطائفية من قريب أو من بعيد. وعلى العكس من هؤلاء قد نجد أناســـاً تضخمت أموالهم وثرواتهم، وهم عن طريق أعمالهم، وطريق كتاباتهم، مـــن أكثر الناس صلة بتلك الأحداث التى تضرب فى صميم الوحدة الوطنية. فـــهل نجد درساً أبلغ من ذلك.

كلا يا سادة. إننا كما أقول نقف عند السطح والقشـــور، ولا نحـــاول اختراقها بحثاً عن الحقيقة الجوهرية. راجعوا معى برامج التليفزيون وبعـــض البرامج الإذاعية. ارجعوا متى شئتم إلى الكتب الدينية المقررة علـــى طـــلاب المدارس بالتعليم من أوله وانتهاء بالمرحلة الثانوية. ادرسوا جيداً مـــا نجـــده داخل المذكرات الجامعية وهى تمثل محنة التعليم الجامعى. حللوا معى نوعية الثقافة التى تعطى لطلاب الجامعات، هذا إذا تجاوزنا فى القول، وقلنـــا إنـــها ثقافة، وستجدون أكثرها يمثل الفكر الرجعى، يمثل الإستناد إلى كتب الـــتراث الصفراء وما فيها من خرافات. يمثل الإعجاب بشخصيات رجعيـــة تقليديـــة. حللوا معى مقالات بعض الكتاب فى بعض الجرائد والمجلات العربية. هؤلاء الكتاب الذين لا يمثلون الإلتزام بخطورة الكلمة وأثرها على النفوس والعقول. راجعـــوا موضوعات بعض الخطب المنبرية التى تلقـــى بالمســـاجد والتـــى

تصدر عن أناس تحسبهم من الغيورين على مصلحة الوطن، وما هم بذلك، منهم من قضى نحبه ومنهم من لا يزال ينتظر.

هل من المعقول أن تثار الآن قضايا زائفة وبحيث تكون محور الحديث ونحن على أبواب قرن جديد ومن بينها محاولة بعض الأشباه الهجوم على الحضارة الغربية، وضرب رموز التنوير فى عالمنا العربى المعاصر. هل من المعقول أن يتحدث بعض الذين حشروا أنفسهم فى دائرة الثقافة، والثقافة منهم براء عن الغزو الثقافى، وعن الصحوة الإسلامية وكأن الإسلام قد مات، ألا يمثل حديثهم عن الغزو الثقافى وبث كراهية التنوير فى نفوس الشعب، نوعاً من الإنفصام فى الشخصية، إذ كيف أقول بغزو ثقافى وأهاجم الحضارة الغربية أعظم حضارات العالم، وفى نفس الوقت أسعى بكل قوتى إلى الإستفادة من منجزات الحضارة الغربية. كيف أكتب عن غزو ثقافى فى كتاب من الكتب، والكتاب ثمرة من ثمرات المطبعة التى اخترعها الغرب؟

هل من المناسب ونحن فى عصر وصل فيه الإنسان إلى القمر، أن أقول إن الحل هو مجرد الوقوف عند التراث وكتب التراث مجتمعة لا تساعدنا على التوصل إلى أى اكتشاف من الإكتشافات العلمية فى أى ميدان من الميادين؟ أين نحن الآن من علماء الأزهر الأجلاء أمثال محمد عبده ومصطفى عبد الرازق ومحمود شلتوت؟ إن القدوة الآن غير القدوة فى الماضى البعيد، والماضى القريب.

لا طريق إلى تدعيم الوحدة الوطنية إلا عن طريق القيام بخطة تنويرية شاملة داخل وسائل الإعلام وفى مناهج التعليم من أول مراحلها حتى آخر مراحلها. فالمدارس والجامعات مؤسسات اجتماعية فى المقام الأول ومناهجها أيها السادة تحتاج إلى مراجعة شاملة. وإذا وجدنا درساً يؤدى من قريب أو من بعيد، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، إلى ضرب الوحدة الوطنية، فإننا لابد أن نقول: إلى الجحيم أيتها الدروس والكتب وبئس المصير.

إن ما يؤدى إلى التناسق والتناغم بين أفراد المجتمع هو حذف كل ما يسئ إلى الوحدة والإتحاد بين أبناء الأمة الواحدة. إننا إذا أبقينا على تلك النوعية من الكتب التى تهاجم الحضارة، وتتحدث عن الغزو الثقافى، فإن ذلك سيؤدى إلى الفتنة بين أبناء الوطن الواحد، فالدين لله والوطن للجميع. إن هذا سيؤدى إلى بث الفرقة بين النفوس، وبحيث نكون كمن يتحدث على موجة، ويتحدث الأخر على موجة أخرى وبحيث لا يفهم كلام الآخر.

لابد أن نضع فى اعتبارنا انتشار كتب مدفوعة الأجر، ليس القصد منها خير المجتمع، بل يعمل على انتشارها أناس تقوم بتوجيههم بعض دول البترول، وما أدراك ما البترول، وأثره على ضعاف النفوس والضاربين عرض الحائط بالقيم الكبرى التى تدور أساساً حول ضرورة المحافظة على وحدة المجتمع. هل تصدقون أيها القراء الأعزاء أننا ما زلنا نتحدث عن نظام الخلافة. ما زلنا نعتقد بأن الفكر العربى المعاصر يتمثل فى حسن البنا وسيد قطب. ما زلنا نخلط بين الدين والعلوم وبحيث نتحدث عن أسلمة العلوم، دون أن نضع فى اعتبارنا أنه لا يوجد ما يسمى بعلم إسلامى، وعلم غير إسلامى، بل إن العلم هو العلم. لا يوجد ما يسمى اقتصاد إسلامى، واقتصاد للكفار، فعلم الإقتصاد هو الإقتصاد. هل من المعقول ونحن فى عصر العلم أن نجعل بعض مناهجنا تدور حول ما يسمى بالأصولية، دون أن نضع فى اعتبارنا صلة ما يسمى بالفكر الأصولى، بكل أنواع الحركات المتطرفة، والتخلف العقلى.

إن العيب ليس فى الدين، ولكن فى الفهم الخاطئ للدين. لقد قاد الدين شعوب العالم نحو المثل العليا والقيم الرفيعة الخلاقة، فإذا وجدنا خللاً، فإن الخلل يتمثل فى الأقلام التى توجهها بعض الدول التى لا يهمها إلا إثارة القلاقل والفتن، بحيث يكون بترول تلك الدول كالبوصلة التى توجه الإنسان إلى معرفة اتجاهه.

نعم نحن فى أمس الحاجة إلى وضع خطة تنويرية تماماً كما نضع خطة للتنمية الإقتصادية. ولا تنوير بدون نشر مبادئ الحضارة الغربية، وليت مصر تصبح قطعة من أوربا، تنوير يستمد جذوره من مبادئ وضعها رجال سياسة آمنوا بأهمية التنوير كمحمد على باشا، واسماعيل باشا، ومن رموز الثقافة الحرة أمثال طه حسين وتوفيق الحكيم وزكى نجيب محمود. ونقصد بالثقافة الحرة، الثقافة التى لا تتقيد بقيود الزمان والمكان، وتجعل الإنسان المصرى كائناً تنويرياً بعيداً كل البعد عن ثقافة الظلام وطريق الضياع. كائناً بعيداً كل البعد عن نزعات التطرف، ومنفتحاً على كل التيارات العالمية، بما تتضمنه من فنون وآداب. أما إذا حصرناه فى ثقافات مظلمة محلية تقليدية، فإنه سيصاب بالإختناق ثم الموت. وارجعوا إلى بعض كتب التراث وستجدون فيها أحياناً عدداً من الخرافات قد يزيد على عدد سكان الدول العربية.

إن مصر لها دورها الحيوى والعظيم، والعالم ينتظر منها الكثير. ومحاولة بعض متخلفى العقول، تمزيق وحدتها عن طريق أقلامهم المسمومة والمشبوهة، يجب التصدى لها بكل حسم وقوة. ولا طريق للتصدى إلا عن طريق الكلمة، فأفسحوا أمام أهل التنوير مساحة كتلك المساحة التى تخصص الآن للأسف الشديد لأنصار الفكر الرجعى والذين يتحدثون عن الغزو الثقافى، وستجدون مصر فى طليعة دول العالم المتحضر.

إن الطريق إلى الوحدة الوطنية ليس طريقاً صعباً كما يتصور الكثيرون. إن مصر طوال تاريخها لم تعرف إلا فى أوقات قليلة جداً ومتباعدة، ما يسمى بالفتنة الطائفية. نعم إنه طريق سهل إذا وضعنا فى اعتبارنا الإستفادة من المؤتمرات الخاصة بالحوار بين الأديان والتى أحرص على حضور أكثرها. إنها مؤتمرات تؤكد التجرد تماماً من التعصب الذى يسئ إلى سماحة الأديان السماوية وضرورة الحرص على حق

البشرية فى أن تعيش فى سلام دائم، وأن يدرس الشباب أفكار وقيم الأديان الأخرى المنزلة. طريق سهل لأننا نجد الآن من رجال الدين أناس آمنوا بوطنهم وربهم وتجردوا من المصلحة الخاصة ووضعوا مصلحة وطنهم فوق كل اعتبار.

إن محاولة المساس بالوحدة الوطنية، تعد كالخنجر المسموم. وكيف نتصور مجتمعاً واحداً يتقاتل فيه أبناؤه. إن كلمة الأمة، من الأم، فينبغى إذن أن تكون علاقة الفرد بأمه أو وطنه أو مجتمعه، كعلاقته بأمه. والمعتنق لأى دين من الأديان المنزلة، له نفس حقوق الفرد الذى يعتنق ديناً آخر. له الحق فى السلام، فى التعليم، فى المساواة، ولنحذر شرور التفرقة والفتنة، وما أدراك ما التفرقة، وما الفتنة. فلندرس التاريخ جيداً حتى وقتنا الحالى، وسندرك جيداً أن أسرع الطرق إلى الهلاك، إنما هى محاولة ضرب الوحدة الوطنية. أسرع الطرق إلى الهلاك، هى الطرق التى تتمثل فى أفكار الجماعات الدينية المتطرفة، جماعات التكفير والهجرة. وهل من المعقول أن نقف عند فكر هذه الجماعات التى تعبر عن تخلف عقلى، ونترك أفكار المجددين من رجالنا كأحمد لطفى السيد وسلامة موسى.

إننا أمام طريقين لا ثالث لهما، طريق النور وتقديس العقل والإنفتاح على كل الثقافات. وطريق الظلام والسخرية من العقل وتقديس التراث. أعتقد أنه لا أحد فينا به ذرة من العقل، وبحيث يكون حيوانا ناطقا أى إنساناً، يرتضى لنفسه الطريق المظلم، الطريق المسدود، طريق الضياع والهوان.

وإذا ارتضينا لأنفسنا الطريق الأول فينبغى علينا إذن النظر إلى المواطن من خلال أدائه واجباته والإلتزام بحقوقه ينبغى علينا استئصال كل فكر رجعى متطرف نجده فى وسائلنا الإعلامية. إن صاحب الفكر الرجعى المتطرف لا يصح أن يكون مواطناً وبحيث نتيح له نشر أفكاره التى تؤدى إلى الفرقة بين أبناء الوطن الواحد. نقول بهذا وأمامنا مجموعة من المقالات

السـوداء التى إن أدت إلى شئ، فإنما تؤدى إلـى تحقيـق مصـالح أعـداء الوطن. وإذا كنا جميعاً نسلم بالأثر البالغ للوسائل الإعلاميـة مـن صحافـة وإذاعة وتليفزيون، وخطرها العظيم، أى أثرها العميق، فينبغى إذن من خلالها نشر روح التسامح والعدل الإجتماعى. إن تكثيف البرامج والأحـاديث التـى تدور حول قضايا تجديدية، أفضل ألف مرة من الأحـاديث والـبرامج التـى تغرس روح الفتنة فى النفوس وتتخفى تحت شعارات دينية، والدين منها براء.

يجب أن ندرك أن مشكلة التلوث لا تقتصر على الجوانب المادية كما نتحـدث عن تلوث الهواء والأغذية مثلاً، بل أخطر من هـذا النـوع مـن التلـوث، التلوث الخلقى، هذا التلوث الذى يعد معبراً عـن غـرس الفتنـة الطائفية فى نفوس أبناء الوطن الواحد. لقد أدرك خطر هذا التلوث مفكـرون كبار . ولنستمع إلى "تاراجوتا" المفكر الأسبانى وهو يقول فى كتابه: نظرة فى مستقبل البشرية وهو من أهم ما صدر من كتب فى السنوات الأخيرة: الخطر العظيـم الذى نواجهه اليوم لا يكمن فقط فى تلوث البيئة التدريجـى، وإنمـا أيضاً فى تلوث عقل الإنسان.

وإذا كان من الواجب على وسائل الإعلام أن تبتعد تماماً عن كل مـا له صلة بالتلوث الخلقى، فإن ذلك يعد أيضاً واجباً على مدارسنا وجامعاتنا. إن دستوراً فكرياً ممتازاً يمكن أن نستخلصه لأبناء أمتنا من كتاب مثل مسـتقبل الثقـافة فى مصر لطه حسين، وكتاب كتجديد الفكر العربى لزكـى نجيـب محمود. ويوم أن تشيع هذه الأفكار فى نفوس وعقول أبناء أمتنا، فلـن نجـد إقلالاً من أهمية الوحدة الوطنية ولا حديثاً عن الفتنة الطائفية.

ويقينى أننا إذا وضعنا فى اعتبارنا أن التربية يجب أن تكون من أجل المستقبل، ومن أجل نقل الإنسان من الحرب إلى السلام، ومن التمسك بالتراث والبكاء على الأطلال، إلى تقديس العقل ونشر العلم، ومن التبعية إلى التقـدم، والربط بين القدرة العقلية والضمير، أى الإلتزام بـالحقوق والواجبـات مـن

جانب كل مواطن، فإن هذه كلها عوامل تؤدى إلى التمسك بالوحدة الوطنيـــة. عوامل تكون معبرة عن النور وساعية إليه، وبعيدة كل " عد عن العمل فـــى الظلام، العمل على تفتيت الوحدة الوطنية ونشر الفتنة الصنفية. وخيراً فعلنـــا فى مصر حين منعنا قيام أحزاب دينية، وفصلنا بين الدين والسياسة. ولكـــن ماذا نفعل لصغار النفوس ومن ماتت فيهم ضمائرهم، حين يقومـــون بنشـــر أفكار تعد ظلاماً فى ظلام. أفكار تهدف إلى العودة بنا إلـــى العصر الحجرى. إن مصر فوق الجميع، والمحافظة على وطننا دين فى أعناقنا جميعاً وبصرف النظر عن الدين الذى يعتقد به كل فرد منا. فلنحاول إذن القيام بمراجعة شاملة لكل المجالات التى تدخل فى إطار وسائل الإعلام والمناهج فـــى المـــدارس والجامعات ولنحذف تماماً كل فكر رجعي يؤدى بطرقه الملتوية إلى غـــرس الحقد فى النفوس، والفتنة فى الشعور والوجدان. هذه الطرق الملتوية لا يسمح بها شرع ولا دين، وإن كان أكثرهم لا يعلمون.

نعم إن الطريق إلى الوحدة الوطنية يعد طريقاً سهلاً ممـــهداً وذلـــك بشرط أن تكون لدينا الجرأة فى اتخاذ القرارات ومتابعة تنفيذها. فـــهل مـــن المعقول أن يتحدث بعضنا وممن فى نفوسهم مرض وهـــوى، عـــن الدولـــة الدينيـــة. ما المقصود بالدولة الدينية وهل نريد لمصرنا العزيزة أن تتخلى عن أمجادها فى الماضى، وتلحق بركب دول متخلفة وتتخذ من الإسلام ستاراً لكل المفاسد فى المجتمع.

ولابد أن نضع فى اعتبارنا أيضاً التركيز على الأعمال الشامخة التى قام بها المسلمون والمسيحيون معاً. فإذا وجدنا فلاسفة مسلمين فى الحضـــارة العربية، فإن الفضل فى ذلك يرجع إلى وجود حركة الترجمة وازدهارها على يد النصارى أساساً. وبالمثل يمكن أن نركز على مدى استفادة الأوروبيين من نعرب فى العصر الوسيط، وهكذا. إن هذه الدروس تفيدنا كثيراً فى بيـــان أن

تاريخ أى وطن إنما يمثل المشاركة بين أبناء الوطن الواحد وبصرف النظر عن الخلافات بين الأديان.

وبقدر ما نجد لدينا من مجلات وصحف وبرامج إذاعية وتليفزيونية تركز أساساً على الجانب الدينى، فلابد فى المقابل أن نشجع إنشاء الصحف والمجلات التنويرية. أقول هذا نظراً لأن تاريخ مصر المعاصر يبين لنا أن حركات التطرف الدينى لم تكن موجودة فى ماضى مصر البعيد، بل القريب نظراً لوجود صحف ومجلات تنويرية لا حصر لها كالكاتب المصرى، أعظم مجلة فى التاريخ الفكرى المصرى، والمؤيد والمقتطف وغيرها من صحف ومجلات.

وإذا وجدنا أناساً يقومون باستغلال البرامج الإذاعية والتليفزيون لنشر فكرهم المريض والمتطرف، فإننا نقول لهم: لكم دينكم ولنا دين.

أما الخرافات التى نجدها فى مناهجنا وفى وسائلنا الإعلامية، فإنها تؤدى بطريقة مباشرة أو غير مباشرة إلى تفتيت الوحدة الوطنية. فكم من حملات هوجاء يشنها بعض أصحاب كتب التراث على من يؤمنون بدين آخر. كم من المحاولات التى تسعى إلى استخراج النظريات العلمية من الآيات القرآنية، وهى محاولات فاشلة قلباً وقالباً، بل فيها إساءة إلى ديننا الحنيف لأن الدين ثابت، والعلم متغير، فكيف نلحق الثابت بالمتغير. أذكر أن عالماً كبيراً من علماء الجغرافيا فى مصر، قام بتدريس الجغرافيا بدولة من الدول البترولية والتى ما زال بعض رجالها يعتقدون بأن الأرض ثابتة وليست متحركة. وقد ذكر لى هذا الأستاذ أنه اضطر لتعليم الطلبة الحقائق الجغرافية، بأن ينسبها إلى الكفار. فيبدأ محاضرته قائلاً: يقول الكفار والعياذ بالله، إنّ الأرض متحركة. وهكذا إلى آخر الأمثلة.

نقول ونكرر القول بأننا يجب أن نركز على الأسباب البعيدة والتى قد تبدو للبعض لا صلة بينها وبين الفتنة الطائفية، ولكننا نعتقد أن البحث فى

الجذور أفضل من الوقوف عند الحوادث الجزئية المتفرقة والمبعثرة. نقـــول باستمـــرار إننا يجب أن نحذر من محاولات البعض اســـتغلال الديـــن فـــى ضرب الوحدة الوطنية، وخاصة أننا لا نجد فى الإسلام مـــا يســمى برجــل الدين.

ويقينى أننا لو اجتهدنا بكل قوتنا ومن خلال عقولنا ووجداننـــا، إلـــى غرس روح التنوير فى كل قنواتنا الفكرية والإعلامية، فإننا لن نجد مســـتقبلاً ما يسئ إلى وحدتنا الوطنية، لن نجد ما يسمى بالفتنة الطائفية. فمصـــر منـــذ آلاف السنين يعيش فوق أرضها أبناء الديانات كلها، ولا مكان بمصـــر لمـــن يتاجر بالدين ويقوم باستغلاله لتحقيق مآرب شخصية. إن معظم النـــار مـــن مستصغـــر الشرر. ووطننا أمانة فى أعناقنا. ولا خير فى مواطـــن يكتفـــى بإقامـــة الشعائر الدينية دون أن يجعل سلوكه معبراً عن الدين فى جوهـــره. لا خير فى مواطن يقحم الدين فى موضوعات لا صلة بينـــها وبيـــن الديـــن. فلنتجه إذن إلى إقامة الوطن الواحد، الوطن الذى يؤمن فيه كل مواطن بربـــه ووطنه. الوطن الشامخ الذى يكون معبراً عن تقديس العقل ورفع راية التنوير وعن السماحة بين أبناء الديانات المتعددة، وذلك حتى تحتل مصـــر مكانتـــها المرجوة منها بين دول العالم شرقاً وغرباً.

(٣)

الكتاب الدينى وتيار العصر والحضارة

" إذا كان انتشار تأليف الكتب الدينية يعد ظاهرة يغلب عليها البعد الفكرى، فحينئذ وجب علينا لكى نحاول سبر أغوارها ومعرفة أبعادها الحقيقية، النظر إليها من خلال تيار العصر والحضارة، ومن خلال علاقتها بالظواهر الأخرى".



(٣)
الكتاب الدينى وتيار العصر والحضارة

المتأمل فى اتجاه حركة التأليف سواء فى مصر أو فى بقية البلدان العربية، يلاحظ فى الفترة الحالية وما قبلها بقليل، أى منذ منتصف القرن العشرين على وجه الخصوص ظاهرة من الظواهر الهامة التى تسترعى الإنتباه، وهى كثرة المؤلفات الدينية بصورة قد لا نجد لها مثيلاً سواء فى النصف الأول من القرن العشرين أو ما سبق هذا القرن.

ويمكن القول بأننا إذا أردنا تفسير هذه الظاهرة والبحث عن مغزاها ومدلولها وأسبابها الحقيقية، فلا يصح أن ننظر إليها كظاهرة معزولة عن غيرها من الظواهر، بل لابد من النظر إليها من منظور ارتباطها بتيار العصر والظواهر الأخرى التى ترتبط بها من قريب أو من بعيد. نعم لابد أن نفعل ذلك فى دراستنا لأى ظاهرة من الظواهر السياسية والإجتماعية والفكرية. فتلك الظواهر لا تنشأ فجأة أو طفرة، لا تجيئ معزولة عن عصرها وما سبقه من عصور. وإذا كان انتشار تأليف الكتب الدينية يعد ظاهرة يغلب عليها البعد الفكرى، فحينئذ وجب علينا لكى نحاول سبر أغوارها ومعرفة أبعادها الحقيقية،النظر إليها من خلال تيار العصر والحضارة، ومن خلال علاقتها بالظواهر الأخرى.

وأجد واجباً علىّ قبل ذكر مجموعة من أسباب انتشار التأليف فى مجال الدين، أن أشير إلى أن الإكثار من المؤلفات الدينية يعد ظاهرة صحية. فنحن أحوج ما نكون إلى الدين فى كل زمان وفى كل مكان. ولكن الخطر يكمن فى أن البعض يدفعه التسرع وعدم التعمق فى الدين بالإضافة

إلى المكاسب المادية نتيجة كثرة التوزيع، إلى بث الكثير من المعلومات الخاطئة بين ثنايا الكتب التى يقوم بتأليفها، بل يقوم بعض المؤلفين للكتب الدينية بنشر دعوات خاطئة قلباً وقالباً كالسخرية من العلم والعقل والحضارة الحديثة من جهة، وإثارة التعصب المذموم وتشجيع التقليد من جهة أخرى ولا يدرى هؤلاء أنه بدون العلم والحضارة لما كان بإمكانهم طبع كتبهم، إذ أن المطبعة ثمرة من ثمرات العلم والحضارة. لا يدرى هذا الفريق أن الدين يحث على التأويل العقلى والإجتهاد. وهكذا إلى آخر الأمثلة التى نرجو أن يتخلص منها الكتاب الدينى حتى يكون معبراً بحق عن روح إيجابية عميقة غاية العمق وثرية غاية الثراء ونعنى بها روح التدين.

أما إذا تساءلنا عن أسباب كثرة المؤلفات الدينية وازدياد توزيعها، فإنه يمكن القول بأن من أبرز تلك الأسباب ما يلى:

١- تؤدى حركة الإستشراق عادة إلى نشاط الكتاب الدينى تأليفا وتوزيعاً. إذ أن المستشرقين قد اهتموا بالدراسات الدينية وذهب البعض منهم إلى إطلاق أحكام خاطئة والإعتقاد بآراء ليس من الضرورى أن تكون صحيحة، فلابد إذن أن يقوم علماء آخرون بالرد عليهم والكشف عن أخطائهم. وهكذا يمكن القول بأن حركة الإستشراق ترتبط برواج حركة تأليف الكتاب الدينى.

٢- إزدهار الحضارة الحديثة والتى قد تعد تعبيراً عن الجانب العلمى المادى إلى حد كبير، لابد أن تؤدى بالإنسان إلى البحث عن البعد الآخر، البعد الذى يعد تعبيراً عن الثراء الروحى، أى الجانب الدينى. فالإنسان قد شعر بضياع ذاته فى خضم المادة وقسوتها . فالحل إذن هو أن يقوم من جانبه برد فعل. ورد الفعل يتبلور إلى حد كبير حول البحث عن الدين، أى أن يلقى بنفسه فى أحضان الدين وذلك حتى يقف التيار الروحانى جنباً إلى جنب مع التيار المادى.

٣- يعد الإنسان العربى بطبيعته إنساناً متديناً، فلابد لكى يجد ذاته ويحقق طبيعته، أن يقبل على الكتب الدينية. والدليل على ذلك أن حركات التجديد وحركات الأصالة والمعاصرة ترتبط فى كثير من أبعادها بالجانب الدينى لا بالجانب العلمانى. وليرجع القارئ إلى المحاولات التجديدية عند محمد إقبال والكواكبى ومحمد عبده وطه حسين، وسيجد أن تلك المحاولات كلها تعد تعبيراً فى جانب أو أكثر من جوانبها عن بعد أو منظور دينى. وهذا يعد شيئاً طبيعياً ومتوقعا لأنهم يقدمون دعواتهم التجديدية لمجتمعات تعيش فى ظل الحضارة العربية. والحضارة العربية تعتمد اعتماداً رئيسياً على تعاليم الدين. والدليل على ذلك، الإنتاج الفكرى الذى تركه لنا المفكرون والفلاسفة والأدباء.

٤- اهتمام أجهزة الإعلام من صحافة وإذاعة وتليفزيون فى البلدان العربية بصفة خاصة بالبرامج الدينية وبالكتاب الدينى. إنَّ هذا الاهتمام يدفع إلى البحث عن الكتاب الدينى والتعرف على ما فيه من أفكار.

٥- أكثر مسابقات الشباب تدور حول محاور دينية وهى تتمثل إما فى قراءة الكتب الدينية موضوع المسابقة وإما فى الإجابة عن أسئلة تدور حول موضوعات دينية ومن هنا فلابد من نشاط الطلب على الكتاب الدينى.

٦- وجود كثير من الجمعيات والهيئات الدينية فى كثير من قارات العالم كالقارة الإفريقية والقارة الأسيوية. ولا شك أننا نعلم جميعاً أن تلك الهيئات ترسل إليها آلاف الكتب الدينية.

٧- انتشار الجامعات الإسلامية والمعاهد الدينية فى كل بلدان العالم العربى شرقاً وغرباً وخاصة فى الفترة الزمنية الحالية. ولا شك فى حاجة الجامعات الإسلامية وعلى رأسها جامعة الأزهر بكلياتها العديدة ككلية أصول الدين وكلية اللغة العربية، إلى الكتاب الإسلامى وخاصة إذا وضعنا فى الإعتبار آلاف الطلاب الذين يلتحقون بهذه الكليات والمعاهد.

وضعنا في الإعتبار أيضاً أن الهدف الرئيسى الذى تسعى إليه تلك الكليات هو التعليم الدينى. وإذا وجدنا علوماً إنسانية تدرس فى تلك الكليات كالتاريخ والفلسفة، فإنها لا تدرس فى حد ذاتها، بل تدرس من خلال الإطار الدينى وهذا من أشنع الأخطاء لأن العلوم الإنسانية غير العلوم الدينية.

ومن هنا يكون قد اتضح لنا وجود أسباب عديدة وراء انتشار حركة التأليف بالنسبة للكتاب الدينى وكيف أن تلك الأسباب تتصل اتصالاً مباشراً بتيار العصر والحضارة كما أن لها إيجابياتها وسلبياتها ومخاطرها.

(٤)

الرؤية القبطية فى الثقافة المصرية والعربية

"إن التعرف على معالم ثقافتنا الحديثة والمعاصرة وتحليل جذورها وسبر أغوارها لا يمكن تصوره إلا من خلال إخوتنا فى الوطن والإنسانية. ومن يتغافل عن ذلك فوقته ضائع عبثاً، وسيظل خارج ثقافتنا الحقيقية، سيبقى فى الفناء، حتى يدركه الفناء".

(٤)
الرؤية القبطية فى الثقافة المصرية والعربية

قد لا أكون مبالغاً إذا قلت بأننى لا أتصور مثقفا مصرياً أو عربياً إلا ويكون قد وضع فى اعتباره تحليل الأعمال الرائـــدة والشامخـــة، الأعمـــال الفكرية لإخواننا المسيحييـــن الذين آمنوا بربهم ووضعـــوا فـــى اعتبـــارهم مصلحة الوطن فوق كل اعتبار. كيف نتصور ثقافة مصرية إذا تغافلنا عـــن الحـــديث عن البصمات البارزة والظاهرة لهؤلاء المفكرين الكبـــار والذيـــن دعوا إلى نشر أسس الثقافة الإنسانية الرفيعة فى كل مجال من مجالاتها أدبـــاً كان أو فلسفة. هل يمكن التأريخ للحياة الفكرية فى مصر وسائر بلدان العـــالم العربى دون أن نضع فى الإعتبار المجهودات النظرية والجوانب العملية التى قـــام بتقديمها وتحقيقها إخوة لنا فى وطننا العربى العزيز، أشقاء لنا فى رحلة الحياة والمصير؟ كلا ثم كلا، فتاريخ فكرنا الحديث والمعاصر يفخـــر بغـــير حدود بالإنجازات الرائعة والتى من واجبنا أن نفخر بها ونقدرها حق قدرها.

إن الحديث عن دور الأقباط فى الثقافة بمعناها الواسع الشامل، يحتاج منـــا إلى مجموعة من المجلدات، فأعمالهم لا يستطيع إنكارها إلا كل جـــاهل أو متعصب أو ضيق الأفق. هل نستطيع أن نتغافل عن دورهم القومـــى فـــى منطقة الشرق الأوسط من تعليم ونشر ثقافة وإنشاء صحف ومجلات رفيعـــة المستوى وإسهام فى تأسيس الجامعة المصرية ونشر للفكر السياسى (أخنـــوخ فانوس، إستر فهمى ويصا، أبسخيرون، مكرم عبيد، جورج خياط، روجينـــا خياط) وتأريخ للفلسفة طوال عصورها (يوسف كرم)

بل إن من يطالع المجلد الكبير والذى يعد دراسة توثيقية بعنوان: "الإنجيليون والعمل القومى"، سيجد واجبا عليه الإعتراف بالدور الرائد والحيوى الذى أداه وما زال يؤديه أخوة لنا فى الوطن، وذلك فى المجال الثقافى والإجتماعى والسياسى، مجال الحرب والسلام، مجال الحوار بين الأديان، ميدان غرس الروح الوطنية ونشر مبادئ المحبة والأخوة. وهل يمكن أن نقلل من الدور الإيجابى الذى يقوم به معاصرنا الدكتور القس صموئيل حبيب، والذى يعد شعلة نشاط ليس فى مصر وحدها، بل فى أكثر بلدان العالم شرقا وغربا.

إن التعرف على معالم ثقافتنا الحديثة والمعاصرة وتحليل جذورها وتحليل وسبر أغوارها لا يمكن تصوره إلا من خلال أخوتنا فى الوطن والإنسانية. ومن يتغافل عن ذلك، فوقته ضائع عبثا، وسيظل خارج إطار ثقافتنا الحقيقية، سيبقى فى الفناء حتى يدركه الفناء. أسماء كثيرة ولا حصر لها كما قلت نجدها فى تاريخ ثقافتنا بمعناها الواسع. صحيح أننا من جانبنا قد نتفق معهم تارة ونختلف تارة أخرى، ولكن هذا يعد من الأمور المنطقية والطبيعية.

نعم لقد بذلوا جهدا كبيرا يستحق الفخر والثناء، وكانت أفكارهم خالية من روح التعصب والفتنة الطائفية. كانت ثقافتهم موسوعية وتدعوا إلى فتح النوافذ أمام كل التيارات الفكرية فى العالم كله شرقا وغربا لأنهم أدركوا أن من يحصر نفسه داخل جدران أربعة سوف تكون ثقافة محلية الطابع، ثقافته راكدة فاسدة، ثقافة لا تملك لغة الحوار مع الثقافات الأخرى.

لقد وضعوا فى اعتبارهم أن الثقافة العربية الجادة منذ قديم الزمان لم تتشكل إلا بعد أن حدث اللقاء السعيد بين الفكر الغربى اليونانى، والفكر العربى. وهذا اللقاء السعيد قام به فى الأساس مجموعة كبيرة من النصارى والذين أقبلوا على الترجمة، ترجمة أمهات الفكر اليونانى من اللغة اليونانية

والسريانية إلى اللغة العربية. ولولا مجهوداتهم لما أمكـــن لعلمـــاء العـــرب وفلاسفة العرب، التعرف على ثمار العقلية اليونانية، وخاصـــة أننـــا لا نجـــد فيلسوفا عربيا في المشرق أو في المغرب العربي كـــان علـــى علـــم باللغـــة اليونانية، كما لا نجد علما عربيا بالمعنى الدقيق لكلمة العلم إلا ابتـــداء مـــن العصر العباسي، العصر الذي يمثل الإهتمام الفائق بالترجمة والتعرف عـــل فكر الآخرين.

وما نجده من أفضال لهم على ثقافتنا قديما، نجده حديثـــا. ألا يكفيـــهم فخرا أننا لا نجد واحدا منهم، كان من أشباه المثقفين وأنصاف المثقفين. أليس مما يجعلنا نعتز بمجهوداتهم ابتعاد كل واحد منهم عن ثقافة "البتروفكر"، الفكر الزائف، الفكر الرجعي. هل يمكن أن ننسى مجهودات الأنبا غريغوريـــوس، ووليم سليمان قلادة وميشيل باخوم ونسيم مجلي وفخري قســـطندي وانجيـــل بطرس وفرح أنطون وفيليب خوري حنا وحناخباز وجرجي زيدان وســـلامة موسى ولويس عوض وسامي جبرة وسامي عزيز وخليل صابـــات ومجـــدي وهبـــه ومراد وهبه ويعقوب صروف وبول غليونجي والذي يعد كتابه عـــن ابن النفيس أفضل ما كتب بالعربية عن هذا الطبيب وبحيث لا نجـــد دراســـة أكاديمية واحدة عن ابن النفيس تكاد تقترب من هذا الكتـــاب، لأن الدراســـات الأخرى إنما تعتمد على المبالغة والخطابة والإنشاء، والأب متـــى المســـكين، والدكتور زكريا إبراهيم، وفوزي متري نجار وغيرهم من مئـــات الأســـماء والشخصيات البارزة والتي وضعت بصماتها البارزة على مسار فكرنا العربي الحديث، وذلك بصرف النظر عن اتفاقنا أو اختلافنا معهم في بعض الآراء.

وإذا كنا نتحدث عن دور الثقافة القبطية في بلورة العديد مـــن أفكـــار سائر المفكرين، فإنه من الضروري الحديث عن مفكر شامخ كان خير ســـفير فكري لمصر في العديد من بلدان العالم شرقاوغربـــا، وهـــو الأب الدكتـــور جورج شحاتة قنواتي والذي رحل عنا في الثامن والعشرين من يناير منذ عدة

أعــوام بعد أن ملأ بقاع الأرض علماً ونوراً ومعرفة وكان خير أستاذ لأجيال من الدارسين والباحثين والمفكرين. لقد ترك لنا الرجل آلاف الصفحات التــي نبهتنا إلى عوالم كانت مجهولة بالنسبة لنا. ويقيني أن كتاباتـــه عـــن تراثنـــا القديم،وفكرنا العربى المعاصر أيضاً ستظل محفورة بالأذهان. إن هذا العــــالم الذى ولد بالإسكندرية كان يعتز بمصريته وعروبته وذلك عن طريق الإهتمام بالثقــافة المصرية القديمة منها والحديثة، والثقافــة العربيــة أيضــاً طــوال تاريخها. كتب آلاف الصفحات عن أكثر مفكرينا العرب كابن سينا فيلســـوف المشرق العربى، وابن رشد رافع لواء العقل فى كل زمان وكل مكان، وأبـــى بكر الرازى أعظم طبيب عرفته حضارتنا العربية . وكانت أسئلته التى وجهها إلى توفيق الحكيم فى حوار معه خير مرشد لنا فى التعرف على حقيقة فكـــر أديبنا العملاق توفيق الحكيم.

وكم أسهم جورج قنواتى فى الحوار بين الأديـــان، وكـــانت كتاباتـــه معبرة عن روح المحبة والتسامح وضرورة الإنفتـــاح علـــى كـــل التيـــارات والأفكار العالمية. كان العقل المدبر والمحرك لنشـــاط الآبـــاء الدومينيكـــان ومكتبتهم الكبرى والتى تعد أفضل مكتبات الشرق الأوسط، تلك المكتبة التـــى توجد داخل الدير، والتى كانت وما زالت المدرسة الكبرى التى تخرج منـــها مئات من الباحثين والمفكرين، وكم وجهت كل تلاميذى إلى الاســـتفادة مـــن كنوز هذه المكتبة الكبرى بعد أن قضيت بالدير خمس سنوات مستفيداً من علم مفكرنا الشامخ الأب قنواتى.

وهل يمكن أن ننسى الأثر البالغ للأب قنواتى فـــى لجـــان المجلـــس الأعلى للثقافة، والمجمع العلمى المصرى والمجلس البابوى للثقافة بالفاتيكان، والمجمع الخاص بالمؤمنين غير المسيحيين بالفاتيكـــان، وعشـــرات اللجـــان والمجالس الأخرى، بالإضافة إلى أنه كان نجم مصر الســـاطع فـــى مئـــات المؤتمرات المحلية منها العالمية.

وكم حاول الأب قنواتي بدافع من روح المحبة والتسامح والإخاء بين الأديان، الكشف عن الأسس المشتركة بين الإسلام والمسيحية، ودافعه إلى ذلك القضاء على التعصب الذميم ، والإبتعاد عن كل ما يتعلق بالفتنة الطائفية من قريب أو من بعيد. إنه يمثل خير تمثيل الرؤية القبطية فى الثقافة المصرية والعربية، ولم لا؟ وهو الذى يتحدث بموضوعية بعيدة تماما عن روح التعصب، عن أسس ثقافتنا المشتركة فى الإسلام والمسيحية.

وليرجع القارئ العزيز إلى كتاب له بين عشرات الكتب ومئات البحوث التى كتبها، ونعنى به كتاب المسيحية والحضارة العربية[1] إنه يكشف من خلال فصول هذا الكتاب الرائع عن أثر المسيحية فى الجزيرة العربية قبل الإسلام، والمسيحيون فى بغداد، وشعراء العرب والأطباء والصيادلة من المسيحيين وأثرهم فى بلورة الثقافة العربية. فهو يقول: لكى نفهم كيف استطاع المسيحيون أن يعيشوا فى إطار الحضارة الإسلامية والعربية ويشعروا أنهم من لحمتها وسداها وأنهم ليسوا غرباء عنها، بل من العناصر الفعالة فى تشييد الحضارة العربية ومساعدة إخوانهم المسلمين لصيانة عقائدهم فى مختلف ميادين العلوم ومقتضيات الحضارة، فلابد أن نضع فى اعتبارنا وجود أسس مشتركة بين الديانتين من بينها الإعتقاد بإله واحد خالق السموات والأرض وكل ما يرى وما لا يرى، وأن وجود الله يثبته العقل ويؤكده الوحى. فقد أقام علماء الدين المسيحيون والمسلمون براهين شتى مختلفة ولكنها متشابهة لإثبات وجود الله. وتحث الكتب المقدسة على التأمل والإعتبار فى آيات الله الكونية والنفسية.

والواقع أن الحديث عن الرؤية القبطية فى الثقافة المصرية والعربية، يعد موضوعا بالغ الأهمية وخاصة فى عصرنا الحالى، العصر الذى امتزجت

[1] راجع الفصل الذى كتبناه عن الأب جورج قنواتي، وتحليل هذا الكتاب، فى كتابنا: العقل والتنوير فى الفكر العربى المعاصر – دار قباء – القاهرة.

فيه ثورة العقل بهدوء النفس والروح، العصر الذى يدعونا إلى النظـــر إلـــى الثقـــافة من منظور الإنسانية والعالمية، وليس مـــن منظـــور التفرقـــة بيـــن أصحاب دين، وأصحاب دين آخر. لقد أصبح الكل فى واحد، وبحيث يســـعى الجميع إلى إرساء دعائم الفكر الحر المستنير، الفكر الإنسانى والذى يتخطـــى حدود الزمان وحدود المكان أيضا، بحثا عن الخالد والأزلى، وبحيث يقول كل واحد فى كل دين: هذه آثارنا تدل علينا، فانظروا بعدنا إلى الآثار. والعـــبرة ليست في الخلاف، بل فى المحبة والوئام والإتفاق، لأن الفكر نسيج يشـــارك في خيوطه أصحاب كل دين من الأديان.

(٥)

طائر الحب والحوار بين الأديان
يحلق فى سماء إيطاليا

[حول المؤتمر العالمى للسلام بين الأديان
المنعقد بمدينة أسيزى بإيطاليا]

"إن عالمنا المعاصر فى أمس الحاجة إلى مؤتمرات السلام بين الأديان، وخاصة بعد انتشار حالات الجهل والتخلف والتعصب، بالإضافة إلى انتشار حالات التجارة بالدين"

(٥)
طائر الحب والحوار بين الأديان
يحلق فى سماء إيطاليا

[حول المؤتمر العالمى للسلام
بين الأديان المنعقد بمدينة أسيزى]

قد لا أكون مبالغا إذا قلت بأن المؤتمر الذى أقيم مؤخرا بمدينة أسيزى Assisi بإيطاليا يعد واحدا من أهم المؤتمرات العالمية الفكرية والدينية والتى تم عقدها فى السنوات الأخيرة. وإن صح تقديرى فسيكون للحوار المتبادل بين أعضاء المؤتمر صداه البالغ وأثره العميق فى أكثر بلدان العالم شرقا وغربا. البلدان الإسلامية والبلدان المسيحية.

ولسنا فى حاجة إلى القول بأن عالمنا المعاصر فى أمس الحاجة إلى مثل تلك المؤتمرات وخاصة بعد ازدياد حالات التعصب و الجهل بطبيعة دين أو أكثر من الأديان المنزلة، بالإضافة إلى انتشار ظاهرة التجارة بالدين، وكأن الدين قد أصبح حرفة من الحرف كالزراعة والتجارة مثلا.

لقد أقيم هذا المؤتمر فى الفترة من ٢٤ أكتوبر حتى ٢٨ أكتوبر عام ١٩٨٨م تحت رعاية قداسة البابا يوحنا بولس الثانى، بابا الفاتيكان. ويمكننا القول بأن اختيار مدينة أسيزى لعقد هذا المؤتمر، كان اختيارا موفقا غاية التوفيق. إنها مدينة جميلة رائعة. مدينة تتسم بالسمة الدينية إلى حد كبير ويأتى إليها الناس سواء من داخل إيطاليا أو خارجها فرادى وجماعات لأنها

مدينة القديس فرنسيس الأسيزى Francis، وهو من هو – كما نعلم من سيرته – فى مجال التقوى والفضيلة وإشاعة روح السلام بين الأديان.

لقد سافرت الوفود المشتركة فى هذا المؤتمر من مدينة روما إلى مدينة أسيزى مكان المؤتمر، مؤتمر السلام بين الأديان. والطريق إليها من مدينة روما يستغرق ساعتين ونصف على وجه التقريب. ولن أحدثكم أيها القراء الأعزاء عن جمال مدينة روما وجمال مدينة أسيزى وجمال الطريق من روما إلى أسيزى، فالحديث لا يغنى بأى حال من الأحوال عن زيارة روما والفاتيكان وأسيزى. إن الناس يمشون فى هذه المدن وسط الجمال، والنظافة، والنظام. لقد كنا نقف متأملين فى بعض الأماكن ونشهد بعظمة الخالق تعالى. نشهد بقدرة الإنسان الذى سخر الطبيعة. وكنت أقول لنفسى: لعنة الله على كل من يتحدثون عن الغزو الفكرى، الغزو الحضارى. لعنة الله على كل من يهاجمون الحضارة الأوروبية بأقسى أسلحة الهجوم. كنت أقول لنفسى إن هذه الدعوات والإفتراءات والطبل الأجوف من جانبهم إنما تعد تعبيرا عن جهل، وجهل مركب لأنه جهل على جهل والعياذ بالله، وإن كان أكثرهم لا يعلمون.

شاركت وفود كثيرة فى هذا المؤتمر العالمى. وفود من مصر والمغرب وتونس والجزائر وموريتانيا بالإضافة إلى عدد من الأعضاء الأوروبيين الذين يقيمون بروما وترجع جنسياتهم إلى دول عديدة أخرى. والكل كان يعمل فى همة ونشاط. الكل كان يعمل دون كلل أو ملل. فجدية المؤتمر تبدو واضحة بارزة منذ اللحظات الأولى من وصولنا إلى أسيزى، بل منذ وصولنا إلى روما. جمع بين الوفود طائر الحب والسلام بين الأديان. شمل الجميع دافع البحث عن الحقيقة مهما تباعد الزمان، أو امتد المكان. كان الكل وكأنه يحمل مصباح "ديوجانس" سعيا وراء النور. كان

الجميع يقولون وداعا للجهل، وداعا للتعصب، ولتذهب هذه الأشياء إلى الجحيم وبئس المصير.

قلنا إن وفود دول عديدة قد شاركت فى هذا المؤتمر الدينى الفكرى الحضارى الهام . ومن بينهم على سبيل المثال من مصر، كاتب هذه السطور، ود. زينب محمود الخضيرى أستاذة الفلسفة بكلية الآداب - جامعة القاهرة، ود. نبيلة زكرى زكى من جامعة المنيا، والمهندس جورج عجايبى. ومن تونس السيد مكى بن سدرين Mekki Ben Sedrine والباحثة مونيك شفرلييه Monique de la Chevreliere والسيد يانكل مامادو Toussaint Yankal Mamadou ومن الجزائر المحامى رحال رضوان Redouane- Rahal والأستاذ شريف مصطفى Mustapha Cherif والباحثة سوزان مازيللا Suzanne Mazella وهى تعمل بمجال علم النفس الإكلينيكى والباحث بول فيزانت Paul Faizant. ومن المغرب الأستاذ قاسم زهيرى Kacem Zhiri وله العديد من المقالات والبحوث كما شارك خلال حياته فى الكثير من الأنشطة السياسية، والأستاذ بيوكلار Alain Beauclair والأستاذ جاما بيضا Jamaa Baida وهو يقوم بتدريس التاريخ فى مراحل التعليم العام ومن موريتانيا الشيخ محمد أولييه M. Fall O'eleya والأب ايفيو Per eveau. وأيضا شاركت ليبيا بوفد من جانبها فى المؤتمر.

ونود أن نشير إلى أن بعض هؤلاء الأعضاء يعمل بالدول التى قاموا بتمثيلها وإن كانوا يحملون جنسيات أخرى. كما أن بعض أعضاء المؤتمر يدينون بالعقيدة الإسلامية، وبعضهم الآخر يدين بالديانة المسيحية.

كما شارك فى المؤتمر عديد من الأعضاء ممن يعملون بروما ويحملون جنسيات مختلفة ومن بينهم الأب أندراوس سلامة Andraos Salama المصرى الجنسية والذى يعمل بالفاتيكان. والأب أندراوس يعد مثالا فى علمه وخلقه الرفيع. لقد كان وما يزال شعلة نشاط. يتمتع بروح هادئة ووديعة والإبتسامة لا تفارقه وله قدرة عجيبة على حل العديد من المشكلات التى

كانت تقابل أعضاء المؤتمر ومنها مشكلات علمية. ونظـــرا لأنـــه مصـــرى الجنسية ودائم التحدث عن مصر و الإشادة بفضلها وعظمتها فقد كان حريصا على استقبالنا بمطار روما منذ اللحظات الأولى لوصول الطائرة إلى الأراضى الإيطالية، الطائرة التى حملت أعضاء الوفد المصرى الـــذى يمثـــل مؤتمـــر السلام بين الأديان. وأيضا موريس بورمانس M. Bornnans. هذا الرجل الـــذى يعمل دون كلل ولا ملل وله قدرة على إدارة الحوار العلمى والتنســـيق بيـــن كلمـــات وحوار أعضاء الوفود. والباحث الممتاز الدقيـــق يوســـف خـــورى Joseph Khoury وله العديد من أوجه النشاط العلمى والفكرى البناء بكافة أنحاء إيطاليا وخاصة روما والكاردينال فرنسيس أريـــنزى Cardinal Francis Arinze والذى يعمل فى همة ونشاط يمكن أن يلحظها أى فرد وكـــــم أثـــرت آراؤه أوجه الحوار بيننا خلال المؤتمر الذى كان رئيسا له. والأب ميشيل فيتزجرالد Michael Fitzgerald والأب توماس ميشيل Thomas Michel.

كان العمل فى المؤتمر أقرب إلى الحوار، منه إلـــى إلقـــاء البحـــوث المطولة. كان لكل عضو من الأعضاء كلمة. هذا صحيح ولكن المناقشة كانت هى الطابع الغالب على جلسات المؤتمر. كنا نتحاور معا حـــول المشكـــلات الدينية والفكرية التى توجد فى كل بلدة من البلدان.كان الحوار يذكرنا باللغـــة الفلسفية، لغة الحوار السقراطى وما أعظمه وما أكثر فوائده من حوار.

استمر الحوار بيننا حتى نهاية المؤتمر. لقد خصص اليوم الأول، يوم الوصول إلى روما، للسفر إلى بلدة أسيزى ، بلدة الفن والتاريخ. وفى اليـــوم الثانى، أى الخامس والعشرين من شهر أكتوبـــر، وبعـــد كلمـــات الـــترحيب بالأعضاء، تم تبادل الأفكار بين أعضاء المؤتمر وذلك على مستوى كل وطن من الأوطان ولذلك خصص لكل عضو من أعضاء المؤتمـــر ربـــع ســـاعة للحـــديث وفى اليوم السادس والعشرين من شهر أكتوبـــر واصلنـــا الحـــوار

وتبادل الأفكار وتناقشنا معا فى كيفية حل الخلافات بين الأديان، وكيف يمكن التواجد معا رغم اختلاف الأديان.

وفى مساء هذا اليوم تم ترتيب زيارة لمدينة الفن والتاريخ، مدينة أسيزى لقد كان الترحيب بنا يفوق الوصف. كنا نسير فى شوارع المدينة ونعرف تاريخها، التاريخ العريق. كنا نتأمل فى جمال الطبيعة. الطبيعة التى تنعم بها أسيزى. تلك المدينة التى تقع على ربوة عالية جدا. لقد زرنا الكثير من الأماكن الدينية بالمدينة طالعنا كل شئ على الطبيعة. الطبيعة التى تعد خير كتاب. عرفنا الكثير من الخبرات الفكرية والثقافية بطريقة واقعية. ولم يكن فى استطاعة الفرد منا مهما زادت قراءاته النظرية، أن يكون لنفسه تلك الخبرات والمعارف. فصحيح إذن أن نقول إن الرحلات خير كتاب.

وقد تم ترتيب زيارة لرئيس مدينة أسيزى لقد كان حريصا على مقابلة أعضاء وفود المؤتمر. ورحب بنا غاية الترحيب. وكانت مقابلة ودية للغاية ظهرت فى الكلمات التى قيلت سواء من جانبه، أو من جانب بعض أعضاء المؤتمر، وكانت تدور أساسا حول تاريخ مدينة أسيزى من جهة، والتسامح بين الأديان من جهة أخرى.

كانت كلمات الوفد المصرى موفقة تماما. كنا نفخر بمصر أم الدنيا فى كل مكان ونركز على عظمتها الدينية والفكرية ودورها الخالد فى تاريخ الثقافة والفكر. فلا توجد عندنا بمصر مشكلات دينية حادة كالتى توجد فى أوطان أخرى كمشكلة الأقليات الدينية مثلا. كان أعضاء الوفود الأخرى لا حديث لهم إلا عن الكلمات الممتازة التى تم إلقاؤها من جانب أعضاء الوفد المصرى. كان حوارنا كمصريين مع أعضاء الوفود الأخرى وخلال جلسات المؤتمر وأثناء زيارتنا لأسيزى وسيرنا فى شوارعها، كان حوارنا معهم قائما على الأساس الفكرى ولهذا جاء ثريا غاية الثراء وعميقا غاية العمق.

أما فى اليوم السابع والعشرين من شهر أكتوبر، وهو اليوم الرابع من أيام المؤتمر فقد كان العمل فيه على نظام المجموعات وليس على نظام الحوار الشامل الواسع بين الأعضاء جميعهم. لقد تم تقسيم أعضاء المؤتمر إلى مجموعات وذلك على أساس أن تتدارس كل مجموعة نماذج من كيفية تحقيق اللقاء بين البشر رغم اختلاف الأديان، واحترام كل فرد للمعتقد الدينى للفرد الآخر. لقد تم العمل على نظام المجموعات طوال نهار هذا اليوم وجزءا كبيرا من الليل وذلك تمهيدا لصياغة مجموعة التوصيات والإقتراحات.

وأود أن أشير - قبل ذكرى بعض منجزات هذا المؤتمر ومجموعة توصياته - إلى أننا كنا نتدارس بعض الكتابات التى تركها لنا مجموعة من المفكرين والتى تعد ذات طابع دينى فكرى وتقوم على أساس المودة والسلام بين الأديان وتعظيم الخالق تعالى وتقديس كل دين من الأديان. ومن بينها كتابات أبى طالب المكى، المتصوف الإسلامى والذى استفاد الغزالى من كتاباته الصوفية وخاصة كتابه: قوت القلوب، وبعض كلمات القديس فرنسيس الأسيزى وكتابات الأشعرى الصوفى أبى حامد الغزالى والذى توفى عام ٥٠٥ هـ / ١١١١م

لقد اطلعنا خلال جلسات المؤتمر على العديد من الكتب الثقافية والدينية والفكرية والتى تركز على البحث فى مجال فلسفة الأديان.

وفى اليوم الثامن والعشرين من شهر أكتوبر وهو آخر أيام المؤتمر بالنسبة لجلساته فى مدينة أسيزى، سافر أعضاء المؤتمر من تلك المدينة، إلى مدينة روما. وكان قد تم ترتيب مقابلة مع بابا الفاتيكان، البابا يوحنا بولس الثانى.

ويمكننى القول بأن المقابلة التى تمت بين بابا الفاتيكان وأعضاء المؤتمر كانت مثمرة للغاية. لقد قمنا قبلها بزيارة الأماكن الدينية المنتشرة

بروما وفى كل الأماكن المؤدية إلى مقر البابوية شاهدنا اللوحات الفنية الرائعة التى قام برسمها أعظم الفنانين والرسامين فى تاريخ البشرية والفن العالمى. شاهدنا العديد من التماثيل الرائعة وكنا نقف أمامها فى دهشة وانبهار. كنا نريد معرفة تاريخ كل لوحة وكل تمثال. كنت أقول لنفسى ما أعظم الفن فى كل زمان وفى كل مكان. كنت أقول لنفسى إن الفن له أثره البالغ فى السمو بالروح والترقى بالمشاعر والوجدان.

تحدث البابا إلينا حديثا وديا وتعرف على كل أعضاء المؤتمر والبلدان التى حضروا منها. وألقى كلمة هامة تدور حول السلام بين الأديان وأثنى على الفكرة التى على أساسها أقيم هذا المؤتمر بمدينة أسيزى. وكان اللقاء لقاءا تاريخيا غاية فى الروعة. وقامت كل وسائل الإعلام المسموعة والمرئية بدورها فى تغطية هذا اللقاء لقاء أعضاء المؤتمر بالبابا، وتم التقاط العديد من الصور التذكارية للبابا فى لقائه مع أعضاء الوفود.

ولابد أن أشير أيضا إلى اهتمام سفير مصر بالفاتيكان بهذا المؤتمر وحرصه على دعوتنا قبيل سفرنا من روما إلى القاهرة للقاء بمنزله. لقد تحدث طويلاً عن المؤتمر واهتم بالتعرف على المشكلات الرئيسية التى تمت مناقشتها أثناء جلسات المؤتمر، وأيضا حضورنا للجلسة الإفتتاحية لمؤتمر آخر عقد بمدينة روما وكان من نقاط البحث فيه، إقامة حوار بين الأديان. وكان لقاؤنا مع سعادة سفير مصر بالفاتيكان لقاءا مثمرا، لقاءا وديا للغاية.

كما أجد واجبا على الإشارة إلى اهتمام إذاعة الفاتيكان بأخبار هذا المؤتمر وحرصها على مقابلة بعض أعضاء المؤتمر وخاصة الوفد المصرى والذى مثله كما قلت الدكتورة زينب الخضيرى، والدكتورة نبيلة زكرى والأستاذ جورج عجايبى وعاطف العراقى لقد أجبت من جانبى عن بعض الأسئلة التى وجهها إلى مندوب إذاعة الفاتيكان وقمت بتسجيل أكثر من حلقة إذاعية، من بينها حلقة أو حديث تكلمت فيه عن جهود الأب الدكتور

جورج شحاتة قنواتى مدير معهد الدراسات الشرقية للآباء الدومينيكان بالقاهرة ويشاء الحظ أن يقابله أعضاء الوفد المصرى بمدينة روما. لقد كنا حريصين على هذه المقابلة أثناء تواجدنا بروما وبعد عودتنا من أسيزى وكم استفدت من أستاذيته كما استفاد أيضا أعضاء الوفد المصرى.

وأود أن أشير بإيجاز إلى بعض نقاط البحث والتى تم الحوار حولها أثناء جلسات المؤتمر. وأبادر بالقول - بدون أدنى مبالغة - بأن الوفد المصرى كان فى مقدمة الوفود فى مجال الإثراء الفكرى والعلمى والحضارى للمؤتمر. لقد تحدثت زينب الخضيرى خلال جلسات المؤتمر عن كثير من الجوانب البالغة الأهمية وأشارت - معتمدة فى ذلك على ثقافتها الواسعة الأكاديمية - إلى أمثلة عديدة تكشف عن الإخاء والمساواة، أمثلة كثيرة من واقع تاريخ الفكر العالمى، وتاريخ الأديان أيضا.

كما تحدثت نبيلة زكرى عن عديد من النماذج التى تركز على العدالة والمساواة ورجعت إلى قراءات لها فى مجال تاريخ الفلسفة وتاريخ الأديان.

وأيضا تحدث الأستاذ الفاضل المهندس جورج عجايبى عن كثير من خبراته فى مجال السلام بين الأديان وذكر أمثلة تاريخية عديدة توضح فكرته وتؤدى إلى تدعيم وتأييد الجوانب التى أشار إليها وركز فى مجال الأمثلة التاريخية على مصر بصفة خاصة.

وتحدث كاتب هذه السطور عن حركة التنوير فى العالم العربى المعاصر وأشار إلى أن التنوير لا يمكن أن يتم إذا وجد تعصب أو تزمت، فالتنوير لا يقوم إلا على أساس العقل، العقل الذى يعد أعدل الأشياء قسمة بين البشر. وقد خلق الله لنا عقولنا لكى نبتعد عن التعصب الذميم. كما أشار إلى بعض الأمثلة فى تاريخ العرب قديما ومن بينها حركة الترجمة أيام العباسيين وكيف تعاون المسلمون مع المسيحيين، وربط بين تاريخ العرب قديما، والتاريخ الحديث والمعاصر.

كلمات أعضاء الوفد المصرى كانت تجمعها وحدة عضوية بـــارزة. وقد كانت كلماتنا خير دليل على السلام بين الأديان.

أما عن الركائز أو الأسس التى كانت مجال بحث فى هــذا المؤتمــر الحيوى والهام، فإنها كانت تتبلور حول نقاط رئيسية من بينها:

- ماذا نستطيع أن نفعل لنحقق "الحق فى الإختلاف" فى الحياة العملية خاصة فى مجالات تعليم وتكوين الأطفال والشباب وأيضا فى وسائل تكوين الرأى العام؟
- ما هى الأسس المذكورة فى الكتب المقدسة عن "الحــق فــى الإختــلاف" وكيفية التواجد والتعايش معا فى تسامح وتعاون وحب وعدل ورحمة.
- تحث الكتب المقدسة على احترام الآخر وتقديس "الحق فـــى الإختــلاف". فالأديان السماوية تشترك فى الدعوة إلى الحق والخير والجمال والإخــاء والمحبة والسلام وما إلى ذلك من القيم الكبرى.
- حين نعتمد على النصوص الدينية، ينبغى أن نتجنــب التــأويلات الفاســدة المتزمتة والفهم الخاطئ، إذ أن ذلك سيؤدى إلى هدم التعايش، بـــل إلـــى إشاعة الفرقة والتكفير المتبادل حتى بين أبناء الدين الواحد.
- الأجدى فى بناء قاعدة نظرية عن الحق فى الإختلاف، هو الإعتماد علـــى المساحات المشتركة بين الأديان كالإيمان بالله الواحـــد، واليـــوم الآخـــر، والبعد عن الشهوات لتأصيل المحبة بين الناس جميعا، والعمل مـــن أجـــل خير الإنسان وتقدير العمل الإيجابى، وأن العبرة بالنيـــة والقلـــب وليـــس بالمظاهر الخادعة.
- تكمن المشكلة الحقيقية فى أنه على الرغم مـــن العديـــد مـــن الدراســـات واللقاءات والمؤتمرات التى اهتمت بهذه الموضوعات، فإن التطبيـــق فـــى الحياة العملية كان متعثرا فى بعض المناطق والبلدان. فالتعايش الســـلمى بين المؤمنين من أهم الواجبات التى يجب أن نحـــرص عليـــها جميعـــا.

ومصر فى مقدمة دول العالم التى تقدم الدليل على ذلك عبر تاريخها الطويل قديما وحديثا. إن مصر تقدم لنا الدليل والمثل، تقدم لنا النموذج الذى يجب أن يستفيد منه كل مهتم بموضوع السلام أو التعايش بين الأديان.

- البناء الحضارى للأمة هو الأرض الخصبة للتعايش السلمى بين الأديان.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، فإننا إذا رجعنا إلى العصر العباسى، وجدنا كيف أن المسيحيين قد قاموا بنقل التراث من اللغة اليونانية إلى اللغة السريانية ثم من اللغة السريانية إلى اللغة العربية. وكانوا يلقون التشجيع المادى والمعنوى من جانب الخلفاء المسلمين. لقد كان الخلفاء العباسيون يجزلون لهم العطاء المادى. ومعنويا كانوا يحترمون بقاء هؤلاء المترجمين على دينهم. وأيضا لابد أن نشير إلى تأثر فلاسفة المسيحية ببعض أفكار فلاسفة الإسلام. وكيف استفادت أوروبا فى نهضتها بالعديد من إنجازات العرب والمسلمين فى العصور الوسطى وكم يعطينا التاريخ شواهد عديدة على ذلك.

- فى مجال التعليم وتكوين الأطفال والشباب، لابد من الإهتمام بتعليم المرأة وتثقيفها ثقافة شاملة. ولا يخفى علينا أن الإهتمام من جانبنا بتعليم وتثقيف المرأة سيؤدى إلى القضاء على التعصب أو التزمت . فالتعصب لا ينشأ إلا عن الجهل ودور المرأة فى الأسرة باعتبارها الخلية الأولى من خلايا المجتمع يعد دورا بالغ الأهمية إذا أردنا نشر روح التسامح والمحبة والألفة بين أبناء الوطن مسلمين ومسيحيين إن الأم هى المعلمة الدينية الأولى فى حياة الأطفال وهى التى تزرع فى نفوسهم الروح الدينية سواء من حيث القيم أو من حيث العلاقات مع الآخرين من أصحاب الديانات الأخرى.

- فى مجال المناهج الدراسية، ينبغى الإبتعاد تماما عن كل الأفكار التى تقوم على التعصب أو تستند إلى جدور التزمت والجهل. وفى مناهج التربية الدينية على وجه الخصوص، فإنها يجب أن تعمل على إشاعة حب احترام الإنسان ومعتقداته حتى مع الإختلاف. ويراعى أن يكتب المسلمون كل ما يتعلق بالإسلام ، وأن يكتب المسيحيون كل ما يتعلق بالمسيحية. وهذا لا يمنع من أن تكون هناك بعض الموضوعات التى يجب إبراز الرأى الآخر فيها بطريقة موضوعية وعلمية ومنهجية.
- بالنسبة للمدرس، فينبغى التأكيد على أهمية أن يكون المدرس ذا شخصية سوية متوازنة غير متطرفة ولا متعصبة وأن يراعى فى تكوينه وتأهيله، احترام الحق فى الإختلاف.
- وما يقال عن المناهج وعن المدرس من حيث أهمية كل منهما، يقال أيضا عن المدرسة فإذا كانت الأم تلعب دورا بالغ الأهمية فى تكوين شخصية الطفل، فإن المدرسة لا يقل دورها عن دور الأسرة. ينبغى إذن توفير مناخ عام يشعر فيه جميع الطلاب بالمساواة رغم اختلاف دياناتهم وطبقاتهم الإجتماعية.
- أما فى مجال الإعلام، فإن له أثره البالغ والحيوى فى هذا المجال. ينبغى أن يخلو الإعلام من كل جوانب التطرف أو التعصب أو التشويه فى مجال الفكر الدينى.

وينبغى أيضا تشجيع البرامج التثقيفية التنويرية والتى تبرز التعايش والسلام بين المؤمنين عامة، وذلك فى مجال وسائل الإعلام المسموعة والمرئية.

ولا يخفى علينا الأثر البالغ للتليفزيون بصفة خاصة، هذا الجهاز السحرى الذى يلعب دورا ملحوظا فى تشكيل شخصية الأفراد. ومن هنا

لابد من إبراز التعايش بين الأديان والتمسك بأداب الحوار عند مناقشة القضايا الدينية.

ولابد أن نشير أيضا إلى أهمية الإبتعاد عن الكتابات المثيرة أو الأحكام العامة المطلقة والتى لا تخلو من هوى وتعصب.

- فى مجال الجمعيات التى تقوم بدور دينى تثقيفى، لابد من تشجيع وتقوية الجمعيات التى تحمل لواء الإخاء الدينى وتأخذ على عاتقها مهمة نشر السلام والألفة بين أبناء الوطن الواحد. كما ينبغى أيضا التركيز على إبراز دور القدوة الحسنة سواء من المسلمين أو المسيحيين، إذ العبرة أساسا بالعمل، وبالضمير، والذى يعد قوة روحية خلقية، خلقها الله فينا وأودعها فى نفوسنا وأفئدتنا.

والواقع أن المجال لا يتسع لمناقشة كل القضايا التى أثيرت فى هذا المؤتمر. المؤتمر الذى أقيم بمدينة أسيزى بإيطاليا. تلك المدينة الجميلة والمقامة على ربوة عالية، وكأنها تغرس فى النفوس سمو الروح وتعاليها، وعظمة الوجدان وما أبلغ أثره على حياتنا التى نحياها. لقد كنا نشعر أن طائر السلام يحلق فوقنا سواء فى الجلسات التى أقيمت بتلك المدينة، مدينة أسيزى، أو فى الحوار الذى جرى بيننا أيضا فى روما العاصمة والتى شهدت أحداثا تاريخية هائلة يرجع تاريخها إلى أعمق أعماق الماضى، والتى تعد شامخة بمفكريها القدامى ودورها الدينى، وآثارها الفنية الهائلة. إننا نتحدث عن هذا المؤتمر لأننا من جانبنا ندرك أن الحوار بين الأفكار يعد لبنة من لبنات البناء النقدى، وإن كان أكثرهم لا يعلمون.

الفصل الخامس

جامعاتنا والطريق نحو المستقبل (رؤية نقدية)

ويتضمن هذا الفصل العناصر والنقاط التالية:

(١) جامعاتنا العربية والاغتراب عن الثقافة.

(٢) جامعاتنا بين الكم والكيف.

(٣) النظرة النقدية لمناهج تدريس الفلسفة بالجامعات.

"لقد تراجع دور الجامعات ثقافيا. أصبحت الجامعات في حالة غربة أو اغتراب عن الثقافة. أصبحت بعض المواد التي يدرسها الطلاب والطالبات ممثلة لثقافة الظلام الرجعية، لا ثقافة النور التقدمية، ثقافة الفكر الحر التجديدى، وإن كان أكثرهم لا يعلمون"

(١)

جامعاتنا العربية والإغتراب عن الثقافة

"لا سبيل إلى استعادة الدور الريادى لجامعاتنا، إلا بالانفتاح علـــى كل التيارات الفكرية. لابد من فتح النوافــذ باســـتمرار. إن فتح النوافذ يؤدى إلى النور والضياء، أما إغلاقها فلابد أن يكون مؤديا إلى العدم، إلى الظلام، إلى الصعود إلـــى الهاويـــة وبئـــس المصير".

(١)
جامعاتنا العربية والإغتراب عن الثقافة

لا أشك من جانبى لحظة واحدة فى أن البحث عن الدور الثقافى لجامعاتنا حاليا ومقارنة بدورها الثقافى منذ ما يقرب من ربع قرن أو يزيد، بل بعد إنشاء جامعاتنا العريقة بعدة سنوات، أقول إن البحث عن هذا الدور الآن يعد من أهم القضايا التى يجب أن يبحث فيها كل واحد منا، سواء كان داخل الجامعة أو خارجها.

وأكاد أقول إن جامعاتنا الآن تعد فى حالة اغتراب عن الثقافة وقضايا الفكر الجاد. ولننظر إلى الأمور بصراحة وموضوعية ولنترك التفاؤل الساذج جانبا، فنحن إزاء قضية حيوية، قضية مصير ثقافى. إن كل فرد منا فى الماضى كان يشعر بثقل ثقافى لجامعاتنا، كان يشعر بدورها البارز فى إثارة العديد من القضايا وتقديم الحلول الأكاديمية الناضجة لكثير من مشكلاتنا الفكرية على وجه الخصوص.أما الآن فماذا نجد؟ دعونا نتكلم بصراحة لنقول إن جامعاتنا الآن أصبحت فى واد، والقضايا الثقافية فى واد آخر، أصبحت المسافة بين جامعاتنا وبين الإهتمام بقضايانا الثقافية، أبعد من المسافة بين المشرق والمغرب، بين القطب الشمالى والقطب الجنوبى، بين الإنس والجن. وصدقونى أيها القراء إذا قلت لكم إننا قد نجد دورا رائدا وبارزا لمفكرين عديدين لا ينتمون أساسا للجامعة، نجد تفجيرا وإثارة لأعظم مشكلاتنا الثقافية من جانب أناس أخلصوا لأمتهم ووطنهم وبصرف النظر عن كونهم فى الجامعة أو خارجها.

هل من المعقول أن ننتظر دورا ثقافيا للجامعة فى ظل الآلاف من الطلاب الذين يدخلون الجامعة للحصول على شهادات عليا، وكأن الشهادات العليا أصبحت تعنى هبوطا فى الثقافة وفقرا فى الفكر. هل من المنتظر أن نجد دورا رياديا فى مجال الثقافة من جانب الجامعة فى ظل مأساة أو ملهاة ما نسميه بالكتاب الجامعى، أى الكتاب المقرر على الطلاب، والذى لا مفر من حفظه وترديده دون فهم. هل سمعتم عن هذه المأساة فى ماضى جامعاتنا؟ كلا ثم كلا. فلا ثقافة ننتظرها من جامعات الآلاف من الطلاب. لا فكر يمكن إفرازه عن جامعات الكتب الجامعية المقررة.

نعم تراجع دور الجامعة ثقافيا. نعم أصبحت جامعاتنا فى حالة غربة أو اغتراب عن الثقافة. نعم أصبحت بعض المواد التى يدرسها الطلاب والطالبات فى هذه الجامعة أو تلك، إنما تمثل ثقافة الظلام لا ثقافة النور، ثقافة التقليد لا ثقافة الفكر الحر التجديدى، هذا إن صح أن للظلام ثقافة، أو أن للتقليد فكرا.

وإذا كانت جامعاتنا الآن قد أصبحت فى حالة اغتراب عن الثقافة، أصبحت فى حالة سبات وكسل، أصبحت تمثل صعودا إلى الهاوية، فإن هذا لا يعنى إنكار بعض الظواهر الإيجابية وإن كانت قليلة جدا الآن، والتى تتمثل فى وجود مساهمات من جانب بعض من يعملون فى الجامعة، لحل قضايانا الفكرية والعلمية.

ولنبادر من جانبنا إلى القول بأن من يحاول العثور على دور ريادى الآن للجامعة، فوقته ضائع عبثا. غير مجد فى يقينى واعتقادى توقع هذا الدور وقد أصبحت جامعاتنا الآن غير جامعات الأمس، أصبح الحال غير الحال.

وإذا تساءلنا عن السبيل إلى استعادة الدور الريادى الخلاق لجامعاتنا، فإننا نقول من جانبنا إنه لا سبيل إلى ذلك إلا بالإنفتاح على التيارات الفكرية

الكبرى فى العالم كله شرقه وغربه. ولن تجدوا روادا وعمالقة فـــى مــاضى جامعاتنا إلا لكونهم انفتحوا على الهواء المتجدد، انفتحوا على التيارات الفكرية المعاصرة. ومن يغلق على نفسه الأبواب فإنه لابد وأن يتنفس هـــواء راكـــدا فاسدا سرعان ما يؤدى به إلى الإختناق بل الموت.

نعم لا سبيل إلى تحقيق دور الريادة لجامعاتنا، إلا بالإنفتاح على كـــل فكر حر، كل فكر متجدد. يجب أن نسعى بكل قوتنا إلى الإنفتاح على حركـــة الفكر المعاصر وكفانا الحديث عن الغزو الثقافى. أى غزو يا سادة؟ إن الثقافة العالميـــة لا تعد ظلاما، والظلام لا يأتى إلا من إغلاق النوافذ. هل ســـمعتم عن فرد لم ير النور رغم فتحه للنوافذ؟ إن الوقوف ضد التيار لا يعبر إلا عن ضيق الأفق. ولو حفظتم كل كتب التراث فى مجالات عديدة فلـــن تســـاعدكم كتب التراث كلها على اختراع أبسط نوع من أنواع المخترعات البشرية لأنها كلهـــا تعبر عن كيف وكيف فقط، والعلم كم وكم فقط. هذا بالإضافة إلى مـــا قد نجده فى كتب التراث من خرافات قد تكون أكثر عددا من ســـكان أمتنـــا العـــربية.

هل ننتظر من جامعاتنا دورا ثقافيا فى الوقت الذى نجد فيـــه أناســـا داخل الجامعة يشنون الهجوم على الحضارة، يشنون الهجوم على المنجـــزات العلمية. إنك إذا ذكرت لهم اسم مفكر عقلانى متجدد الفكر، يقولون لك: العياذ بالله. وإذا قلت لهم إن نيوتن كان عالما، فإنهم يقولون لك إنه كان كافرا لأنـــه من بلاد الفرنجة. وإذا قلت لهم بأهمية الإنفتاح على الفكر الغربى العـــالمى، فإنهم يتهمونك بالضلال ويطلبون لك الشفاء من هذا المرض. وليثق القـــارئ تماما أن هذا كله لا يعبر إلا عن تراجع عن الثقافة، تراجع عن الدور الريادى للجامعة. ومن يعتقد بغير ذلك، فإن اعتقاده يعد جهلا على جـــهل، وإن كـــان أكثرهم لا يعلمون. ومنذ سنوات ليست بعيدة تعلمنا من المفكر الكبـــير طـــه

حسين أن من يكتفى بالتراث وحده فهو نصف إنسان. ولا فرد منا تكون لديه ذرة من العقل، يرضى لنفسه أن يكون نصف إنسان.

نعم يجب أن تتفتح جامعاتنا إذا أرادت لأنفسها دورا قياديا، على حركة الفكر فى العالم ولنا فى تاريخنا العربى فى الماضى أسوة حسنة إن الحركة الثقافية انتقلت من بلاد اليونان إلى بلاد العرب فى العصر العباسى بعد أن تم نقل أكثر الكتب فى الطب والطبيعة والفلك والمنطق والفلسفة من اللغة اليونانية إلى اللغة العربية، وقام الخلفاء بتشجيع الناس على قراءتها ورغبوهم فى تعلمها وتعليمها . وسرعان ما وجدنا بعد ذلك فلاسفة كبارا سواء فى المشرق العربى أو فى المغرب العربى. لقد تم بعد ذلك الإلتئام بين الثقافة العربية والثقافات الأجنبية . ولكن ماذا نجد بعد ذلك؟ لا نجد دورا قياديا رائدا للجامعة كذلك الدور الذى كان لجامعتنا الأم، جامعة القاهرة أو الجامعة المصرية فى الماضى.

إننى لا أخفى حزنى وقلقى على ما وصل إليه حال جامعاتنا وهى أمل مصر الثقافى. صحيح أن الدولة تشجع البعثات الخارجية وهذه ظاهرة محمودة وجديرة بالتقدير والثناء، ولكن ليس من الضرورى أن تحقق البعثات الخارجية وحدها، الإرتباط الثقافى المنشود، لأن طالب البعثة قد لا يكون مواكبا بفكره للتيارات الفكرية المعاصرة، بل إنه قد يسخر منها فى أعماقه. طالب البعثة قد يكون من أنصار التقليد لا التجديد، من أنصار الإنغلاق لا الإنفتاح. ودليلنا على ذلك أننا نجد أناسا عادوا من بعثاتهم فى فرنسا وإنجلترا وأمريكا وهم الآن فى مصرنا المعاصرة من أكثر الناس سخرية من العقل والعلم والحضارة.

نعم لابد من انفتاح جامعاتنا على كل تيارات الفكر العالمى. ويقينى أن هذا الإنفتاح هو الذى يؤدى بطالب الجامعة إلى أن يكون مثقفا بكل ما تعنيه كلمة الثقافة من معان ومدلولات ولنضرب مثالا على ذلك من خارج

الجامعة حتى نقيم الدليل على ما نقول به. إن برنامجا واحدا من برامجنا الإذاعية وهو البرنامج الثانى للإذاعة قد أدى وما يزال يؤدى دورا ممتازا خلاقا فى تكوين معالم شخصية المثقف ثقافة دقيقة ولذلك يعد ظاهرة إيجابية مشرقة يعتز بها المثقفون فى سائر أرجاء الوطن العربى. لماذا؟ لأنه قد انفتح على التيارات الفكرية العالمية. وهكذا يجب أن يكون مثالا تحتذيه جامعاتنا إذا أرادت لنفسها دورا قياديا، رياديا.

ويقينى أننا لو قمنا بمراجعة مناهج التعليم فى جامعاتنا وحذفنا منها كل الأفكار التقليدية الميتة التى توجد فى الكتب الصفراء وغيرها. لو شجعنا الزيارات المتبادلة بين علمائنا وعلماء البلدان الأجنبية. لو اندفعنا بكل قوانا نحو تشجيع الترجمة والمترجمين، فإن ذلك كله سيؤدى إلى أن تكون جامعاتنا جديرة باسمها، بحيث تحقق الغرض المنشود منها، والمهمة الملقاة على عاتقها، ونعنى بها تخريج المتخصص الأكاديمي والمثقف في نفس الوقت، وبدون ذلك فلن ننتظر من جامعاتنا دورا رائدا وقياديا. لن تبقى من جامعاتنا إلا أسماء، مجرد أسماء. فلنبادر إذن بإنقاذ جامعاتنا حتى تكون اسما على مسمى، حتى يكون لها دورها المنشود فى سائر بلداننا العربية من مشرقها إلى مغربها. إنها دعوة من جانبنا نرجو أن تجد صداها فى نفوس وعقول المهتمين بجامعاتنا من قريب أو من بعيد.

(٢)

جامعاتنا بين الكم والكيف

"إن إصلاح جامعاتنا العربية لن يبدأ إلا بالتركيز على الكيف دون الكم. فالتركيز حاليا وللأسف الشديد على الكم، والكم فقط. التركيز على الكارثة الكبرى والمصيبة العظمى، الكتاب الجامعى المقرر. لقد أدى ذلك إلى أكثر صور الخلل التى نجدها الآن فى كثير من جامعاتنا العربية، إن لم يكن كلها".

(٢)
جامعاتنا بين الكم والكيف

أعتقد اعتقادا راسخا أن جامعاتنا المصرية، على اختلاف كلياتها، لو استمرت بصورتها الراهنة، فإنها سوف لا تحقق الغرض المرجو منها، سوف لا تحقق الأهداف التى من أجلها نسعى إلى التعليم الجامعى، إن لم تكن قد عجزت بالفعل عن تحقيق تلك الأهداف.

لا أقول هذا من جانبى تعبيرا عن التشاؤم، ولكننى أضع فى الإعتبار أن كل نوع من أنواع التعليم على اختلاف مراحله، له أغراضه وأهدافه المحددة. كل مرحلة من المراحل التعليمية، لابد أن تؤدي غرضا واضحا محددا ومرسوما بدقة. فماذا نجد الآن بالنسبة للتعليم الجامعى، أى التعليم الذى يتم فى جامعاتنا المصرية؟

أكاد أقول إن التعليم الجامعى بصورته الراهنة، سواء أدى إلى منح الطلاب درجة الليسانس أو البكالوريوس، أو أدى بعد ذلك إلى منحهم درجة الماجستير أو الدكتوراة، يشوبه الكثير من مظاهر الخلل والنقص، تلك المظاهر التى تؤدى بنا إلى القول بأنه بصورته الحالية لا يؤدى الغرض منه من قريب أو من بعيد، إذ أنه لا يختلف كثيرا عن مدارس التعليم العام، سواء تمثل التعليم العام فى المدرسة الإعدادية أو المدرسة الثانوية. وإذا استعرنا من المجال الإقتصادى التفرقة بين القطاع العام والقطاع الخاص، فإنه بالإمكان القول بأن كل الفرق الآن بين التعليم العام والتعليم الجامعى يتمثل فى أن المدرس فى مدارس التعليم العام يقرر على الطلبة كتاب الوزارة (القطاع العام) أما من يشتغل فى حقل التعليم الجامعى، فإنه يقرر على الطلبة

كتابه هو (**القطاع الخاص**). وليت الأمر يقتصر على ذلك، بل إن من يتـــأمل فى دقة وموضوعية المادة العلمية الموجودة فى كثير من الكتب والمذكــــرات التى يقوم البعض بفرضها على الطلاب، فإنه لابد أن يقــول بأنـــها ســتؤدى بالطلبة بعد تخرجهم إلى أن يكونوا أنصاف متقفين، أو أشبـــاه متقفيــن، لأن المـــادة العلمية الموجودة فى كثير من تلك الكتب، تعد جـــهلا علـــى جـــهل، ورغم ذلك يقال عنها مادة علمية!!!

إن إصلاح جامعاتنا العربية لن يبدأ إلا بالتركيز علـــى الكيــف دون الكـــم. فالتركيز حاليا وللأسف الشديد على الكم، والكم فقط. وقـــد أدى ذلـــك إلى أكثر صور الخلل التى نجدها الآن فى كثير من جامعاتنا العربية إن لـــم يكن كلها. إن التركيز على الكم دون الكيف، والولـــع بالتوســـع الأفقـــى دون الرأسى قد أدى إلى ضعف مستوى الخريجين ضعفا واضحا ظاهرا. أدى إلى انتشار بدعة الدروس الخصوصية وما تؤدى إليه مـــن انحرافـــات ظـــاهرة وانحرافات خفية، وما خفى كان أعظم وليصدقنى القارئ إذا قلت له إننا عندما كنا طلابا بالجامعة لم نسمع إطلاقا عن الدروس الخصوصية ولم نسمع إطلاقا عما يسمى بالكتاب الجامعي، لأن الإهتمام فى الماضى كان بالكيف دون الكم.

إن التوسع الذى نجده الآن في جامعاتنا، يمكن أن نقول عنه إنه توسع أفقى، وليس توسعا رأسيا. نعم إنه يعد توسعا أفقيا، توسعا كميـــا، بحيـــث أن الجامعات الآن أصبحت مجرد امتداد للمدرسة الثانوية على الرغـــم مـــن أن أهداف التعليم الجامعى، تختلف اختلافا رئيسيا عن أهداف التعليم الثانوى قـــد يقال إن التوسع الأفقى يؤدى إلى زيادة عدد المتقفين فى مجتمعنا المصــــرى، ولكن هذا القول مردود عليه بأن الإمكانيات الحالية سواء أكـــانت ماديـــة أو بشرية، لا تؤدى إلى تحقيق أهداف التعليم الجامعى وتخريج المتقـــف ثقافـــة عميقـــة ودقيقة مع الزيادة الكمية. إنه لمن الأفضل تخريج عدد محدود مـــن المتقفيـــن ثقافة حقيقية، بدلا من تخريج آلاف مؤلفة كل عام، يحملون شهادات

جامعية فى الوقت الذى يجهلون فيه أكثر الأمور التى تتعلـــق بالتخصصـــات التى رغبوا فى دراستها يوم التحقوا بالجامعة.

لقد وصل التعليم الجامعى عندنا إلى حالة يرثى لها. حشر الآلاف فى المدرجات وتكليف أناس لم يصل بعضهم إلى مستوى مقبول، للتدريس لـــهم، وتقرير كتاب معين عليهم، وهو ما يسمى بمأساة أو ملهاة الكتاب الجـــامعى. فأين إذن الحياة الجامعية والثقافة الجامعية والتخصص الجامعى؟ هـــل يكفـــى لإنشاء جامعة أن نزيل لوحة مكتوب عليها مدرسة ثانوية، ونضع بدلا منـــها كلمة كلية أو جامعة. هل يكفى لتحقيق أهداف الجامعة أن يقوم معيد فى إحدى كليـــاتنا بتدريس أكثر من عشرة مواد لطلبة قسم واحد وفـــى عـــام دراســـى واحد؟ ما الفرق إذن بينه وبين مدرس الفصل فى المدرسة الإبتدائيـــة؟ هـــل يتحقق المستوى الجيد عن طريق ندب مجموعة مـــن المدرســـين والأســـاتذة للتدريس فى العديد من الكليات بمختلف المحافظات بحيث يقضـــون نصـــف يومهم فى القطارات ؟ أين الحياة الجامعية بمعناها الدقيق والتى تتطلب الحوار والنقاش بين الطالب والأستاذ؟ هل ينكر المشرفون على جامعاتنا أنـــه توجـــد الآن كليات ليس فيها أستاذ واحد؟. إننا إذا أردنا التوسع الكمى فلابـــد إذن ألا يطغى الكم على الكيف، وإذا استمرت الزيادة فى الكم على حســـاب الكيـــف فستصبح جامعاتنا فعلا فى خبر كان، إن صحت هذه العبارة. لابد من زيـــادة الإمكانيات المادية لجامعاتنا ولابد أيضا من الإســـتفادة بالطاقـــات البشريـــة المعطلة. فلمصلحة من تقف بعض جامعاتنا عقبة فى سبيل الإستفادة من أناس حصلوا على الماجستير والدكتوراة وهم الآن خارج الجامعة ، أى خارج مهنة التدريس بالجامعة. أعرف دارسة حصلت على الماجستير بـــأعلى درجاتـــه، وفى موضوع غاية فى الأهمية والصعوبة، ورغم ذلك تقف الكلية الإقليميـــة التى حصلت منها على الماجستيـــر ضد الإستفادة منها فـــى التدريـــس دون تقديم مبرر علمى أو موضوعى واحد ، ألا يعد هذا عقابا لطلاب الدراســـات العليا؟ لقد رفضت الكلية حتى مجرد قيامها باستكمال دراستها للدكتوراة وكأن الكلية قد دخلت فى معركة ضدها، وهذا من مصائب الزمان.

لابد أيضا من النظر نظرة جديدة إلى موضوع الإعارات إن الوطن الذى أعطى لابن من أبنائه درجة الدكتوراة ، فإن من واجب هذا المواطن أن يفيد أبناء الوطن. إن النظام الحالى يسمح بالإعارة لمدة عشر سنوات بالإضافة إلى نظام الأستاذ الزائر لمدة ثلاثة شهور كل عام!!! فهل يستفيد الطلبة من مثل هذا الأستاذ؟ هل يستفيد الطلبة من الأستاذ الذى أمضى عشر سنوات خارج جامعته ثم أضاف إليها ثلاثة شهور كل عام؟ ورغم ذلك نجد الترقيات الأدبية والمادية والجوائز التشجيعية تعطى لهؤلاء الذين يقضون أكثر من نصف خدمتهم بالجامعة، خارج وطنهم الأم. الله وحده يعلم مدى إخلاصى فى دعوتى للوقوف وقفة موضوعية إزاء نظام الإعارات، وكاتب هذه السطور لم يقبل فى حياته إعارة واحدة إلى أية دولة من دول البترول أو غيرها من الدول.

أما عن الدراسات العليا بجامعاتنا، فالأمر فيها أعجب وأغرب. لن ينصلح حال الدراسات العليا إلا بالعناية أولا بمستوى الخريج، لأن فاقد الشئ لا يعطيه. لن تتقدم الدراسات العليا إلا بتوفير المشرفين الجادين وتشجيعهم تشجيعا أدبيا وماديا، وأيضا تقديم كافة الإمكانيات من معامل وكتب أمام طلاب البحث ونشر بحوثهم التى أفنوا حياتهم من أجلها. لابد من التدقيق فى اختيار الموضوعات التى تصلح لدرجات الماجستير والدكتوراة، إذ على الرغم من أن اللائحة الحالية تشترط فى موضوعات رسائل الدكتوراة بصفة خاصة أن تكون موضوعات جديدة وأصيلة، فإن ما نجده حاليا بالنسبة لأكثر الرسائل لا يخرج عن كونه مجرد تلخيصات لا فائدة منها لمجموعة من الكتب القديمة. فأين الجديد إذن؟ هل انتشرت عدوى الكتب الجامعية بحيث وصلت إلى رسائل الماجستير والدكتوراة؟ صحيح أن الجامعة ورجالها يبذلون كل جهدهم وطاقتهم فى سبيل بحوثهم وطلابهم ولكننا نطمع فى المزيد حتى تتحقق كل الأهداف التى من أجلها تقوم الجامعات.

(٣)

النظرة النقدية لمناهج تدريس الفلسفة بالجامعات

"لابد من التأكيد على القول بأننا داخل مناهج الفلسفة لا نستطيع التقدم إذا نظرنا إلى التراث قديما من خلال قوالب ضيقة متحجرة. نعم لن يكون بإمكاننا السعى نحو الأمام حتى لو ملأنا أرجاء العالم كله صراخا وضجيجا. فليست العبرة بالفهم الضيق، ولكن العبرة أساسا بالفهم المتفتح والإيمان بمبدأ الإجتهاد والتأويل".

(٣)
النظرة النقدية لمناهج تدريس الفلسفة بالجامعات

يبدو لنا أن مناهج الدراسات الفلسفية فى جامعاتنا المصرية تحتاج إلى كثير من التعديلات، ومنها تعديلات جوهرية وذلك حتى يمكن أن تكون وسيلة لخدمة مجتمعنا الذى نعيش فيه.

وسنحاول فى هذه الدراسة الموجزة التركيز بصفة خاصة على مناهج الفكر الفلسفى وبيان مدى ملاءمتها لمجتمعنا مع عرض الإقتراحات التى يمكن أن تؤدى إلى تطوير هذه المناهج، تطورا نحو الأفضل والأكمل.

ونود أن نشير إلى أن علماء التربية على اتفاق فى أن المنهج يعد وسيلة لا غاية ومن هذا المنطلق يجب أن يكون تصورنا لأى منهج من المناهج المختلفة المتعددة، ومن هذه المناهج، المناهج الخاصة بالفكر الفلسفى.

ومما لاشك فيه أن أهم غاية من غايات التعليم والتربية، هى إعداد الفرد للحياة فى حاضرها ومستقبلها وتنمية قدراته على مواجهة مشكلاتها والمساهمة النافعة فيها.

وإذا وضعنا نصب أعيننا هذه الجوانب والإعتبارات، فإننا نعتقد أن المناهج الحالية فى حاجة إلى الكثير من التعديلات والتطويرات والتغييرات، بحيث تكون نابعة أساسا من كيفية تصورنا لما ينبغى أن يكون عليه مجتمعنا الإسلامى، وذلك حتى لا تكون مناهج الدراسات الفلسفية بمعزل عن واقعنا المصرى المعاصر، بل ينبغى أن تواكب تيارات العصر.

وسنعرض فيما يلى لمجموعة من الإقتراحات الخاصة بهذه المناهج مناهج الفكر الفلسفى، وستتضح لنا مواضع القصور فى أكثر المناهج الحالية لجامعاتنا المصرية وكيف يمكن تلافى هذه الأوجه من أوجه القصور.

نقول إن من أوجب واجباتنا، الإهتمام بالتركيز على تنمية البعد النقدى عند الدارسين للفلسفة.

إننا إذا نمينا الجانب النقدى فستكون لدى الدارس القدرة على نقد ما يراه من آراء باطلة وعدم الوقوع أسيرا لبريقها. إن العالم تسوده الآن آراء باطلة وهدامة ويجب علينا أن ننمى لدى شبابنا المصرى القدرة على التحليل والموازنة والإجتهاد. وفى اعتقادى أننا إذا اهتممنا بهذه الجوانب، فسوف نجد أن شباب المستقبل سيكون أفضل من شباب اليوم. سنجد أن الشباب لديه القدرة على الرد على الآراء التى تعد بعيدة تماما عن العقل ولصيقة بالهوى والتعصب.

يضاف إلى ذلك أنه لابد من التركيز على الجانب العقلى. وهذا الجانب يرتبط بالجانب السابق، ونعنى به أنه من الضرورى الإعتماد على التفسيرات العقلية بحيث تكون تلك التفسيرات مدعمة للجانب العلمى. إننا فى أشد الحاجة إلى هذا الجانب حتى ينظر الدارس إلى تراثه الفكرى نظرة إكبار وإجلال واحترام فلو رجعنا إلى بعض كتب التراث، لوجدنا أن بها أحيانا تفسيرات غير عقلية، بل بعيدة عن واقعنا الذى نحياه، ولا يمكن أن تكون مؤدية إلى مجتمع أفضل. ولنا فى أسلافنا قدوة حسنة. لقد تمسك أسلافنا بالعقل وذلك حين نادوا بالإجتهاد إننا من خلال دروس كثيرة يمكننا التمييز بين ما يعتمد على العقل وبين ما لا يعتمد على العقل ولو ركزنا على هذا الجانب تركيزا كبيرا فإننا نكون قد أعدنا ثقة شبابنا وطلابنا بتراثهم العظيم الخالد.

ونستطيع من خلال مناهج الفكر العربى المتعـــددة. أن ننمـــى هـــذا الجـــانب العقلى اقترح على سبيل المثال حين نقوم بدراسة أفكـــار اعتمـــدت على الجانب العقلى إبراز المجهود الذى بذله القائلون بهذه الأفكـــــار ومـــدى حاجة مجتمعاتنا العربية إلى هذه الأفكار بحيث نبرز لهم أن مجتمعاتنا العربية ستأخذ فى التقدم إذا تمسكت بهذه الأفكـــار، وأن شيـــوع الأفكـــار الخرافيـــة واللاعقلية، سيؤدى على العكس من ذلك إلى تأخر مجتمعاتنـــا العربيـــة، ولا نعدم فى مناهجنا الحالية الكثير من المواضع التى يمكـــن أن تكـــون مجـــالا للتمسك بالجانب العقلى. ونود الآن أن نطرح من جانبنا العديد مـــن القضايـــا والمشكلات التفصيليـــة ونعرض لمجموعة من التصورات والتى تدور أساسا حول مناهج الدراسات الفلسفية حتى يمكن أن نجد فيـــها تمســـكا بـــالطريق العقلانى وحتى لا يتم الإغتراب عن العقل وأحكامه وخصائصه.

فالدارس لتاريخ الفلسفة العربية يجد التزاما من جـــانب كثـــير مـــن الممثلين للفلسفة العربية بالعقل وخصائصه وأبعاده.

صحيح أننا لا نجد عند بعض من يدخلون فى إطار الفلسفة العربيـــة التزاما بالبعد العقلانى، ولكن الصحيح أيضا أننا نجد أفرادا كثـــيرين يمثلـــون بعض الفرق الإسلامية بالإضافة إلى أكثر فلاسفة العرب، نقول نجد عندهـــم دعوة إلى إعلاء كلمة العقل نجد عندهم تقديسا للعقل وما يدعو إليه من آراء.

ويمكن القول بأننا إذا كنا ندخل فى دائرة الفلسفة العربية من نســـميهم بمتكلمى الإسلام كالمعتزلة والأشاعرة، ومن نطلق عليهم فلاسفة العرب ابتداء من الكندى فى المشرق العربى وانتهاء بابن رشد فى المغرب العربى، ومـــن يعبرون عن الطريق الذوقى الوجدانى أى الصوفية سواء مثلـــوا التصـــوف السنى أو مثلوا التصوف الفلسفى. نقول إذا كانت دائرة الفلسفة العربية يدخـــل فى إطارها المتكلمون والفلاسفة والصوفية فإننا لا نجد موقف هؤلاء جميعـــا من العقل يعد موقفا واحدا، بل يمكن القول بـــأن موقـــف الممثليـــن للدائـــرة

الكلامية، غير موقف المعبرين عن الإتجاه الفلسفى، وبالتالى موقف كل من الفريقين يختلف عن موقف الصوفية، وليس هذا فحسب بل أننا نجد داخل الإتجاه الواحد كالإتجاه الكلامى أكثر من فرقة من الفرق الإسلامية وموقف كل فرقة من هذه الفرق من العقل يتراوح بين التأييد بكل قوة والتأييد بنوع من التحفظ يصل أحيانا إلى درجة التقليل والتشكيك فى قدرة العقل.

وإذا استعرضنا أمامنا آراء الممثلين لكل دائرة من الدوائر الثلاث والتى تدخل بدورها فى دائرة الفلسفة العربية بمعناها الواسع فإننا نجد المعتزلة من جهة والفلاسفة من جهة أخرى هم من بين الممثلين للفلسفة العربية الأكثر تأييدا للعقل والأكثر ذهابا إلى أن العقل هو المعيار، وهو الحكم، هو الدليل والمرشد.

وأعتقد من جانبى بأننا إذا وضعنا فى اعتبارنا واقعنا العربى المعاصر وما نتحدث عنه من قضايا ومن بينها قضية التجديد، قضية الأصالة والمعاصرة، قضية التراث بوجه عام فإن الإتجاه العقلى عند الفلاسفة يعد أكثر فائدة لنا من الإتجاه العقلى عند المعتزلة - لقد غلب على المعتزلة إثارة مجموعة من القضايا التى يغلب عليها الطابع اللفظى، أى تعد بعض مباحثهم كلاما فى كلام، بالإضافة إلى أننا لا يمكن أن ننسى أنهم حاربوا خصومهم فى الرأى بشدة وعنف بل وصل بهم الحال إلى أن ينظروا إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر نظرة غير موضوعية.

لقد بلوروا هذا الأصل الخامس الذى يعد أساسا أصلا عمليا وليس أصلا نظريا وهذا يقلل من قيمة النظرية الفلسفية العقلية، أقول لقد بلوروا هذا الأصل حول آراء تتفق مع أقوالهم (المعروف) وآراء لا تتفق مع أقوالهم (المنكر). لقد اتجهوا إلى التعصب والعقلانى لا يتعصب لرأيه بأى صورة من الصور وهل يمكن أن ننسى ما حدث بالنسبة لمشكلة خلق القرآن، هل نجد مفكرا عقلانيا قديما كان أو معاصرا يستطيع الجمع بين العقلانية من جهة،

والتعصب من جهة أخرى، إن التعصب لا يأتى إلا من معسكر اللامعقول - ولا يدلنا إلا على ضيق الأفق بل البلادة فى الفهم. هذا جانب لابد من التركيز عليه فى مناهجنا الفلسفية.

وإذا قيل بأن المعتزلة اتجهوا إلى العقل فهذا صحيح ولكنهم إلى حد كبير جدا قد حصروا العقل فى دائرة تأويل الآيات القرآنية، وإذا رجعنا إلى معجم من المعاجم الفلسفية فلن نجد من معانى المذهب العقلى، قصر استخدام العقل على تأويل النص الدينى.

ومهما يكن من أمر فهم أفضل فرقة كلامية. وإذا أثرنا مجموعة من الأسئلة تدور حول الربط بين الماضي والحاضر، تدور حول ما يمكن أن نأخذه من التراث فإننا سنجد مجموعة من الحلول والإجابات على هذه الأسئلة فى تراث المعتزلة فى حين أننا نقول لبقية الفرق الإسلامية ودائما لقد أديتم دورا فى الماضي، الماضى البعيد، وليس من الضرورى أن يكون لكم دور، أى دور فى حاضرنا أو فى مستقبلنا.

ونود أن نقف وقفة قصيرة عند أصل من أصول المعتزلة وهو أصل العدل وذلك حتى يتسنى لنا الربط بعد ذلك بين دور العقل فى تراثنا الماضى وبين الإحتكام إلى العقل فى حياتنا المعاصرة كما سنقف من خلال حديثنا عن التأويل وقفة قصيرة عند ابن رشد.

لقد بحث المعتزلة فى أصل العدل بحثا دقيقا مستفيضا ويمكن القول بأن هذا الأصل يعد من أهم الأصول التى بحثوا فيها والتى فرعوا عنها مجموعة من الفروع الهامة.

لقد تفرع عن أصل العدل ذهاب المعتزلة إلى القول بحرية الإرادة وذهابهم إلى القول بالحسن والقبيح العقليين كما قالوا بالصلاح والأصلح إلى آخر تلك الآراء والأفكار والنظريات التى تحتل أهمية كبيرة ليس عند المعتزلة فحسب بل فى فكرنا العربى.

إنّ المعتزلة حين قالوا بأصول خمسة وهى التوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، قد ركزوا كثيرا وتركوا الكثير من الدراسات والكتب والرسائل حول الأصل الأول والأصل الثانى من هذه الأصول الخمسة ولذلك يقال عن المعتزلة إنهم أهل العدل والتوحيد.

بالإضافة إلى أن الأصول الثلاثة الأخرى إنما يرتبط بعضها بأصل العدل الذى يعد أهم أصولهم كما سبق أن قلت، فالأصل الثالث وهو الوعد والوعيد يعد متفرعا إلى حد كبير عن أصل العدل عندهم إذ أن الثواب (الوعد) والعقاب (الوعيد) يترتب على القول بعدالة الله سبحانه وتعالى ويترتب على القول بحرية الإرادة وقد سبق أن أشرت إلى أن القول بحرية الإرادة يعد بدوره متفرعا عن أصل العدل عندهم.

لقد ذهب المعتزلة فى دراستهم لأصل العدل إلى القول بأن الإنسان يعد مخيرا لا مجبرا ومن أجل ذلك نجدهم يقومون بالرد على الحجج التى قدمها الجبرية أو الجهمية أتباع جهم بن صفوان وأرسلوا الوفود لمناظرة جهم وأصحابه من القائلين بالجبر وأن الإنسان لا يعد حرا بأى وجه من الوجوه.. هذه دعوة تفيدنا إذا ركزنا عليها فى مناهج الفلسفة بمدارسنا وجامعاتنا.

قلنا إنّ المعتزلة قد اتجهوا إلى حد كبير اتجاها عقليا، وذلك على الرغم من فهمهم القاصر فى بعض الأحيان لما تعنيه كلمة العقل ولما يعنيه الإتجاه أو المذهب العقلانى.

ونود الإشارة إلى أننا نلاحظ أن درجة الإقتراب أو الإبتعاد من العقل إنما يحددها مدى التزام المفكر أو ابتعاده عن التأويل.

وسنقف وقفة قصيرة عند فلسفة ابن رشد نظرا لأننا نعتقد من جانبنا إذا أردنا الربط بين الماضى والحاضر والمستقبل فلا مفر من الإعتماد على

التأويل وإذا قلنا للعقل وداعا. فمعنى هذا أننا سنجد مناهج الفلسفة وكأنه لا فائدة منها فى حياتنا الحاضرة أو المستقبلة.

يذهب ابن رشد فى مجال دفاعه عن التأويل والقياس العقلى إلى أن طباع الناس متأصلة. فمنهم من يصدق بالبرهان، ومنهم من يصدق بالأقاويل الجدلية تصديق صاحب البرهان، إذ ليس فى طباعه أكثر من ذلك، ومنهم من يصدق بالأقوال الخطابية تصديق صاحب البرهان بالأقاويل البرهانية.

وهكذا يتبين لنا كيف أن ابن رشد كواحد من الفلاسفة كان يدعو إلى تأويل الظاهر واللجوء إلى القياس العقلى، محددا لنا معنى التأويل وشروطه وقواعده، هذا جانب لابد من التركيز عليه فى مناهجنا الفلسفية.

إحياء التراث على أساس العقل يعد واجبا علينا إذن إذا أردنا أن نجد فلاسفة فى عالمنا العربى الإسلامى بعد انقطاع طال واستمر ثمانية قرون ومهما يكن من أمر فإن إنشاء أول قسم للفلسفة وهو قسم الفلسفة بآداب القاهرة يرجع إلى نصف قرن تقريبا ونصف قرن لا يكفى لأن يكون لدينا فيلسوف من الفلاسفة.

لابد فى مناهج الفلسفة وحين القيام بإحياء التراث، من خلع مفهومات جديدة على أفكار فلاسفتنا ومن هنا فإننا يمكن أن نأخذ منهم الطريق أو المنهج وليس من الضرورى أن نأخذ منهم المشكلات التى بحثوا فيها وخاصة إذا كانت مشكلاتنا تاريخية مرتبطة بزمان معين أو مكان معين، نأخذ منهج المنهج العقلى وعلى أساس هذا المنهج العقلى نبحث فى مشكلاتنا.

وإذا تساءلنا عن أهمية وضرورة الفلسفة فى عالمنا العربى الإسلامى فإننا نستطيع القول بأنها من ألزم الأشياء لنا. فمهما تقدم العلم فلن يستغنى عالمنا العربى عن الفلسفة العربية وعن فلاسفة عرب يمثلون دور الرواد

والمعبرين عن حضارة عصرنا. فلاسفة يتأثرون بقيم الإسلام وما أعظمها من قيم يجد فيها الدارس عمقا وأصالة ويستفيد منها فى بلورة أفكار مذهبه.

الحاضر إذن – إذا التزمنا بالدقة والموضوعية – لا يوجد فيه فلسفة دقيقة ولا يوجد فيه فلاسفة، فما هو الحال بالنسبة لمستقبل الفلسفة العربية؟

سؤال يتردد كثيرا ومن جانبى أقول إننا لو التزمنا بإحياء التراث وتقدمنا خطوة أو خطوات نحو مشكلة الأصالة والمعاصرة فقد نجد فى المستقبل فيلسوفا أو أكثر من فيلسوف وإذا كان هذا يعد أمرا صعبا إلا أنه يعد واجبا علينا للأهمية الكبرى للفلسفة والفلاسفة، إن ماضى الفلسفة كان مزدهرا وحاضرها الآن – يعد مظلما تماما. ومستقبلها قد يكون مشرقا إذا تجاوزنا الأسباب التى أدت إلى انهيارها فى الحاضر وهذه الأسباب منها ما أشرنا إليه، ومنها ما فضلنا أن نسكت عنه ونخفيه وما خفى كان أعظم، ولكن أملنا أن نجد فلاسفة فى عالمنا العربى فى مستقبل أيامنا نظرا لأننا لا نستطيع الإستغناء عن الفلسفة العربية فى تكوين شخصيتنا المصرية.

ونود فى آخر دراستنا أن نشير إلى مجموعة من النقاط والعناصر والتى تدور حول الدفاع عن الفلسفة وسنركز على بيان مدى ارتباط وظيفة الفلسفة بواقعنا المصرى المعاصر وذلك من خلال تحديد معنى الفلسفة من جهة، وخصائص التفكير من جهة ثانية، والربط بين إيجابيات ماضى تراثنا وما نحتاج إليه فى حياتنا المعاصرة من جهة ثالثة.

نود أن نشير إلى أن الفلسفة لا تعد كما يزعم الكثيرون بعيدة عن الحياة والمجتمع. فالفيلسوف لا يعيش فى برج عاجى كما يظن خطأ. وكل فيلسوف ترك لنا مذهبا فلسفيا إنما كان متأثرا ومعبرا عن الواقع الذى يعيش فيه وفى نفس الوقت كان قائلا بأفكار خلاقة مبدعة تنير للإنسان طريقه وتؤدى وظيفة اجتماعية محددة. فأغلب الثورات الإقتصادية والسياسية إنما

قامت على أساس أفكار فلسفية محددة وكل تغيير أو إصلاح جذرى إنما يتم بناء على الإيمان بفكرة من الأفكار الفلسفية.

ومن هنا يمكن القول بأن للفلسفة وظيفة اجتماعية أى لها بعدها الإجتماعى وما يرتبط به من بعد سياسى.

وإذا قلنا ببساطة شديدة إن الفلسفة تعنى البحث عن حقيقة الأشياء وتجاوز ظاهر الشئ إلى البحث والتنقيب عما وراء هذا الظاهر. إذا قلنا إن الفلسفة لا تكتفى بقراءة السطور، بل تبحث فيما بين السطور، فإنه بناء على ذلك يمكن القول بأن الفلسفة لها وظيفتها التحليلية ووظيفتها التركيبية.

ونود الآن أن نشير بإيجاز ووضوح إلى الفرق بين الوظيفتين حتى يتسنى لنا إدراك صلة الفلسفة بواقعنا العربى.

فبالنسبة للوظيفة التحليلية لا يخفى علينا أن الفلسفة تؤمن بهذه الوظيفة سواء فى ميدان العلوم أو فى حياتنا اليومية، والدليل على ارتباط هذه الوظيفة بالجانب الخاص بميدان العلوم أننا نجد فلاسفة وعلماء فى نفس الوقت كنيوتن ورسل، وأينشتين. والدليل على ارتباط هذه الوظيفة بحياتنا اليومية أننا حينما نقول إنّ النار قد أدت إلى إحراق مسكن من المساكن فمعنى هذا أننا نؤمن بوجود سبب ومسبب أى سبب وراء كل ما يحدث من ظواهر فى حياتنا اليومية.

هذا عن الوظيفة التحليلية، أما الوظيفة التركيبية فإنها تعنى أساسا إقامة بناء تركيبى للكون والإنسان وتبين العلاقة بين الكون المادى من جهة والإنسان من جهة أخرى ووجه التفاعل بينهما، كما أن الفلسفة بمقتضى وظيفتها التركيبية تبحث فى مشكلات عديدة من بينها هل نجد للحياة هدفا أم لا؟ وما معنى الحياة؟ وهل هناك ضرورة لوجودنا على ظهر الأرض؟ وما معنى التشاؤم؟ وما معنى التفاؤل؟ وما معبرنا بعد الموت، وهل نحن أحرار أم نحن مجبرون لا حول لنا ولا قوة، هل تخضع أخلاقنا للأنانية أم أنها

تسودها الغيرية وحب الخير للآخرين إلى أخر تلك التساؤلات والمشكلات التى تبحث فيها الفلسفة.

والمتأمل فى واقعنا العربى المعاصر، واقعنا الذى نعيشه ونحياه، يلاحظ أن واقعنا فى واد، والفلسفة فى واد آخر، وهذا لا يعد تقصيرا من جانب الفلسفة، بل التقصير من جانبنا نحن، فإذا قلنا إن الفلسفة تهتم بالبحث فيما وراء الظاهر، تهتم بالبحث فى حقيقة الأشياء إلا أننا فى حياتنا نميل إلى السطحية وعدم التعمق. ويغلب على كثير من كتابنا حين يتناولون بالدراسة والبحث فى أية مشكلة من المشكلات، الميل إلى عدم التعمق، الميل إلى عدم الإحاطة بكل جوانب الموضوع الذى يبحثون فيه.

يضاف إلى ذلك انتشار التفكير الخرافى فى حياتنا الإجتماعية وواقعنا الذى نعيش فيه ونحياه، إنّ مساحة اللامعقول فى عالمنا العربى المعاصر تعد أضعاف أضعاف مساحة المعقول. وللأسف الشديد نجد أناسا من المشهورين كتابا أو متحدثين هم الذين يدعون إلى الخرافة واللامعقول، ونظرا لشهرتهم إعلاميا فإن الناس بالتالى تصدقهم فى أقوالهم، فى حين أن الشهرة عمياء، وليس من الضرورى للشخص المشهور أن يكون كلامه صوابا.

إننا لو حكمنا العقل فى حياتنا، العقل الذى على أساسه تقوم أكثر المذاهب الفلسفية فإن أحوال مجتمعاتنا ستكون على أحسن صورة ممكنة بحيث تلحق بركب الحضارة.

إنّ الفلسفة كأى علم من العلوم، كأى فن من الفنون لها خصائصها والتى بدونها لا يعد الفكر فكرا فلسفيا. وللأسف الشديد لا نجد صدى لهذه الخصائص فى حياتنا الفكرية وفى واقعنا الإجتماعى. والقارئ لابد أن يدرك صدق ما نقوله إذا عرف أن من خصائص الفكر الفلسفى، الإستقلال بمعنى عدم تقليد أفكار الآخرين، والتفكير الهادئ المتزن الذى يبعدنا عن

التعصب، أيضا المرونة بمعنى أن الإنسان يجب ألا يتردد فى التخلى عن آراء يعتقد بها إذا تبين له أنها ليست صحيحة.

وإذا أردنا أن نبين أهمية النقد كخاصية من أهم خصائص الفكر الفلسفى فى حياتنا وواقعنا الإجتماعى وربطها بمناهجنا الفلسفية قلنا إن النقد يعنى فتح باب الإجتهاد فى كل ما يعرض لنا من قضايا، النقد يمثل الحركة لا السكون والجمود ..إن المعتزلة على سبيل المثال قد حاربوا الجمود والإنغلاق ودعوا إلى الشك الذى يعد خيرا من اليقين الذى لا أساس له. فالشك عندهم يعد ضروريا لكل معرفة وإن أول واجب على المكلف هو الشك بحيث أن النظر العقلى إذا لم يسبقه حالة شك فلا فائدة منه ولا جدوى منه. ومن هنا كان المعتزلة حريصين على التفرقة بين وظيفة العقل من جهة وبين ما تؤدى إليه العادات والتقاليد والقيود الموروثة من جهة أخرى. إنّ العقل يؤدى إلى الإنفتاح، والعادات والتقاليد تؤدى إلى الإنغلاق إذا كانت عادات نكون فيها مجرد مقلدين لغيرنا دون فهم.

إنّ التفكير النقدى عند المعتزلة وعند الفلاسفة يمكن أن يفيدنا فى محاربة الخرافات والأوهام التى مازالت للأسف الشديد منتشرة بين كثير من الأفراد.

ولعل الشيخ محمد عبده كان على حق فى دعواته الإصلاحية لأن هذه الدعوات كانت تقوم أساسا على النقد، لقد دعا إلى إصلاح الأزهر فى عصره وذلك بطرق عديدة من بينها المطالبة بإلغاء دراسة الكتب العقيمة كالشروح والحواشى التى يلقنها الشيوخ لمريديهم وطلابهم المغلوب على أمرهم دون فهم. والدعوة إلى إدخال المواد الحديثة فى مناهج التعليم الأزهرى حتى ينفتح طلابه على الحضارة الأوروبية الحديثة. صحيح أن ما دعا إليه محمد عبده كان مجالا للهجوم عليه ولكن هذا الهجوم كان صادرا عن أناس يرتضون الكسل لأنفسهم بحيث أنهم ينفرون من تغيير الأوضاع

التى كانت سائدة، وكلما نفض الناس عن أنفسهم رداء الكسل وتكـون لديـهم الحس النقدى كلما ابتعدوا عن الهجوم على التجديد.

والواقع أن أى حركة تجديدية لابد وأن تقـوم علـى العقـل والنقـد فيكـون مصيرها فى النهاية الخلود والإستمرار فطه حسين خالد لحسه النقدى ومحمد عبده خالد لحسه النقـدى و هكذا نجد أن العقل أو النقد يعد قادرا على أن يواكب بين الماضى ، والحاضر والمستقبل. هذا ما يجب التركيز عليه فى مناهجنا الفلسفية.

والتيار الفلسفى لكى نجعله مستمرا فلا مناص من الرجوع إلى العقل لكى نواكب تيار الحضارة وعلى أن ندفع بأمتنا العربية إلـى الأمـام. إنّ أى فكرة تقليدية تعبر عن التخلف، تعبر عن الرجوع إلى الخلف أو الوراء، وإذا زعم أصحاب الأفكار التقليدية فى مجتمعنا العربى المعاصر أن أفكارهم تؤدى إلى الصعود إلى الأمام فإن حقيقة الأمر أنه يعد صعودا إلى الهاوية.

إنّ الدارس المحلل لحركة النهضة الأوروبية يجد أن أوروبا لم تتقدم إلا لأنها تمسكت بالنقد، رفعت فلاسفة العقل ومنهم ابن رشد فى أعلى مكانة. أما نحن العرب فقد فضلنا من بين الإتجاهـات الفكريـة اتجاهـات لا تعـد اتجاهات عقلية ولا يعد أصحابها فلاسفة كاتجاه الغزالى واتجاه ابـن تيميـة وغيرهما من اتجاهات تهاجم العقل ولذلك تقدمت أوروبا وتأخر الشرق، تأخر العرب.

إننا لو تأملنا حياتنا الفلسفية اليوم فأعتقد مـن جـانبى أن الإعتقـاد بالتشاؤم أفضل من الإعتقاد بالتفاؤل، لقد أسرفنا فى طبـع الـتراث دون أن نسأل أنفسنا أولاً هل التراث كله يعبر عن العقل أم أن بعضـه يعـبر عـن اللاعقل ومن هنا فلا يؤدى إلى وجود فلاسفة إن إجابتى عن هذا السـؤال إذا كانت تدخل فى مجال التشاؤم فإن سبب ذلك أننى لا أريد أن أحلق فى سـماء الخيال والأحلام، سماء اللامعقول. وأعتقد أن من يقول بغير ذلك هو فرد قـد غلبت عليه العاطفة والإنفعال وهما لا صلة لهما بالتفكير الفلسفى من قريب أو من بعيد.

ولكن هذا كله لا يمنع من السعى بكل قوتنا إلى أن نقدم للعالم أيديولوجية عربية عصرية، إيمانا من جانبنا بأن الفكر العربى فى حد ذاته يعد فكرا متفتحا يعد فكرا يمكنه أن يستوعب الكثير من التيارات والإجتهادات. وإذا كان فكرنا العربى يعد فكرا متفتحاً فإنه بالإمكان إذن أن نقيم على أساسه أيديولوجية عصرية نقدمها إلى عالمنا المتحضر شرقا وغربا.

ولابد من التأكيد على القول بأننا داخل مناهج الفلسفة لا نستطيع التقدم إذا نظرنا إلى التراث قديما من خلال قوالب ضيقة متحجرة. نعم لن يكون بإمكاننا السعى نحو الأمام حتى لو ملأنا أرجاء العالم كله صراخا وضجيجا فليست العبرة بالفهم الضيق ولكن العبرة أساساً بالفهم المتفتح والإيمان بمبدأ الإجتهاد والتأويل.

لقد ابتعدنا وابتعدنا كثيرا للأسف الشديد عن الدعوة إلى الإجتهاد، الدعوة إلى التأويل، فوصلنا إلى ما وصلنا إليه من حالة يرثى لها، ولن نفيق من تلك الحالة إلا إذا اعتقدنا بأن الخير كل الخير هو فى النظرة المتفتحة، النظرة التى تجعل العقل معيارا وأساسا. وكلما ابتعدنا عن العقل، كلما باعدنا بيننا وبين الأمم المتحضرة ووصلنا إلى حالة من التخلف يسودها الظلام من كل جانب.

إننا أمام طريقين لا ثالث لهما: إما أن نؤمن بالعقل فى فهم الدين وهذا فيما أرى، طريق الحق، طريق الصواب، الطريق إلى تقديم أيديولوجية عصرية وإما أن نباعد بيننا وبين العقل، أو نسخر من العقل، وهذا هو طريق الضياع، الطريق المغلق، إننا إذا سخرنا من العقل فسيسخر منا العالم كله ويجعلنا مادة للضحك ونكون نحن بأنفسنا قد تسببنا فى ضياعنا وأصبحنا مجالاً للسخرية بين الأمم، أصبحنا - كما قلت - أضحوكة للعالم كله. هذا ما يجب أن ننبه إليه فى مناهجنا الفلسفية وهذه هى الرؤية النقدية لمناهجنا الفلسفية. الرؤية التى ستؤدى بنا مستقبلاً إلى أن يكون الحال غير الحال، وإن كان أكثرهم لا يعلمون ولا يعقلون ولا يدركون.

الفصل السادس: العرب ونماذج من القضايا السياسية
(من منظور نقدى)

ويتضمن هذا الفصل العناصر والمجالات التالية:

أولاً: كيف يمكن كتابة التاريخ بطريقة منهجية دقيقة؟
ثانيا: العقلية العربية وأيديولوجية العمل السياسى
ثالثاً: أزمة الخليج بين الحاضر والمستقبل
رابعاً: هل تسهم الأحزاب فى البناء الثقافى؟
خامساً: حرب أكتوبر والرؤية المستقبلية

" الدليل على أن أكثر من يكتبون التاريخ عندنا تغلب عليهم الجوانب الشخصية، أنهم يقولون بآراء حول هذه الشخصية أو تلك من الشخصيات السياسية، وذلك فى أثناء حياتها، ولكنهم سرعان ما يقولون بآراء أخرى تختلف اختلافا جذريا عن الآراء الأولى. نعم يقولون بآراء أخرى تتعارض مع آرائهم الأولى، ومن هنا كان ما يكتبونه داخلاً فى مجال تصفية الحسابات الشخصية، وإن كان أكثرهم لا يعلمون ولا يعقلون ولا يدركون".

أولاً

كيف يمكن كتابة التاريخ بطريقة منهجية دقيقة ؟

"إن الخلافات فى الرأى بين بعض الكتاب الذين يزعمون لأنفسهم أنهم من المؤرخين، وهم ليسوا بمؤرخين من قريب أو من بعيد، تؤدى إلى كتابة التاريخ بطريقة مشوهة، طريقة عرجاء، طريقة كسيحة".

أولاً:
كيف يمكن كتابة التاريخ بطريقة منهجية دقيقة؟

القارئ والدارس لما يكتب الآن من دراسات في مجال التاريخ، وخاصة تلك التي تتناول دراسة وتقييم إنجازات بعض الشخصيات السياسية، يجد أن تلك الدراسات لا تعد داخلة في مجال التاريخ كما ينبغي أن تكون كتابة التاريخ، وخاصة الكتابة عن الشخصيات. إنها أقرب إلى المهاترات وتصفية الحساب مع أناس يغلب على أكثرهم أنهم غادروا الحياة الدنيا.

إن الخلافات في الرأي بين بعض الكتاب من جهة وأفكار بعض الزعماء وإنجازاتهم من جهة أخرى، تؤدي إلى كتابة التاريخ بطريقة مشوهة، طريقة ليست داخلة في التاريخ من قريب أو من بعيد. إن الكاتب يجد الفرصة أمامه لكي يقول ما شاء له القول، ويتخيل أشياء مجرد تخيل ليس لها بالواقع أية صلة ويأخذ في الكتابة ونسبة أشياء لنفسه أو غيره، لم تحدث.

والدليل على أن أكثر من يكتبون التاريخ عندنا تغلب عليهم الجوانب الشخصية، أنهم يقولون بآراء حول هذه الشخصية أو تلك من الشخصيات السياسية وذلك في أثناء حياتها ولكنهم سرعان ما يقولون بآراء أخرى تختلف عن تلك الآراء الأولى. نعم يقولون بآراء أخرى تتعارض مع آرائهم الأولى ومن هنا كان ما يكتبون داخلاً في مجال تصفية الحسابات الشخصية.

من العجيب أننا في عالمنا العربي بالذات، لا نجد التزاماً بالتخصص. فمن السهل جداً أن يزعم أي فرد لنفسه أنه مؤرخ ويكتب في مجال التاريخ وليس عنده أي معرفة بمنهج البحث التاريخي ولا بالأسس التي على أساسها

يكتب الفرد منا فى مجال التاريخ، نعم لا نجد عندنا فى مصر أى إلتزام بالتخصص. وما يقال عن مجال التاريخ يقال عن مجالات أخرى مما يدلنا على أننا لا نحترم التخصصات. ويقينى أن تاريخ مصر لو قام بكتابته أناس متخصصون لما وجدنا هذا الخلط وهذا الإضطراب وهذا التشويه وهذا التجريح سواء للوطن من جهة أو للزعماء والحكام من جهة أخرى.

لقد وضعنا هالة كبيرة حول بعض الكتاب وفتحنا لهم أبواب الصحف والإذاعة والتليفزيون وتكلموا كثيراً فاعتقد الناس بأن هؤلاء الناس لابد وأن تكون كتاباتهم فى مجال التاريخ كتابات صحيحة، لأنهم موضع الثقة فى وسائلنا الإعلامية، فى حين أن ما يكتبونه هو مجموعة من المهاترات الشخصية. ولو شئنا الصراحة لقلنا إن الصحافة مسئولة عن هذا، لأن الصحافة نادراً ما تلتزم بالرجوع إلى المتخصصين فى كل مجال من المجالات ومن بينها مجال التاريخ. إذا شئنا الصراحة لقلنا إن التليفزيون بالذات هو المسئول عن هذه الظاهرة التى يؤسف لها، أى ظاهرة كتابة التاريخ دون التزام بقواعد البحث التاريخى، لأنه سلط الأضواء حول أناس يتكلمون فى كل شئ ونادراً ما يفهمون أى شئ، أى لا نجد التزاماً فى وسائلنا الإعلامية بالتخصصات وهذا قد انعكس على مجال التاريخ كمجال من المجالات المتخصصة. ولذلك كان شيئاً طبيعياً أن تظهر كتابات يزعم أصحابها أنها كتابات تاريخية وهى ليست من التاريخ فى شئ حتى وقع الشباب فى حيرة من أمرهم. كل يوم تصدر كتابات من صحفيين وغير صحفيين، من أدباء وغير أدباء حتى عانت مطابعنا من كثرة ما يطبع من كتب يقال عنها إنها كتابات تاريخية وهى مجرد مجموعة من الشتائم والمهاترات. ومما ساعد على رواجها وعدم الكشف عما فيها من أخطاء هو إننا فى مصر حالياً لا نجد مؤرخين بارزين ومن هنا فإن المشتغلين بالتاريخ عندنا حين يقدمون لنا كتباً فإنها كتب لا تعنى إلا بسرد الحوادث.

إن المشتغلين بالتاريخ عندنا إذا كان لديهم القدرة على إدراك الجزئيات إلا أننا لا نجد عند واحد منهم القدرة على ربط الحوادث بعضها بالبعض الآخر، بالإضافة إلى أننا لا نجد عند واحد منهم مذهباً في التاريخ.

وفى تصورنا أننا لو تساءلنا عن كيفية كتابة التاريخ دون تجريح فإن هذا لن يتم إلا بما يلى على سبيل المثال لا الحصر:-

١- ينبغى الإلتزام بذكر الروايات المتعارضة دون تشيع. وإذا تشيعنا لرأى فينبغي أن نبين أسباب تشيعنا لهذا الرأى. إن ذكر الروايات المتعارضة يجعل القارئ في موقف الموازن بين مجموعة من الآراء. أما التركيز على رأى وإهمال بقية الآراء فإن هذا لا يعد التزاماً بمنهج البحث التاريخى.

٢- لابد من الإشارة إلى المراجع والمصادر الموثوق بها إذا أردنا كتابة التاريخ دون تجريح. وإذا كنا نجد الآن كتابات تاريخية هى أقرب إلى التجريح فإن هذا يعد شيئاً متوقعاً لأن من يكتبون تلك الكتابات لا يعتمدون على مصادر ومراجع موثوق بها.

٣- الدقة فى النقل، إذ لا يمكن كتابة التاريخ دون تجريح إلا إذا التزمنا بالدقة فى النقل ومن النادر أن نجد عند من يكتبون فى التاريخ التزاماً بالدقة فى النقل وهذا قد أدى إلى كتابات سطحية مليئة بالأخطاء.

٤- أن ننظر إلى كل خبر نظرة خالية من المحبة والبغض. إذ لا يخفى علينا أن التجريح أساساً إنما يتمثل سببه فى أن أحكامنا على الأحداث التاريخية إنما تكون متأثرة بمحبة شخص ما وبغضنا لشخص آخر، وهذا يدفعنا إلى تجريح ما نبغضه.

٥- ينبغى الإلتزام بالشروط الخاصة بالمتواترات فلا يوجد تاريخ دون الإعتماد على المتواترات والعجيب أننا نجد أغلب إن لم يكن كل من يتصدون للتاريخ عندنا فى مصر لا يلتزمون بشروط المتواترات ومن

هنـــا نجدهم يقعـــون فى أخطاء لا حصر لها. ومما يؤسف له أننـــا نجـــد عند الغربيين التزاما بتلك الشروط ولا نجد ذلك عند العرب بوجه عام. إن الباحثين الغربيين يضعون مقاييس صارمة يحكمون بمقتضاها علـــى كـــل حادثة من الحوادث التاريخية أما نحن فلا نجد لدينا أى نوع من الإلـــتزام بتلك الشروط والمقاييس.

٦- ينبغى أن تكون عند المؤرخ نظرة فلسفية. إن المفكر الغربى كروتشـــى يذهب إلى أن كل من يحمل بحق لقب مؤرخ هو فيلسوف أراد ذلك أم لم يـــرد. وإذا طبقنا ذلك فإن ذلك يؤدى إلى القول بأننـــا لا نجـــد مؤرخـــاً إطلاقاً فى مصر المعاصرة.

٧- البحـــث التاريخى له مراحله وشروطه. وكل من يتصدى عندنا فى مصر لدراسة التاريخ، لا يلتزم بتلك المراحل والشروط. إن مراحـــل البحـــث التاريخى تتمثل فى مرحلة التجميع ومرحلة النقد ومرحلة التأويل. فـــهل نلتزم بذلك فى دراستنا للأحداث التاريخية وفى أحكامنا علـــى الزعمـــاء والأبطـــال. الجواب هو كلا. إننا لا نلتزم بتلـــك الشـــروط والمراحـــل والدليل على ذلك أننا نجد عند من يتصدون للدراســـات التاريخيـــة فـــى مصر، ضعفاً فى ملكة النقد.

أقول أخيراً إننا يجب أن نلتزم بتلك الشروط، كما ينبغى أن نرضـــى ضمائرنا فى حكمنا على الأحداث وفى حكمنا على الأفراد. ولا شك أنه ممـــا يساعد على التخلص من التجريح الذى يلتزم به كثير ممن يتصدون للتـــاريخ عنـــدنا ، نقول إنه مما يساعد على ذلك أن يكون الـــدارس مطلعـــاً اطلاعـــاً واسعاً. إن هؤلاء الذين يزعمون لأنفسهم أنهم من المؤرخين يجـــهلون حتـــى أسماء مؤرخينا العرب من أمثال ابن خلدون والمسعودى وابن شـــاكر وابـــن الأثير والبيرونى والقزوينى والخطيب البغدادى والطبرى وابن قتيبـــة وابـــن النديم. إنهم يجهلون حتى دراسات الغربيين وفلاسفة التاريخ فى الغرب مـــن أمثال شبنجلـــر وهيجل وأوجيست كونت والقديس أوغسطين وغيرهم. هـــذا كله يؤدى بنا إلى القول بأن أكثر كتاباتهم إنما تعد جهلاً على جهل.

ثانياً

العقلية العربية وأيديولوجية العمل السياسى

"نحن العرب بين طريقين لا ثالث لهما: إمـــا أن نرتضـــى لأنفسنا أيديولوجية محددة المعالم للعمل الفكرى والسياسى وهنـــا يكون التقدم، تكون الحياة، وإما أن ندور حول أنفسنا فى دوائـــر مغلقـــة، دوائر ترفض كل فكر عقلى تقدمى بناء، دوائر تســـرف فى إصدار أحكام تكفير الإنسان لأخيه الإنسان، وبحيث أصبحـــت أشد خطراً من محاكم التفتيش، وهنـــا تكـــون الرجعيـــة، يكـــون الصعود إلى الهاوية، وبئس المصير، وإن كان أكثرهم لا يعلمون".

ثانياً
العقلية العربية وأيديولوجية العمل السياسى

قرأت بإمعان واهتمام مقال الدكتور عبد الصبور شاهين بعنوان: إسلام... أو قومية على صفحات جريدة الأهرام والذى تفضل فيه بالرد على الأستاذ محمد أحمد خلف الله.

وأبادر بالقول بأننى إذا كنت سأثير مجموعة كبيرة من الإعتراضات على مقال د. عبد الصبور شاهين، فإن ذلك لا يعنى بالضرورة اتفاقى مع الأستاذ محمد أحمد خلف الله. وكم التقينا فى أكثر من حوار أو ندوة (ندوة مجلة المصور على سبيل المثال) واختلفنا فى نقاط كثيرة. ولكننى أجد واجباً علىّ تصحيح كثير من الآراء الخاطئة والتناقضات العديدة التى وقع فيها د. عبد الصبور شاهين فى مقالته المذكورة، بل إن ضمير الكاتب يأبى نغمة السخرية والتهكم، تلك النغمة السائدة فى مقالته كلها من أولها إلى آخرها . إنها نغمة مرفوضة قلباً وقالباً ولكننا للأسف الشديد نجدها فى مقالته: "إسلام أوقومية". ولا يخفى علينا أن الكاتب إذا لجأ إلى السخرية أو التهكم، فإن ذلك قد يكون إحساساً من جانبه بضعف حججه وأنه لا يملك الدفاع عنها بالعقل والدليل المنطقى ومن هنا يلجأ إلى البلاغة والخطابة تارة، والتهكم والسخرية كما قلت تارة أخرى.

وأود أن أقف مع القارئ عند بعض الأمثلة والنماذج التى تكشف عن أخطاء وتناقضات سواء من حيث المنهج أو من حيث الموضوع.

أولاً: يشير الكاتب إلى أن مفهوم القومية قد طرح فى لجنة الفكر فى الحزب الوطنى عام ١٩٨٦ وأن الرأى قد استقر على أن القومية لا تعدو

أن تكون من منظور الحزب، مجرد إطار تاريخي حديث يربط بين مصر وجيرانها من الشعوب العربية. وإننى أسأل الكاتب قائلاً: ألا يعد ذلك متناقضاً مع الجهد الذى يقوم به الحزب الوطنى فى مجال إعادة العلاقات بين الدول العربية. إننا حين نقول بأيديولوجية العمل السياسى، فإن الأيديولوجية لابد أن ترتكز على أساس فكرى محدد وثابت وإلا لما كانت أيديولوجية. أليست أقوال كاتب المقالة تؤدى إلى تحميل الحزب الوطنى ما لا يتحمله وتؤدى إلى تأويل خاطئ لفكره. إن الإطار التاريخى – ولعلم كاتب المقالة – يعنى الفكرة التى عفا عليها الزمن، الفكرة التى أصبحت غير مناسبة لعصرنا وأيامنا، وذلك كما نقول مثلاً إن موضوع التوفيق بين الدين والفلسفة قد أصبح موضوعاً تاريخياً. إننى أسأل كاتب المقال هذا السؤال لأنه عضو لجنة الفكر واللجنة الدينية للحزب الوطنى الديمقراطى كما جاء فى آخر المقال.

ثانياً: ألا تعد العروبة جنسية وذلك حين نقول إن فلاناً يعد عربى الجنسية والآخر يعد مثلاً أوروبى الجنسية وهكذا. ألا يمكن أن تقوم أيديولوجية العمل السياسى على فكرة العروبة. وإذا لم تقم على تلك الفكرة فماذا يتبقى لنا إذن كعرب. هل نقول إننا أصبحنا أوروبيين، أصبحنا مواطنين أمريكيين؟!!! هل استحقت فكرة العروبة هذا النقد من جانب كاتب المقال وذلك بصورة مباشرة أو غير مباشرة. إننا نقول إن حضارتنا عربية، إن فلسفتنا عربية، إن تاريخ العلوم قد أسهم فيه العرب . وإذا كان كثيراً من مفكرينا غير عرب من حيث الأصل، فإنهم يعتبرون عرباً لأنهم عاشوا فى ظل الحضارة العربية وكتبوا أكثر مؤلفاتهم باللغة العربية وينطبق ذلك على الفارابى وعلى ابن سينا... إلى آخر هؤلاء المفكرين.

ثالثاً: ألم يكن أجدر بكاتب المقال أن يميز بين الفكرة أو الدعوة، وتطبيقاتـــها. فإذا وجدنا أخطاء فى التطبيقات(تطبيق فكرة القومية العربية) فهل معنى ذلك أن الفكرة نفسها تعد فكرة خاطئة. من الأمور التى يؤسف لـــها أن كـــاتب المقال يذكر أحداثاً تاريخية ويفسرها تفسيراً خاطئاً لأنه لا يفرق بيـــن الأيديولوجية من جهة، والعمل أو التطبيق مـــن جهـــة أخـــرى. وبنفس المنطق أرد على الكاتب وأقول: ما رأيك فى مقتـــل الحـــلاج، ومقتـــل السهروردى، ومحنة ابن رشد ونفيه، ومحنـــة القـــول بخلـــق القرآن، وحرق آلاف الكتب الفلسفية وغير ذلك من مئـــات الحـــوادث المؤسفة، هل أنسبها إلى الإسلام، أم أقول بأنها أفعـــال أنـــاس فـــهموا الإسلام فهماً خاطئاً. بل ما رأى كاتب المقال فى التجارة بالدين. هـــل أقول إن السبب فى ذلك هو الدين أم هؤلاء الناس مـــن ذوى النفـــوس الضعيفة والذين أشار إليهم الكندى والغزالى وابن رشد وغـــيرهم. ولا أريد أن أضع النقاط فوق الحروف أكثر من ذلك لأن القـــارئ يـــدرك تماماً ما أعنيه وأقصده.

رابعاً: يقول الكاتب إن الإسلام هو الذى أوجد ما يسمى بالعروبة. والعبـــارة التى يقول بها كاتب المقال تحتاج إلى تعديل بل تصحيح. إننا نتحـــدث عن العرب بعد الإسلام ومعنى هذا أننا نجد عرباً قبل الإسلام. وأنصح الكاتب بالرجوع إلى المؤلفات الكبرى التى تتحدث عن **العـــرب** قبـــل الإسلام. أليس هذا أفضل من إلقاء الأحكام المتسرعة.

خامساً: يصف الكاتب دعوة الذين يميزون بين الدين والدولـــة، بيـــن الديـــن والسياسة، بأنها تعد إفلاساً فكرياً. هكذا وبهذه البساطة. وكنت انتظـــر من كاتب المقال مناقشة هذه الفكرة. ألا تحتاج فكرة الفصل بين الديـــن والدولة إلى مناقشة وسواء اتفقنا معها أم اختلفنا. ألم يكن أجدر بكـــاتب المقال مناقشة أفكار الخوارج وما فيها من تطرف وبدائيـــة، وبعـــض

أفكار ابن تيمية والتى قد لا تخلو من سطحية، وذلك رغم بعض أفكاره الأخرى، ومغالطات بعض أقوال أنصار الدولة الدينية. وإذا كان الكاتب يتحدث عن الحضارة العالمية الراهنة، فمن الذى قال له إن الحضارة العالمية الراهنة تقوم على فكرة الدولة الدينية إننا إذا قلنا بأن الغرب يمثل الآن إلى حد كبير جداً فكرة الحضارة العالمية، فهل النظام السياسى فى الغرب يقوم على الدين؟!!

سادساً: يقول الكاتب إن الحل القومى كان هو الحل السعيد فى نظر الإستعمار... وأن الغرب قد اعتبر الإسلام هو عدوه الألد ووجه إليه كل الحروب والمؤامرات منذ الحروب الصليبية فى المشرق وفى الأندلس فى العصور الوسطى إلى مطلع العصر الحديث مع التوسع الإستعمارى على حساب تقليص الإسلام وهزيمته لو أمكن. والقارئ لهذه الأقوال والأحكام يتساءل قائلاً: ألا يتحمل العرب والمسلمون جزءاً كبيراً من المسئولية. ماذا ننتظر من القوى؟ هل نقول له لابد أن تكون ضعيفاً مثلنا أم أن الأجدى هو أن نقوى أنفسنا حتى نلحق به. إننا الآن وللأسف الشديد نتحدث عن قضايا زائفة، قضايا فكرية وقضايا سياسية.نهاجم علوم الغرب ونصف حضارتهم بالظلام فى حين أن عقليتنا العربية لم تقدم لنا البديل. نقول إن الغرب يهاجم الإسلام والمسلمين ولا نسعى من جانبنا إلى وضع إطار لأيديولوجية العمل السياسى. نقول عن كل مستنير بأنه كافر. لا نتيح للعقلانى جزءاً ولو قليلاً من الفرصة التى تتاح للاعقلانى. أصبح الظلام فينا نحن وليس من الغرب. نتوهم وجود غزو ثقافى وكأن الغزو الثقافى أصبحت له جيوشه وبحيث أصبحنا كالدون كيشوت يحارب طواحين الهواء. إن فكرة القومية لا تحتاج إلى هذا الهجوم، لا يصح أن نصدر عليها تلك الأحكام الجائرة المتعسفة

والمتسرعة. وهل العروبة لا تعد هوية للشخص. وإذا كان الكاتب يشير إلى ما يحدث في لبنان فإننا نقول له وبنفس المنطق ومن نفس المنطلق: وماذا فعل المسلمون؟

سابعاً: يشير كاتب مقال: إسلام أو قومية، إلى موضوع الصحوة في الأوطان الإسلامية، وكيف بدأ كثير من غير العرب في أمريكا وأوروبا يدخلون في الدين الإسلامي. لقد قلت لنفسي وأنا أقرأ هذه العبارات أو الأفكار، إن من أسباب تخلفنا وصعودنا إلى الهاوية أننا نهتم بالفروع الجزئية ولا ندخل في لب القضية. ما الصلة بين فكرة القومية كما يذهب كاتب المقال، ودخول مجموعة من الأفراد في الديانة الإسلامية. وإذا كان يقصد أساساً المفكر جارودي فإنني أفضل أن يكون الحديث عن جارودي بيني وبين كاتب المقال، وسيدرك كاتب المقال أبعاداً جديدة تماما في هذا المجال. ثم إن الحديث عن الصحوة الإسلامية يعد حديثاً خاطئاً فيما أرى من جانبي، فالإسلام ثابت ومستمر منذ وجد وإلى انتهاء الخليقة. والعيب ليس في الإسلام، ولكن العيب في التفسيرات الخاطئة للإسلام. ورحم الله الشيخ محمد عبده حينما تحدث عن مسلمين بلا إسلام وإسلام بلا مسلمين. لقد تحدث عنهم حينما قارن أفعال غير المسلمين في أوروبا وأفعال المسلمين في بلاد إسلامية. هل نوجه اهتمامنا إلى مجموعة أفراد أو مجموعة مئات أو آلاف يدخلون في الدين الإسلامي ولا نهتم بنفس القدر من الإهتمام بالبحث في قضايا فكرية وسياسية تعد على جانب كبير من الأهمية لأنها قضايا مصيرية ومن بينها: لماذا تخلف العرب الآن بعد أن كانوا سادة في الماضي؟ ما موقفنا من قضية الأصالة والمعاصرة؟ ما موقفنا من بعض الخرافات التي قد توجد في بعض كتب التراث؟ ما هي أبعاد أيديولوجية العمل السياسي المشترك بين كل الدول العربية؟ لماذا توجه بعض الدول ذات الثراء الكبير، جزءاً من أموالها لحماية الفكر الرجعي التقليدي وشن الحرب على الأنظمة التقدمية والعقلانية والتي تسعى إلى النور وتدعيم التنوير

وتحارب الظلام، تحارب كل نوع من أنواع الإرهاب الفكرى. هل من المعقول ونحن فى عصر الصراعات الكبرى أن نهتم بأن جنياً قد أشهر إسلامه على يد أحد الوعاظ فى إحدى البلدان الإسلامية، وكيف أن الواعظ طلب من الجنى إشهار إسلامه فاقتنع الجنى الذى تلبس جسد فتاة (إحدى جرائدنا اليومية نقلاً عن صحيفة تصدر فى بلدة إسلامية بتاريخ ١٩٨٧/٤/١٧). إن العرب إذا كانوا فى الماضى قد تركوا لنا ثماراً فكرية، فإن ذلك لم يتحقق لهم إلا بعد استفادتهم من الأمم الأخرى وإلا كيف نبرر عدم وجود علوم عربية وفلسفة عربية إلا ابتداء من العصر العباسي. وهكذا إلى أخر الأمثلة. هذه كلها أمور وقضايا ومشكلات ينبغى علينا مواجهتها والبحث فيها. ونحن العرب بين طريقين لا ثالث لهما: إما أن نرتضى لأنفسنا أيديولوجية محددة المعالم الفكرية للعمل السياسي و هنا يكون التقدم، تكون الحياة. وإما أن ندور حول أنفسنا فى دوائر مغلقة، دوائر ترفض كل فكر عقلى تقدمى بناء، دوائر تسرف فى إصدار أحكام تكفير الإنسان لأخيه الإنسان، وبحيث أصبحت أشد خطراً من محاكم التفتيش، وهنا تكون الرجعية، يكون الفناء، يكون الصعود إلى الهاوية وبئس المصير.

ثالثاً

أزمة الخليج بين الحاضر والمستقبل

"إذا كنا نشكو من وجود دعوات خبيثة وتيارات تسعى إلى إيجاد الوقيعة بين العرب، فإننا من جانبنا كعرب خلال أزمة الخليج وما قبلها وما بعدها قد قدمنا لتلك الدعوات كل مساعدة ممكنة، بطريق مباشر تارة، وطريق غير مباشر تارة أخرى. قدمنا لها الوقود الذى تستعين به فى زيادة إشعال النار".

ثالثاً

أزمة الخليج بين الحاضر والمستقبل

إن صح تقديرى فإن أزمة الخليج سوف تتجاوز أبعادها أيامنا الحاضرة حتى تؤثر تأثيراً كبيراً فى مستقبل الأمة العربية. ومن الأمور التى يؤسف لها أن تتقاتل دولتان قتالاً رهيباً وتطلب دولة منهما العون من بلدان غربية بالإضافة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك فى الوقت الذى يشكو فيه العرب من سطوة الغرب ومن الدول الإستعمارية، بل يجاوزون ذلك إلى الحديث عما يسمونه "الغزو الثقافى".

إننى أعتقد من جانبى اعتقاداً لا يخالجنى فيه أدنى شك، أن مستقبل الأمة العربية بعد أحداث غزو الخليج سيكون مظلماً تماماً، وأكثر انهياراً مما نجده فى حاضر أيامنا. فهذه الأزمة لم تكن مجرد حدث عابر لا يترك إلا بصمات من السهل إزالتها والتخلص منها والقضاء عليها، بل إنه ترك آثاراً رهيبة ستظل تحدث أثرها فى العلاقات بين الشعوب العربية بصفة خاصة. وإذا رجعنا إلى تاريخ الشعوب والأمم، فإننا نجد الأبعاد الإعلامية والثقافية والدينية تترك آثاراً أشد بكثير من الآثار السياسية. أقول هذا لكى أنبه الأذهان إلى أننا يجب ألا نخدع بمجموعة من اللقاءات السياسية التى تحدث فى الحاضر وقد تحدث فى المستقبل بين هذا الحاكم أو ذاك من حكام الدول العربية، فإن هذه اللقاءات سوف لا تزيل الجروح الكبيرة والعاهات المستديمة التى حدثت قبيل حرب الخليج وأثناء تلك الحرب، بل امتدت إلى الحاضر الحالى.

ونود أن نسأل سؤالاً محدداً هو: ماذا يريد العرب؟ ما هو تصورهم لمستقبل بلدانهم؟ ما هو موقفهم إزاء التغيرات العالمية الهائلة وخاصة ما يتعلق منها بمستقبل الإتحاد السوفيتى والدور الذى قام به جور باتشوف. من الغريب، بل من المؤسف، أن أكثر بلداننا العربية تتصرف وكأنه ليس على خريطة الدنيا إلا هى وحدها، ولا تضع فى الإعتبار أن العالم أصبح قرية صغيرة كما يقول رجال الإعلام، وبحيث أن أى حدث يتم بالنسبة لبلدة من البلدان، فلابد أن يكون مرتبطاً أومتأثراً ببقية الأحداث التى تتم فى سائر أرجاء الدنيا من قطبها الشمالى إلى قطبها الجنوبى.

لقد تم تعاون بين العراق والكويت أثناء مواجهة إيران. واعتقد حكام بعض البلدان العربية، بأن الخطر كل الخطر إنما سيتمثل فى الغزو الفارسى، وبالتالى تم التعاون بين العراق وبين بعض البلدان العربية ومن بينها الكويت على مواجهة هذا الغزو. وكان هذا التعاون متمثلاً بصفة خاصة فى المساعدات المالية التى تقدمها الكويت للعراق. وبصرف النظر عن حقيقة الخلاف بين العراق وإيران، ووقفة بعض البلدان العربية مع العراق، فإن هذا على الأقل كان يمثل موقفاً محدداً. أما بعد ذلك فماذا نجد؟ نجد التقارب بين بعض البلدان العربية من جهة، وأمريكا والدول الغربية من جهة أخرى، بمثل ما نجد التباعد، بل القطيعة بين دولة ودولة أخرى من البلدان العربية، وبحيث أصبح الحديث عن التعاون العربى المشترك، الحديث عن جامعة للدول العربية، الحديث عن القومية العربية، أصبح الحديث عن هذه الأبعاد أو المجالات، أو الجوانب، حديثاً لا معنى له، لأن الحديث لابد أن يقوم على موجة مشتركة، كاللغة تماماً، فحين أتحدث مع شخص بلغة لا يفهمها، فإنه سوف لا يكون متابعاً لى، وسوف لا أكون متابعاً له إذا كنت لا أفهم اللغة التى يتحدث بها. نعم أصبح حديثاً لا معنى له، لأنه لا توجد قنوات مشتركة، لا توجد جسور متصلة، بل إن الجسور قد تم هدمها، والحوار قد

أصبح كالحوار بين الطرشان، لا يفهم الواحد منا ما يقوله الآخر، فاللغة غير اللغة.

إننا فى عصر لا يفهم غير لغة القوة. هذا من جهة الواقع. ولنعترف بهذا بصراحة وموضوعية. والتغنى بأمجاد العرب فى الماضى لن يجعل البلدان العربية فى حالة إشفاق عليها من جانب الدول القوية ، سواء تمثلت فى أمريكا أو تمثلت في بعض البلدان الأوروبية. ولم تقف الدول القوية الغربية ولا أمريكا بجانب الكويت من أجل قيم ومثل عليا، بل وقفت معها رعاية لمصالحها. هذا هو المنطق السائد فى العصر الذى نعيش فيه. وإذا لم يتحد العرب حول هدف واحد مشترك، ورؤية مستقبلية، فإن العرب سيصبحون فى خبر كان إن صح هذا التعبير، سيصبحون كالهنود الحمر، رغم أنهم ليسوا هنوداً وليسوا حمراً. قلنا هذا منذ سنوات. ولا نتردد فى قوله الآن. وعلى العرب فهم الدرس جيداً وإلا فإنها الكارثة الكبرى والمستقبل المظلم والصعود إلى الهاوية وبئس المصير.

وإذا كنا نشكو من وجود دعوات خبيثة وتيارات تسعى إلى إيجاد الوقيعة بين العرب، فإننا من جانبنا كعرب خلال أزمة الخليج وما قبلها وما بعدها قدمنا لتلك الدعوات كل مساعدة ممكنة بطريق مباشر تارة، وطريق غير مباشر تارة أخرى. قدمنا لها الوقود الذى تستعين به فى زيادة إشعال النار . ألم أقل لكم أيها القراء الأعزاء إن العيب قد يكون فينا نحن، وليس من الضرورى أن يكون العيب فى بلدان أخرى نتصور أنها تقوم بشن الحروب علينا، وبحيث أصبح هذا التصور من جانبنا يماثل تماماً محاربته طواحين الهواء فى الدون كيشوت، الرواية الخالدة.

لقد وجدت أمام العرب العديد من الفرص لإثبات مكانتهم الكبرى بين دول العالم، ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر، أمجاد الماضى، وثراء بعض البلدان العربية الآن، والمركز الجغرافى، سواء لدول الخليج العربية،

أو بقية البلدان العربية، والثقافة التى تعبر عن رسالة السماء الخالدة (كنتم خير أمـــة أخرجت للناس)، (وكذلك جعلناكم أمة وسطا)، بالإضافة إلـــى المـــزج الذى تم فى الماضى، أى التفاعل بين الثقافة العربية والحضـــارات الهنديـــة والفارسية واليونانية، وقوة الروابط الإجتماعية بيـــن أبنـــاء الأمـــة العربيـــة وخاصة فى الماضى، وسواء تمثلت تلك الروابط فى تاريخ الأمة العربية، من حيـــث واقعها، أو تمثلت فى الآيـــات والأحـــاديث النبويـــة، كقولـــه تعـــالى (المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض)، (إنما المؤمنون إخـــوة) وقـــول الرسول (ص) (المؤمن أخو المؤمن لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله).

هذه الجوانب كلها سواء تمثلت فى الماضى، أو تمثلت فـــى حـــاضر الأمـــة العربية قبل أحداث الخليج، تجعل الفرد منا يتأمل فـــى حســـرة وألـــم أحوال ومصير البلدان العربية مستقبلا.

وإذا قيل بأن حرب الخليج قد أدت إلى خروج النظام العربـــى عـــن النظام العربى ، بمعنى أن النظام العربى قد أصبح مرتبطا ارتباطا شديدا الآن وفى المستقبل أيضا بالنظام الدولى العام فإننا يجب أن نفرق تفرقة حاسمة بين التعاون على أساس نظرة القوى إلى الضعيف، والتعاون الذى يتم لخوف دولة عربية أو أكثر من غيرها من البلدان العربية. وما أكثر المعاهدات الدفاعيـــة التى ستتم مستقبلا بين أكثر من دولة عربيـــة وبيـــن أمريكـــا علـــى وجـــه الخصـــوص باعتبارها تكاد تكون أقوى دولة فى العالم الآن. وهذا ســـيؤدى إلى فقدان الثقة بين كل دولة عربية وكل دولة عربية أخرى. إننـــا نـــرى أن فقدان الثقة ستزداد مجالاته فى المستقبل أكثر منه فى الحاضر وفى المـــاضى أيضا.

وما يقال عن الجوانب الدفاعية العســـكرية، يقـــال عـــن الجوانـــب الإقتصادية لقد أحدثت حرب الخليج آثارا مدمرة فى اقتصاد العديد من البلدان العـــربية وعلى رأسها العراق والكويت. وهل يمكن أن نقلل مســـتقبلا مـــن

الآثار الإقتصادية الخاصة بحرب الخليج وما يرتبط بها من قوة النفط الهائلة وحركة العمالة وغيرهما. فرق وفرق كبير بين أنابيب للنفط تم إشعال النار فيها وبحيث يكون الجهد مركزاً حول القيام بإطفائها تجنباً لآثارها المدمرة الهائلة فى أكثر المجالات الصحية وغيرها، وبين القوة النقدية الهائلة التى تعد نتيجة لوجود النفط فى هذه البلدة العربية أو تلك. فرق وفرق كبير شاسع، بين دولة عربية كانت تتحكم فى النفط الذى تملكه، وبين فرض حصار على النفط الموجود بها.

هل يمكن أن نقلل من الآثار الإقتصادية المدمرة التى ستظل عشرات السنين القادمة وكأنها الشبح المخيف والمارد الجبار الذى يلوى أعناق الشعوب العربية وخاصة إذا وضعنا فى الإعتبار أن النفط بالنسبة للعديد من البلدان العربية يكاد يكون المورد الإقتصادى الوحيد والذى على أساسه تملك هذه البلدة أو تلك أسباب قوتها وثرائها فى عالم لم يصبح فيه أى مجال لحياة الضعيف والفقير.

ومستقبل أزمة الخليج فى المجال الدينى سيكون مظلماً أيضاً. وهل يمكن أن ننكر أن حرب الخليج قد أدت إلى إنقسام الحركة الإسلامية؟ لقد قامت بعض الدول الإسلامية بالوقوف ضد الكويت، وقامت دول أخرى إسلامية بالوقوف ضد العراق !!! وهذا يؤدى بالفرد منا حتى برجل الشارع إلى القول بأن ذلك كله يدلنا على ضعف مركز التيار الإسلامى، والتيار الأصولى بصفة خاصة. نعم هذا يعد صحيحاً وسواء أكان بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، ونقصد بها أن التعاون مستقبلاً سيكون بين دول إسلامية ودول غير إسلامية، أكثر من التعاون بين دولة إسلامية ودولة أخرى إسلامية. إن المصالح وحدها هى التى ستحدد وجه العلاقة بين الدول العربية وبصرف النظر عن تيار إسلامى أو تيار غير إسلامى. نقول هذا

ونؤكد على القول به ولنعترف صراحة بهذا الواقع والذى ستتضح الرؤية بالنسبة له مستقبلا أكثر من الحاضر أو الماضى.

وما يقال عن المستقبل المظلم للتيار الإسلامى بعد انقسامه بالنسبة لحرب الخليج وإزدياد هذا الإنقسام فيما نرى مستقبلا، يمكن أن يقال عن الواقع الثقافى مستقبلا. إن المطالب الرئيسية للعراق مستقبلا وللكويت أيضا لن تكون معبرة عن هموم ثقافية، بقدر ما ستكون معبرة عن هموم اقتصادية. ولا يمكن بأى حال من الأحوال التقليل من هذا المجال، المجال الثقافى مستقبلا. لقد خرجت كل دولة من الدولتين بأثقال وأحمال لا حصر لها. والحرب عادة لا تزول آثارها بين يوم وليلة، بل تمتد آثارها إلى سنوات وسنوات طوال، تمتد آثارها إلى المستقبل القريب والمستقبل البعيد أيضا. سنسمع فى السنوات القادمة عن ترشيد ثقافى إن صح هذا التعبير، كما نسمع عن ترشيد للإستهلاك فى المجال الإقتصادى. صحيح أننا لا نجد حضارة فكرية بالنسبة للكويت، بمعنى أن أكثر الكتاب والمفكرين الذين يكتبون فى مجلاتها ودورياتها، إنما هم من غير الكويتيين، ولكن لابد أن نضع فى اعتبارنا أن الآثار المستقبلية للحرب، حرب الخليج، ستضع بصماتها المؤسفة على الإهتمامات الثقافية بالنسبة للكويت. وسينطبق هذا على العراق أيضا وذلك على الرغم من الفروق بين شئون الفكر بالنسبة للكويت، وقضايا الفكر والثقافة بالنسبة للعراق، وخاصة إذا وضعنا فى الإعتبار تاريخ شعب العراق الحضارى والذى يمتد إلى أعمق أعماق الزمان وقبل الميلاد.

نعم ستؤدى حرب الخليج إلى وجود قضايا ثقافية تختلف فى بعض أبعادها عن القضايا التى كانت موضع اهتمام من جانب الباحثين قبل حرب الخليج. ستؤدى إلى إثارة العديد من التساؤلات الفكرية والثقافية وإعادة ترتيب الأوراق فى مجال الثقافة. نعم لابد أن نؤكد على هذا التوقع المستقبلى فى

المجال الثقافى، بل ما يرتبط به من مجالات إعلامية عديدة ستركز على جانب محورى مستقبلاً وإلى حد كبير وهو ما يتعلق بالحديث عن حرب الخليج ودفاع كل دولة من الدولتين عن موقفها، بل إعلام العديد من الدول العربية أساساً والذى سيدور فى فلك محور أساسى واحد إلى حد كبير وهو حرب الخليج.

وإذا كنا نتحدث عن حاضر الأزمة ومستقبلها، فلابد من الإشارة إلى ما يتعلق بآثارها بالنسبة للقضية الفلسطينية. لقد فقدت العراق أكثر قوتها العسكرية. وليس من الضرورى - كما كانت تقول العراق - أن تكون تلك القوة قد أعدت من أجل القضية الفلسطينية، ولكن لابد أن نضع فى اعتبارنا أن نظرة إسرائيل مستقبلاً إلى البلدان العربية ستصبح غير النظرة إليها فى الماضى. فما الذى تخشاه إسرائيل الآن بعد أن قامت البلدان العربية بإثارة العديد من الخلافات بينها، ووصل الخلاف إلى شن الحرب والتأكيد على الفرقة والخصام بين دولتين، كل دولة منهما تعد عضواً فى جامعة الدول العربية. لقد أدت الحرب إلى إضعاف موقف الفلسطينيين وخاصة أن بعض مواقفهم حتى قبل الحرب كانت تدعو إلى الأسف والأسى والحزن . وما طلبه منهم أنور السادات لحل المشكلة أصبح حلماً الآن قد يكون غير قابل للتحقيق. فما بالنا لو وضعنا فى اعتبارنا زوال القوة العسكرية بالنسبة لأكثرمن دولة عربية، وقيام الحرب الإعلامية ليس بين إسرائيل والدول العربية، بل بين الدول العربية بعضها والبعض الآخر. هل من الممكن أن يتحدث العرب مستقبلاً عن أن الخطر لا يتمثل إلا فى إسرائيل. وما الرأى الآن بعد أن تم عقد العديد من المعاهدات بين الكويت وبين أمريكا، أكبر سند لإسرائيل، لدرجة أن العديد من المواليد فى دولة عربية قد أطلقت عليهم أسماء أمريكية وغربية، من بينها اسم بوش. وما الرأى فى الإحتفالات الكبرى

التى تتم فى دولة عربية فى مناسبة قدوم حاكم لدولة غربية تقف موقف المؤيد لإسرائيل.

ينبغى علينا أن نضع فى اعتبارنا أن حرب الخليج ستكون لها الكثير من الآثار مستقبلاً أكثر من الحاضر الحالى. وهى آثار للأسف الشديد، مدمرة ومظلمة ينبغى أن نعترف بهذا رغم ما فيه من تشاؤم، فهذا أفضل لنا من الإفراط فى التفاؤل الساذج الذى أدى بأمتنا العربية إلى نوع من أحلام اليقظة، الأحلام السعيدة التى لا تخرج إلى دائرة الواقع بكل قسوته، بل تدور فى فلك التمنيات، وبحيث أصبحت أحلاماً فى أحلام، أى كلاماً فى كلام.

بل إنه من الصعب مستقبلا الحديث عن أيديولوجية عربية مشتركة، بكل أبعاد تلك الأيديولوجية. فالأيديولوجية تستند إلى ركائز ضرورية من الفهم المشترك، لقد أصبح العربى يخاف من أخيه العربى فى أكثر من دولة عربية. شاع الخوف حتى من العمالة العربية فى أكثر من دولة عربية. ساد الخوف من مشروعات تقدمها دولة عربية لصالح دولة عربية أخرى أليس هذا هو الواقع؟

إننا إذا تساءلنا وهل سيستمر هذا الواقع الحالى وبحيث يتخطى الحاضر إلى المستقبل، فإننا نقول نعم، ونؤكد على القول بنعم بعد التأمل فى كل جوانب حرب الخليج وتحليل ما كتب عن مقدمات حرب الخليج وما حدث أثناء تلك الحرب. وإذا كنا نجد المفرطين فى الأحلام السعيدة يرون غير ما نرى، فلهم دينهم ولنا دين.

إن تزايد الدور غير العربى وتدخله فى شئون الدول العربية ستزداد درجته فى المستقبل وهذا يعد أثراً من آثار حرب الخليج. وهل ستظل العلاقة بين الكويت وإيران، أو بين العراق وإيران مستقبلاً كما هى الآن. هل سيكون موقفنا من أمريكا والعديد من الدول الغربية فى المستقبل القريب والمستقبل البعيد كموقفنا قبل حرب الخليج وأثناء حرب الخليج مباشرة وما بعدها

مباشرة. فى تصـــورى أن أكثر المواقف الماضية والحاضرة ستحدث بالنسبة لها العـــديد من التغيرات الجذرية. لقد كان الدرس مؤلما. لقد تـــرك الـــدرس آثـــاراً لا حد لها فى نفوس وعقول ووجدان أبناء الأمـــم العربيـــة وبحيـــث اهتزت العديد من القيـــم والمفاهيم. وهذا الإهتزاز فيما نرى ليـــس اهـــتزازاً عارضاً بل سيكون اهتزازاً له آثاره الكبرى فى المستقبل، لأنه يعـــد اهـــتزازٌ جوهرياً ورئيسياً.

سنجد كل دولة عربية مستقبلاً حريصة على التركيز على ما يؤكـــد أمنها ومصلحتها الخاصة أكثر من النظر إلى ما يربطها بغيرها من البلـــدان العربية. وسبب ذلك راجع إلى أن الحرب كانت مؤلمة، كانت قاسية، أدت إلى تدمير هائل لقوى استراتيجية لابد أن توضع فى الإعتبار، فـــالحل إذن كمـــا ستراه كل دولة عربية مستقبلاً هو التأكيد على المقولة الشائعة: أنا ومن بعدى الطوفان. وهذا يعد شيئاً يكشف عن مستقبل مظلم، إذ أن الدول الكبرى القوية ستجد الفرصة سانحة للتأكيد على وجودها داخل العديد من البلدان العربيـــة، لأنها ستجد ترحيباً حاراً من تلك البلدان، طالما أن الدرس أدى إلى تغيير هائل فى النظر إلى ما يسمى بالمصلحة العربية.

وإذا تساءلنا عن مصير العلاقات بين دول الخليج مستقبلا وخاصـــة العلاقات الثنائية، فإنه يمكننا القول بأننا نتوقع حدوث العديد من التغيرات التى ستطرأ على تلك العلاقات مستقبلا، بل يمكن القول بأن ما سيؤدى إلى حدوث التغيرات المتوقعة هو إمكانية تغيير نظام الحكم فى دولة أو أكـــثر مـــن دول الخليج، وليس بطرية متشابهة، وليس أيضا فى وقت واحـــد. وعـــدم وجـــود طـــريقة متشابهة وفى توقيت واحد، سيؤدى ذلـــك إلـــى زيـــادة التغيـــيرات المتوقعة بين دولة ودولة أخرى من دول الخليج. وستحاول العديد من الـــدول الغربية القوية العمل على ذلك حتى يتأكد للمواطن العربى أن القرار لن يكون عربيا وصادرا عن إرادة هذه الدولة العربية أو تلك. ستسعى الدول الغربيـــة

إلــى ذلك للتأكيد على نظرتها الماضية لتاريخ الأمة العربية وكيف أن العربى سيظل على خلاف مع العربى الذى يعيش فى بلد أو فى وطن عربــى آخــر وهكــذا ستتداخل الدوائر وبحيث يقوى فى نفــوس أبنــاء الأمــة العربيــة الإحساس بضعف البناء العربى وفقدان الأيديولوجية العربية.

بل إن النظرة من جانب العرب أنفسهم إلى تراثــهم فــى المــاضى ستحدث لها مجموعة من التغيرات، والتى - يكشف بعضها عــن تغيــيرات كبيرة وجوهرية. فإذا كنا نتحدث عن الهوية الثقافية لأبناء الوطــن العربــى، نتحدث عن الخصائص العامة المشتركة التى تربط بين العربى فــى دولــة، والعربى فى دولة أخرى. فهل سيظل ذلك موجوداً فى المستقبل. وهل القيــم الخلقية والإنسانية التى تغنى بها شعراء العرب فى الماضى ستظل كما هــى؟ إننى أعتقد من جانبى أنه ليس ببعيد أن يقع العربى فى حالة الإغتراب حتــى وهــو يزور دولة عربية أخرى، وبحيث لا يقع فى هــذا الإغــتراب إذا زار بلدة أوروبية أو ولاية من ولايات أمريكا.

لقد وجدت أمام العديد من الدول العربية الكثير مــن الفــرص فــى المجالات السياسية والإقتصادية والثقافية، ولكن تلك الدول للأسف الشديد قــد أضاعت استخدام تلك الفرص. ولو كان الحكم السائد فى البلدان العربية هــو الحكم الديمقراطى، فهل كان سيحدث ما حدث قبيل حرب الخليج وأثناء تلــك الحرب؟ هل قامت الدول العربية باستخدام أموال البترول للتأكيد على القيــم العربية التى كانت راسخة فى الماضى؟ هل وضعت بعض البلــدان العربيــة التى رزقها الله بالبترول، وما أدراك ما البترول فى قوته الهائلة الإقتصاديــة، هل وضعت تلك البلدان فى اعتبارها القيام بخطة ثقافية تنويرية شاملة وبحيث تعيد إلى الأذهان أمجاد الأمة العربية فى الماضى، وأقصد العصر العباســى بصفة خاصة حين انتشرت كل الأفكار وتم الحوار بين الثقافات؟ غير مجدٍ فى ملتى واعتقادى الحديث عن أزمة الخليج وكأنها حدثــت بطريقــة عارضــة

فجائية. الحديث عن أزمة الخليج وكأنها لم تحدث إلا بين دولتين عربيتين. إن الواقع يخالف هذا التصور قلبا وقالبا. فكم من الجذور التـــى رسـخت فـى الماضى والتى مهدت لهذه الحرب وهذه الأزمة. فلا شئ يحدث من العـدم لا شـئ يحدث من فراغ. إن للحرب أبعادها الثقافية والإقتصادية والعسـكرية. وإذا كانـت لها جذورها فى الماضى، فلابد أن تكون مسـتمرة ليـس فـى الإنتقال من الماضى إلى الحاضر فحسب، بل فى أن تتخطى الحـاضر إلـى المستقبل. وهذه نتيجة مفزعة حقا، ولكن الجزاء من جنس العمـل. وإذا كنـا نقول إن أزمة الخليج وقد كانت لها جذورها فى الماضى ، فإن أبعـاد تلـك الأزمة لا يمكن أن يتم اقتلاعها اقتلاعا فى زمان بسيط هين، بل إننا نرى بأن الحاضر بالنسبة لأزمة الخليج والذى لا يخلو من ظلام لا بعـد أن نعـترف بوجوده، سيمتد إلى المستقبل بصورة أو بأخرى، وماذا نتوقع غير ذلك وقـد انتهى عصر المعجزات.

لماذا لا نعترف بأخطائنا؟ لماذا ندور فى حلقة مفرغة ترتكـز علـى التغنى بأمجاد الأمة العربية فى الماضى، كأن نقول أمجاد يا عـرب أمجـاد. وهل ما تم فى هذه الحرب، حرب الخليج يتواكب أو يبارك أو يتفق مع أقوالنا هذه. ينبـغى أن ندرك تمام الإدراك أنه من الضرورى أن نثق فـى أنفسـنا وفى قدرتنا على اتخاذ القرار. هذا أمل قد يكون بعيد التحقيق بعد أن حدث ما حدث بالنسبة لأزمة الخليج، ولكن لابد أن يظل يراودنا تحقيق هذا الأمل حتى نثبت وجودنا على خريطة العالم. العالم الـذى يتقـدم مـن حولنـا. ومـن الضرورى الإعتراف بأن أزمة الخليج لم توجد إلا لكى تبقـى إلـى زمـان طويل. نقول هذا ونؤكد على القول به رغم أن هذا القول فيه مـا فيـه مـن تشاؤم، ولكنه الواقع بكل أبعاده.

رابعا

هل تسهم الأحزاب فى البناء الثقافى؟

"إن من يدرس خطط وبرامج الأحزاب عندنا بدقة وموضوعية وأمانة، يكاد لا يجد فى تلك الخطط والبرامج خريطة ثقافية، خريطة لبناء الإنسان المصرى والعربى، وبحيث أصبح من الصحيح تماما أن نقول إن البرامج الحزبية فى واد، والثقافة وهمومها ومشكلاتها فى واد آخر، يبعد عنه بعد المشرق عن المغرب".

رابعا
هل تسهم الأحزاب فى البناء الثقافى؟

يخطئ من يظن أن الثقافة لا تؤدى إلا دورا هامشيا فى المجتمع. إن هذا الظن من جانب الكثيرين الذين يهتمون بكل شئ ما عدا الثقافة، سببه أنهم لا ينظرون إلا إلى المحسوس ومن هنا فقدوا كل ارتباط بينهم وبين الأفكار والمعنويات، تماما كالأطفال الصغار ومن يعانون نقصا فى الذكاء وتخلفا عقليا، فهم لا يعرفون إلا ما يمسكونه بأيديهم ويرونه بأعينهم، لأنهم لم يصلوا بعد إلى إدراك أى بعد ثقافى وما يرتبط به من أفكار وقيم عليا تماما كالمرأة فى مصر التى تنظر إلى الثقافة على أنها نوع من الهموم.

وحال الأحزاب عندنا للأسف الشديد هو هذا الحال الذى يدعو إلى الحزن والأسى. لقد باعدت الأحزاب بين برامجها من جهة، والثقافة وقضاياها ومشكلاتها من جهة أخرى. لقد أصبح التباعد بينهما أكبر من التباعد بين الإنس والجن، بين المعقول واللامعقول.

إن من يدرس خطط وبرامج الأحزاب عندنا بدقة وموضوعية وأمانة، يكاد لا يجد فى تلك الخطط والبرامج خريطة ثقافية، خريطة لبناء الإنسان المصرى، بحيث أصبح من الصحيح تماما أن نقول إن البرامج الحزبية فى واد، والثقافة وهمومها فى واد آخر يبعد عنه بعد المشرق عن المغرب.

ويقينى أن حال الأحزاب عندنا بمصر إذا استمر على هذه الصورة من التباعد بينها وبين الثقافة فسنصل إلى حالة من الإنهيار الثقافى لا يعلم مداها إلا الله تعالى، وبحيث نربط بين الأحزاب وإعلان الحرب على الثقافة ربطا ضروريا تماما كما نقول إن من الأشياء البديهية فى حياتنا الفكرية

العداء بين المرأة من جهة والفلسفة من جهة أخرى بحيث يصبح حال من يريد أن يجد اهتماما بالفلسفة عند المرأة كحال من يريد أن يضيع وقته عبثا بمحاولة العثور على الغول والعنقاء وغيرهما من كائنات خرافية.

غير مجد فى ملتى واعتقادى أن تركز الأحزاب فى برامجهاعلى الجوانب الإقتصادية والجوانب الجسمية البدنية بالإضافة إلى المناقشات اللفظية الجوفاء. إن مجتمعاتنا العربية تكاد تكون المجتمعات الوحيدة التى تنظر إلى الإنسان نظرتها إلى الحيوان . تنظر إلى الإنسان وكأنه مجرد جسم لابد من حشوه وملئه بالطعام. تنظر إلى أن أقصى ما نهتم به هو كرة القدم، وكأن الأرجل والقدمين أفضل من الرأس والدماغ. تنظر إلى الثقافة على أنها مجموعة من المناقشات اللفظية كأن تتركز مثلا على تعريف من هو العامل ومن هو الفلاح؟ من هو العامل ومن يدخل فى الفئات الأخرى؟ وهكذا كلها ألفاظ فى ألفاظ، تماما كما تركز المرأة فى مصر على كل شئ ماعدا الثقافة وقضاياها.

إننا نطمع أن يكون للثقافة وجودها المتميز فى خطط الأحزاب عندنا. فالأحزاب تعكس أحوال المجتمع، وفاقد الشئ لا يعطيه. ويقينى أن أحزابنا لو سعت بكل قوتها إلى البحث فى أسباب تراجع الثقافة فى مجتمعنا سواء تمثلت تلك الأسباب فى جوانب اجتماعية أو جوانب سياسية أو جوانب اقتصادية وعملت على تلافى تلك الأسباب، فسيكون للأحزاب عندنا جانب حى متميز . أما إذا لم تفعل ذلك فستكون أحزابا راكدة، مسطحة، لا يجد من يحترم عقله وفكره عندها شيئا أى شئ.

لماذا لا نجد لجانا ثقافية فعالة مؤثرة فى كل حزب من الأحزاب. لماذا لا نجد دار نشر ثقافية خاصة بكل حزب من الأحزاب ولا يكون عمل هذه الدار مجرد طبع جريدة للحزب أو طبع أوراق للدعاية.

إن البضاعة الجيدة تعلن عن نفسها ولن يكون لحزب من الأحـــزاب احتــرامه وقدسيته عند الجماهير إلا إذا نظر إلى الثقافة كما ينظر إلى جوانب أخرى اقتصادية وجسمية، بل لابد أن ينظر إلى الثقافة على أنها تأتى قبل تلك الجوانب الأخرى. لماذا لا يكون من حق الأحزاب أن ترشح رجـــالا منــها لجوائز الدولة على سبيل المثال بحيث ننظر إلى الأحزاب نظرتنا إلى أية هيئة ثقافية لها احترامها وتقديرها.

إننى أقول من جانبى إن الثقافة بمعناها الدقيق، الثقافـــة التـــى تعيــد تشكيل الإنسان المصرى عقله ووجدانه، نكاد لا نعثر عليها، بـــل لا نجدهـــا إطلاقا فى برامجنا الحزبية. ومن يفتش عن الثقافة بهذا المعنى فى كـــل مـــا يصدر عن أحزابنا من جرائد ومجلات فوقته ضائع عبثا.

أليس من مصائب الزمان أيها القارئ العزيز، أننا فى الوقـــت الـــذى نقول فيه إننا دولة نامية تحتاج إلى دعم وتدعيم لكل جوانب حياتـــها الثقافيـــة ومجالاتها الفكرية، لا نجد إلا انصرافا عن الثقافة، ابتعـــادا عـــن الفكـــر. إن الدول المتقدمة والغربية منها على وجه الخصوص رغم أنها وصلـــت إلـــى أقصى درجات التقدم الفكرى ما زالت حتى الآن تركز على الإهتمام بقضايـــا الثقافة والفكر. أما نحن الذين فى أمس الحاجة إلى تدعيم وجودنا عن طريـــق الثقافة والفكر، فإننا نضرب بالثقافة عرض الحائط، ننظر إلى الثقافة كنظـــرة المرأة فى مصر إليها على أنها نوع من الهم والغم والشئ الثقيل الذى يجـــب أن تتخلص منه وتدعو لأبنائها قائلة: ربنا يجنبك شر الفكر، وكـــأن الفكـــر أصبح شرا، شرا مستطيرا. أين برامج الأحزاب للنهوض بأجهزتنا الثقافيـــة، أجهزتنا الإعلامية، تلك الأجهزة التى تحولت فى أكثرها إلى أدوات للتخلـــف الثقافى والفكرى. أين برامج الأحزاب للإثراء بحياتنا الفكرية، أين برامجـــها الخاصة بالبحث فى قضايانا الفكرية كقضيـــة المحليـــة والعالميـــة، كقضيـــة الأصالة والمعاصرة. إننا فى الوقت الذى ندعو فيه إلى أن نتحـــول المقـــاهى

مثلاً إلى نواد ثقافية، نجد اختفاء للثقافة فى برامجنا الحزبية إن الأحزاب يجب أن تكون قـوة مؤثرة فى المجتمع وناهضة به. وإذا كان رجـال الأحـزاب عندنا يبررون عدم اهتمام أحزابهم بالثقافة بالقول بـأن أفـراد مجتمعنـا لا يهتمون بالثقافة وينظرون إليها كشئ ثقيل، فإن هذا يعد عذراً أقبح من الذنب، إذ أننا لو نظرنا إلى الأحزاب كقوة مؤثرة فى المجتمع، فإن تلك النظرة تؤدى بنا إلى القول بـأن وظيفة الأحزاب ليست مجرد التعبير عـن الواقـع، بـل السعى نحـو واقع أفضل وحياة أكثر ازدهاراً فكرياً وثقافياً. إن أحزابنـا لـو التزمت بما أقوله الآن عن يقين واعتقاد لأصبح حالها مستقبلاً غير حالها الآن ولوجدنا مدارس فكرية عندنا مستقبلاً وثراء ثقافياً منقطع النظير نتبـاهى بـه بين الأمم الأخرى.

فالمتأمل فى برامج الأحزاب عندنا من جهة صلتها بالثقافة سرعان ما يشعر بالغثيان والإكتئاب والتشاؤم والظلام. وإذا ظلت أحزابنا مبتعـدة عـن الثقافة فسوف تصبح فى المستقبل خطراً على الثقافة أكثر من خطر الجامعات المحلية الإقليمية فى مصر على الثقافة، أكثر من خطر الزواج على الإبـداع أدبياً كان أو فلسفياً أو فكرياً بوجه عام. إن أحزابنا لو نظرت إلى الثقافة بعين الإحترام والتقدير وعلى أنها تعد مطلباً رئيسياً يحتاج إليه الإنسان أكثر مـن حاجته إلى الطعام والملبس، فسوف تعود للثقافة مكانتها فى اهتمامات النـاس بحيث نجد الناس حتى فى الشوارع يتناقشون فى قضايانا الفكرية كمـا كـان يحـدث فى الماضى. ينبغى على الأحزاب أن يكون العقل نبراسها وأن تسعى إلـى الربط بين مشكلاتنا الإقتصادية والإجتماعية وبين العلم والثقافة فنحـن فى عصر العلم عصر الثقافة الرفيعة ولا يصح ونحن فى هـذا العصـر أن تتقـدم الأمم حولنا بما فيها من أحزاب وتدور أحزابنا فى حلقة مفرغـة، أو أن تصعد إلى الهاوية. ينبغى على أحزابنا أن تكون الثقافة هى أهم ما تسـعى إليه وكفانا جموداً وتخلفاً وحفظاً لكتب التراث دون وعى فمشكلاتنا الثقافيـة

اليوم غير مشكلات أمم عاشت قبلنا ومطالبنا الثقافية غير مطالبهم وبعض تراث الماضى إذا كان شيئاً ذا قيمة فى أزمان السابقين فإنه قد يعد خرافة وجهلاً فى أيامنا التى نحياها.

بل أقول إن أحزابنا يجب أن تتحول إلى قلاع ثقافية كبرى بحيث يكون كل حزب كالطود الشامخ يسعى لخدمة مصرنا العزيزة ثقافياً. وأقول من جانبى عن يقين لا أخرج عنه قيد أنملة: إن أحزابنا الحالية إذا استمرت على هذه الصورة من الإبتعاد عن الثقافة والضرب بها عرض الحائط فستظل أحزاباً جوفاء، أحزاباً كالطبل الأجوف،

خامساً

حرب أكتوبر والرؤية المستقبلية

"إنّ انتصار أكتوبر لم يتحقق إلا بفضل الإيمان بقوة العلم، وحكومة المستقبل إنما هى حكومة العلماء والمفكرين الذين يؤمنون بالتخطيط العلمى الدقيق".

خامسا
حرب أكتوبر والرؤية المستقبلية

قد لا أكون مبالغا إذا قلت بأننا لم نستفد حتى الآن استفادة كاملة من الدروس الخاصة بحرب أكتوبر. إن هذه الحرب إذا نظرنا إليها من خلال منظور المستقبل، فيقينى بأن عطاءها سوف يظل مستمرا لعدة أجيال وقرون. وكم من بلدان أوروبية ركزت على بعض معارك انتصاراتها، وقد أدى بها هذا التركيز من جانبها إلى الإستفادة استفادة هائلة من المعارك التى قامت بها.

ولكننا للأسف الشديد فى مصرنا العزيزة، رغم أن نصر أكتوبر يعد من أهم الإنتصارات الحربية فى تاريخ مصر المعاصرة، إلا أننا نظرنا إلى حرب أكتوبر من خلال الوجهة الحربية العسكرية، ولم ننظر إليها من خلال الربط بينها وبين ما يمكن أن تحققه لنا من إنجازات فكرية هائلة. إنجازات تتعلق بصميم الإرادة المصرية العربية، وعقل ووجدان أمتنا العربية من مشرقها إلى مغربها.

إن حرب أكتوبر جديرة بأن نستفيد منها العديد من الدروس الممتازة والقيم الخلاقة المبدعة، وذلك إذا تأملنا فى حقيقتها ومغزاها.

ودليلنا على ذلك أن حرب أكتوبر تدلنا على أن الهدف من أى حرب لا يصح أن يكون متمثلا فى الغزو والإعتداء، بل رد المعتدى. فنحن لم نقم بالحرب لضم أراضى جديدة داخل حدودنا المعترف بها دوليا، بل إن هدفنا هو رد اعتداء العدو على أرضنا. وإذا وضعنا ذلك نصب أعيننا فإننا يجب أن نكون دعاة سلام لا دعاة حرب. واتفاقية السلام بيننا وبين إسرائيل، إنما تعد

اتفاقية ممتازة ومشروعة لأنها تمت بعد أن قمنا برد الإعتداء. إنها لم تكن تسليما أو استسلاما من جانبنا ورضوخا لإرادة المعتدى، بل إنها تعد معبرة عن انتصار الإرادة المصرية، معبرة عن أن دعوتنا،إنما هى دعوة سلام، لا دعوة حرب واعتداء.

لقد بين لنا أكثر مفكرى وفلاسفة العالم منذ قرون عديدة، أن السلام يمثل قيمة كبرى فى حياة الإنسان، يمثل استمرار الحياة، وليس القضاء عليها عن طريق الإعتداءات التى لا مبرر لها. فإذا قام الشعب المصرى بحرب أكتوبر، فإن هذا يعد من جانبه إيمانا وتمسكا بقيمة حضارية كبرى، قيمة يحترم من خلالها الإنسان أخاه الإنسان، تمسكا بالعدل والسلام. فمرحبا باتفاقية كامب ديفيد طالما أنها تعد تعبيرا عن التمسك بالعدل والسلام واحترام حدود كل دولة من الدول.

نعم يجب أن نضع فى اعتبارنا أن الحرب إذا كان القصد منها رد المعتدى فمرحبا بالحرب، ولكن أن يكون القصد من الحرب الإعتداء والغزو وضم الأراضى التى لا تدخل أصلا فى حدود هذه الدولة أو تلك من دول العالم، فلعنة الله على الحرب بتلك الصورة وهذا الهدف.

لقد ساعدنا على النصر فى حرب أكتوبر، أننا كنا دعاة حق، دعاة سلام. والسلام من القيم الإيجابية – كما أشرنا – والتى تؤدى إلى استمرار الدول وحفظ حقها فى الحياة. وكم دعانا إلى ذلك القديس أوغسطين من فلاسفة العصور الوسطى، والفيلسوف الألمانى كانت Kant فى العصر الحديث حين كتب مشروعه للسلام الدائم. فالرؤية المستقبلية إذن بالنسبة لدرس من دروس حرب أكتوبر، تلك الحرب التى نقول عنها ما أعظمها وما أروعها، تتمثل فى أننا يجب أن نتمسك بالسلام القائم على العدل. فنحن لم نقف عند هزيمة ١٩٦٧م، بل تجاوزنا تلك الهزيمة، بأن قمنا بحرب أكتوبر، فمن

المنطقى إذن أن ندافع فى المستقبل عن قيم العدالة والسلام، وبحيث نظل باستمرار معبرين عن مبادئ الإنسانية والحضارة.

وإذا كان انتصارنا فى حرب أكتوبر لم يحدث مصادفة ولا بنوع من الحظ أو البخت، بل تم بناء على التخطيط العلمى والإيمان بأن النتائج لا تحدث إلا عن مقدمات ضرورية، فإن هذا يعد درساً من أبلغ الدروس التى يجب أن نضعها فى اعتبارنا فى مستقبل حياتنا.

إن انتصار أكتوبر لم يتحقق إلا بفضل الإيمان بقوة العلم، وأن حكومة المستقبل، إنما هى حكومة العلماء والمفكرين الذين يؤمنون بالتخطيط العلمى الدقيق. فهل استفدنا من هذا الدرس فى حياتنا التى نحياها، وهل نضع ذلك نصب أعيننا فى مستقبل حياتنا؟ هل من المعقول أن يقوم نفر منا الآن بالهجوم على العلم، بالهجوم على الحضارة الغربية، بالقول بأنه يوجد تعارض بين التقدم العلمى والأخلاق. إن أقوال هؤلاء الناس تعد جهلاً على جهل، تعد تعبيراً عن عصور التخلف والظلام وحياة أهل الكهف. فالسلاح الذى حاربنا به وحققنا به نصر أكتوبر، إنما هو نتاج الحضارة الغربية الأوروبية. ولولا الإنفتاح على الغرب، والإستفادة من علوم الغرب ما حققنا أكثر جوانب انتصارنا فى حرب أكتوبر. إن هؤلاء الذين يعبرون فى أقوالهم عن نوع من التخلف العقلى حين يهاجمون إنجازات العلم، إنجازات الحضارة الأوروبية وما أعظمها، وما أروعها، إنما تعبر أقوالهم عن الرجوع إلى الوراء، تعبر كتاباتهم عن الصعود إلى الهاوية، وبئس المصير.

إننا يجب أن نعتز بالعلم، وبإنجازات العلم ونقول لهؤلاء الناس إن الدليل على أهمية العلم فى حياتنا، هذا النصر العظيم فى حرب أكتوبر. وهل من المعقول أن يقوم نفر منا بالهجوم على العلم، بالهجوم على منجزات الحضارة الأوروبية، وذلك فى نفس الوقت الذى يسعون فيه إلى الإستفادة من المطبعة، من السيارة، من الطائرة. هل تم نصر أكتوبر عن

طريق استخدام الحصان والجمل، هل تم النصر عن طريق استخدام أسلحة خشبية. كلا ثم كلا. إن النصر لم يتحقق إلا بمنجزات علمية حضارية. فيجب علينا إذن في حياتنا العامة وفى مدارسنا وجامعاتنا أن نقول لأفراد الشعب إن الدليل على عظمة العلم، الدليل على أهمية الإنفتاح على الغرب، إنما هو نصر أكتوبر والذى لم يتحقق إلا بفضل الأسلوب العلمى، والتخطيط الحضارى الدقيق. أليس هذا يعد درسا من أبلغ الدروس يجب أن نضعه في اعتبارنا الآن وفى مستقبل حياتنا حين نتحدث عن نصر أكتوبر؟ ألم أقل لكم أيها القراء الأعزاء إن الأسباب المحددة هى التى تؤدى إلى نتائج دقيقة؟ إن عصر المعجزات قد انتهى أوانه، ولا شئ يحدث إلا بأسباب محددة وفى غاية الدقة.

نعم إن حرب أكتوبر يجب أن نستفيد منها فى حاضرنا ومستقبلنا. فإذا كنا نستفيد منها في التمسك بالسلام. نستفيد منها فى ضرورة الإعتزاز بالعلم والإنفتاح على الحضارات الأخرى، فإننا يجب أن نستفيد منها في الإيمان بإرادة الشعوب. وكم عبر عن هذه القيمة الكبرى شعراء ومفكرون وفلاسفة عظام. إن إرادة أى فرد تعد من الأشياء الثمينة التى يجب أن يعتز بها. فلا يوجد شئ يسمى بالمستحيل. ولا يقول بالمستحيل إلا ضعيف الإرادة، مختل العقل. ودليلنا على ذلك أن هزيمة يونيو قد تحولت إلى انتصار أكتوبر تحول اليأس إلى أمل. انتقلنا من التشاؤم إلى التفاؤل. عبرنا الهزيمة إلى تحقيق الإرادة. إن تحقيق الذات، أى تحقيق الإرادة يعد شيئا جوهريا في حياة الإنسان. وكم عبر عن ذلك مفكرون كبار من أمثال الشاعر محمد إقبال. ولم تصل اليابان إلى ما وصلت إليه عن طريق ما يسمى بالمعجزة اليابانية، ولكنها حققت أهدافها عن طريق الإرادة الحيوية الجوهرية.

غير مجد في يقيني واعتقادى، التقليل من دور الإرادة، سواء على مستوى الفرد أو على مستوى الشعوب. إن نصر أكتوبر يدلنا على ذلك تمام

الدلالة. وإذا أراد الشعب الحياة، فلابد أن يؤمن بإرادتـــه، وأن العمـــل هـــو الطريق إلى الإنجازات الحضارية الهائلة. فلا مكان في العالم للضعيـــف. لا مكان في العالم لضعيف الإرادة، ولا للكسول. إننا إذا كنا قـــد حققنـــا نصـــر أكتوبر، فإن هذا النصر لم يحدث إلا عـــن طريـــق الإرادة، طريـــق العمـــل المستمر والشاق. يجب علينا إذن أن نغرس في نفوس شبابنا أهمية العمل. أن نبين لهم أنه لا يصح اللجوء إلى الخضوع والإستسلام والتواكل. فالدعـــاء لا يحقق الإنتصار إلا إذا عمل الإنسان أولاً وقبل كل شـــئ. وإذا كـــانت أمتنـــا العربية تمر بحالة من الركود الفكرى والحضارى، فإن السبب الرئيسى فـــى ذلك، أنها تلجأ إلى التواكل والإستسلام، تكثر من حديثها عن الجن والســـحر. تضرب عرض الحائط بالإرادة الإنسانية، الإرادة التى تقوم علـــى الحريـــة، وتستطيع القضاء على المشكلات التى يواجهها أفراد كل أمة من الأمـــم لقـــد قابلت بعد حرب أكتوبر الكثير من المواطنين داخل مصر وخارجها، وكنت قد التقيت بهم بعد هزيمة ١٩٦٧. وقد حدث ما توقعته. لقد وجدت لديهم الحماس والتفاؤل والإيمان بالإرادة والعمل. وهذا يعد شيئاً منطقياً، إذ أن الهزائم تؤدى إلى هلاك النفوس والقضاء على كيان الأمم، وعلى العكس من ذلك تماماً نجد أن الإنتصارات تؤدى إلى إنعاش الوجدان، وبث روح الأمل فى النفوس.

يجب إذن أن نتخذ من حرب أكتوبر دليلاً ودليـــلاً قويـــاً علـــى أنـــه بالإمكان إنجاز أى مشروع من المشروعات. ألسنا نتحدث بيننا وبين أنفســـنا حين نجد نوعاً من الكسل عند نفر منا، ونقول لأنفسنا إننا إذا اتخذنا من حرب أكتوبر مثلاً لنا فى حياتنا، فإننا سوف لا نعجز عن إدارة أى مشـــروع مـــن المشـــروعات. سوف نحقق العديد من الأعمال التـــى تـــؤدى إلـــى رفاهيـــة الإنسان المصرى وسعادته فى الحاضر، وسعادة أبنائه فى المستقبل.

ومن الدروس التى تتعلق بالمستقبل أساساً والتى يمكن أن تكون معبرة عن الدلالات الفكرية لحرب أكتوبر، التمسك بالمواطنة، الفخر بتراب الوطن.

الإيمان بأن الحقوق لابد أن ترتبط بالواجبات. إن وطننا عزيز علينا جميعاً ولا بقاء لنا إذا فرطنا فى تراب وطننا، وانظروا إلى ما يحدث الآن فى العديد من الأمم والشعوب. فإذا كان من حقنا أن نحيا، فإن من واجبنا أن نعمل باستمرار على الحفاظ على وطننا والدفاع عنه. إن كلمة الأمة من الأم، فينبغى إذن أن تكون علاقتنا بأمتنا المصرية، كعلاقة الأفراد بأمهاتهم. ويوم أن ينظر كل فرد منا إلى أمته، أى وطنه المصرى، كما ينظر إلى أمه، فإننا سنتحول من حال إلى حال. وأشرف ما فى حياة الإنسان، هو أن يفخر بوطنه، أن يتمسك به، أن يلجأ إليه، كما يلجأ الطفل إلى صدر أمه حيث يجد الحنان والإستقرار. فشعبنا عظيم بين الشعوب. وأمجادنا لا حصر لها ولا عد، وحضارتنا من أقدم وأعظم الحضارات، ومما يقوى فينا هذا الإعتقاد، أننا حين أردنا أن نحول الهزيمة إلى انتصار، فقد نجحنا فى ذلك.

إننا إذا كنا قد استفدنا فى حياتنا الحاضرة بعض الإستفادة من نصر أكتوبر وذلك لأننا لم نستوعب درس الحرب والإنتصار كاملاً وجيداً، فإنه يجب علينا فى رؤيتنا المستقبلية أن نستفيد تماماً من الدروس التى تعلمناها من تلك الحرب، وما أعظمها من دروس. وإذا كان من حقنا أن نفخر بحرب أكتوبر فى أيامنا الحاضرة، فإن من واجبنا فى مستقبل حياتنا الإستفادة من القيم الفكرية المبدعة والتى أشرنا إلى نماذج منها. إنها دعوة من جانبنا، فهل يا ترى ستجد صداها فى نفوس وعقول أبناء وطننا العزيز فى كل زمان وكل مكان؟.

الفصل السابع

دفاع عن الإستشراق والمستشرقين (رؤية نقدية)

"ماذا نفعل حيال أناس من أشباه الباحثين والدارسين، ومن أنصاف الأساتذة، يحلو لهم توجيه الإتهامات الظالمة إلى المستشرقين دون أن يدركوا أعمالهم العظيمة ومناهجهم الأكاديمية الدقيقة . نقول هذا ولا نمل من تكراره، إذ أن هؤلاء الأشباه يكتبون فى كل شئ، ولا يفهمون أى شئ".

الفصل السابع

دفاع عن الإستشراق والمستشرقين (رؤية نقدية)

تعد قضية الإستشراق من أهم القضايا الفكرية التى تثار الآن. وترجع أهميتها إلى أننا بقدر ما نجد أحكاما فيها نوع من الإنصاف لفكرنا العربى من جانب بعض المستشرقين فإننا نجد أحكاما أخرى فيها نوع من التعسف والإبتعاد عن الصواب من جانب مستشرقين آخرين، وذلك فى مجال فكرنا العربى على اختلاف أنواعه وميادينه ومن بينها الأدب والعلم والفلسفة وغيرها.

ونود فى هذه الدراسة أن نركز على زاوية واحدة رئيسية، وهى الزاوية الخاصة بفلسفة الإستشراق.

هذه الزاوية تعد على درجة كبيرة من الأهمية وخاصة إذا وضعنا فى اعتبارنا أن موضوع الإستشراق قد أثير منذ منتصف القرن الماضى، أى القرن التاسع عشر، وما زال مثارا حتى الآن. بالإضافة إلى أن العديد من الأحكام التى أطلقها أكثر المستشرقين فى منتصف القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ، قد جاءت أحكام أخرى تختلف معها إلى حد كبير وذلك منذ بداية النصف الثانى من القرن العشرين ، وذلك على النحو الذى سنشير إليه خلال هذه الدراسة.

ويمكننا القول بأننا إذا كنا نجد بعض المستشرقين والباحثين الغربيين ممن ذهبوا إلى إنكار المجهودات التى قام بها مفكرو العرب فإننا نجد فريقا آخر منهم قد ذهب إلى الدفاع عن أهمية الفكر العربى وإثبات المكانة الكبيرة التى احتلها مفكرو العرب فى تاريخ الفكر العالمى.

فلنحاول الآن توضيح هذا الجانب الخاص بفلسفة الإستشراق حتى تتضح لنا الصورة كاملة:

لم يسلم بعض المستشرقين بأهمية وأصالة الفلسفة العربية الإسلامية. ومعنى هذا أن قضية وجود فلسفة عربية، لم تكن موضع اعتراف من جانب كل المشتغلين بها، بل وجد من المفكرين من وضع جدة وأصالة وأهمية الفلسفة الإسلامية موضع الشك بل الإنكار.

فمن المستشرقين من يرى أنه ليس فى طبيعة العرب التفلسف وإبداع المذاهب الفلسفية . ومنهم من يرى أنهم قد تأثروا بفلاسفة اليونان غاية التأثر، بحيث أن فلسفتهم لا تخرج عما أبدعه فلاسفة اليونان من مذاهب وخاصة أرسطو والأفلاطونية المحدثة.

قلنا إنّ هناك نفراً من المستشرقين يرجع عدم تفلسف العرب إلى طبيعتهم. وقد توصل هذا الفريق إلى ذلك، بالتفرقة بين ما يزعمونه من تقسيم الناس إلى جنس آرى وجنس سامى فالجنس الآرى هو وحده القادر على التفلسف وإبداع المذاهب الفلسفية أما الجنس السامى فلا يستطيع ذلك، بحيث كان كل عمله هو نقل دائرة المعارف الفلسفية اليونانية وعدم الخروج عليها.

والواقع أن تقسيم الناس إلى ساميين وآريين، هو ما فعله الباحثون فى تاريخ اللغات فى القرن التاسع عشر فيما يقول مصطفى عبد الرازق فى تمهيده لتاريخ الفلسفة الإسلامية.

وإذا كان علماء اللغات قد فعلوا ذلك، فإن بعض الباحثين فى الفكر العربى حاول أن يعمم هذا القول بحيث يجعله مميزا لكل عقلية من العقليتين. أى أنهم جعلوا هذه التفرقة اللغوية أساساً للحكم على المباحث الفلسفية.

ومن المفكرين الذين يمثلون هذا الإتجاه أوضح تمثيل، أرنست رينان E. Renan وإذا رجعنا إلى كتابه عن تاريخ اللغات السامية وجدناه يفرق تفرقة تامة بين جنس سامى وجنس آخر. ثم نراه يقول فى كتابه عن "ابن رشد والرشدية" لا يمكننا أن نجد عند الجنس السامى مذاهب فلسفية، إذ أن هذا الجنس لم يثمر أى بحث فلسفى خاص، بحيث أن الفلسفة عند الساميين ما هى إلا مجرد اقتباس وتقليد للفلسفة اليونانية. وسنعود إلى مناقشة رأى Renan والذى تابعه فيه بعض الباحثين فى الفكر الفلسفى العربى.

وليون جوتييه هو الآخر قد ذهب هذا المذهب. أى أنه يسلم بقضية الجنس الآرى والجنس السامى. إنه يقول فى كتابه: مدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية إن الجنس السامى والجنس الآرى يتجهان اتجاهين متضادين تماما فالعقلية السامية تميل إلى قرن الأشباه والأضداد دون ربطها بما يجعل منها وحدة، بل تتركها منفصلة عن بعض، ثم لا تلبث أن تنتقل من إحداها إلى الأخرى دون واسطة بوثبة فجائية. أما العقلية الآرية فإنها على العكس من ذلك. إنها تتجه إلى الربط بين هذه وتلك بوسائط تدريجية، بحيث لا تنتقل من طرف إلى آخر إلا بدرجات غير محسوس بها، مثلها فى ذلك، مثل الألوان المذاب بعضها فى بعض.

وهذا كله يعد امتدادا لدعوة Renan التى سبق أن أشرنا إليها[1] دعوة التفرقة بين عقلية جنس سامى تمثل الفصل والمباعدة لا الجمع والتأليف، وتدرك الجزئيات دون ترتيب وتناسق بحيث لا تتمكن من التوصل إلى القضايا الكلية والقوانين العامة - وإذا لم تتوصل إلى هذه القضايا الكلية والقوانين الشاملة، فقد عجزت عن تحقيق الأصالة والإبتكار. أما العقلية الأخرى، عقلية الجنس الآرى، فهى وحدها دون غيرها تحاول بفطرتها

[1] راجع فى ذلك كله كتاب الشيخ مصطفى عبد الرازق: تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية.

التأليف بين عناصر الأشياء بتناسق وترتيب ونظام يؤدى إلى الجمع وامتزاج العناصر. ومن هنا تكمن القدرة على الدقة فى البحث والتوصل إلى أعمق النتائج فى الدراسات التى يقوم بها أصحاب الجنس الآرى.

وإذا كان رينان ومن تابعه يصدرون حكمهم على الفلسفة العربية بالتفرقة بين جنس سامى وجنس آرى، فإن هناك نفرا من المستشرقين ذهبوا إلى أن عدم إبداع فلاسفة الإسلام للمذاهب الفلسفية، يرجع إلى أسباب عديدة متنوعة، منها كتاب المسلمين المقدس أى القرآن الكريم، ومنها أن فى طبيعة العرب التأثر بالأوهام. وهذا التأثر بالأوهام يتنافى وإبداع المذاهب الفلسفية، إلى غير ذلك من دعاوى كثيرة.

والواقع أن هذه الدعاوى وما يدور فى فلكها قد تعد تعبيراً عن نوع من التعصب للجنس الأوروبى إذ نجد فيها تقليلاً من شأن عقلية العرب، رغم أن المنصف لو اطلع على كتب فلاسفة العرب وعلماء العرب، الذين بحثوا فى الرياضيات والطبيعيات وغيرهما من علوم وفنون، لعلم مبلغ الدقة التى توصلوا إليها.

وتعد أيضا نوعا من التعصب الدينى، لأن فيها قولا بأن القرآن قد عاق العرب عن التفلسف. وهذا القول يعد فيما نرى قولا جائرا، لأن القرآن يحث فى أكثر آياته على التأمل والبحث والنظر فى جنبات الكون. والمشكلة ليست فى القرآن فى حد ذاته، ولكن فى الفهم الخاطئ من جانب بعض رجال الدين.

من هذه الآيات قوله تعالى: **"إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون".**

وقوله تعالى: "فاعتبروا يا أولى الأبصار" وقوله تعالى "أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأض وما خلق الله من شئ" وقوله تعالى: "ويتفكرون فى خلق السموات والأرض". وقوله تعالى "أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت".

أما عن Renan فإنه غير محق فى أشياء كثيرة منها إلقاء اللوم علـى فلاسفة العرب للأخطاء التى حدثت فى الترجمات عن اليونانية علـى النحـو الذى نجده عند بعض فلاسفة العرب حين نسبوا آراء لأرسطو لم يقل بها، بل قال بها أفلوطين فى كتابه التاسوعات. إن اللوم يجب أن يلقى إلى حد كبـير على المترجمين لا على فلاسفة العرب الذين اعتمدوا على هـذه الترجمـات التـى وصلـت إليهم. بالإضافة إلى أن عصرهم لم يكن فيه ما عندنـا الآن من وسائل النقد العلمى الدقيق والذى بواسطته نميز بين كتب هذا الفيلسـوف وكتب غيره.

والواقع أن Renan يتناقض مع نفسه فى بعض الأحـوال. إنـه فـى الوقت الذى يطلق فيه أحكامه على فلسفة مفكرى العرب، يقول فى معـرض دراسته لآراء ابن رشد الفيلسوف الأندلسى: إن ابن رشد إذا كان لم يطمـح إلى مكانة الشارح لآراء أرسطو فإننا - فيما يقول رينان نفسـه - يجـب ألا ننخدع بهذا التواضع من جانب ابن رشـد، إذ أن العقـل البشـرى يطـالب باستقلاله، وإذا ما قيدناه بنص من النصوص، عرف كيف يجد حريتـه فـى تفسير هذا النص وتكوين رأى حوله"[1]

قلنا إن رينان يقيم دعوته على التفرقة بين جنس آرى وجنس سامى، بيد أن هذه الدعوى لم يعد لها مكان فى القرن العشرين بعد النفـوذ الواسـع الذى كان لها فى القرن التاسع عشر. فهذا بول ماسون أورسيل: يقـول "لقـد

---

(1) Renan: Averroes et l'Averroisme; p. 83.

ساد فى القرن التاسع عشر اعتقاد بوجود عناصر وأجناس مختلفة ينقسم إليها الناس. لكن العنصرية مهما اشتدت الآن أصبحت مقصورة على مجرد وضع سياسى. ولا نريد معارضة ما جاء به علم الأجناس البشرية من الأسانيد المدعمة فيما يتعلق بتعيين الأشكال المتميزة، إلا أننا نعلم علم اليقين أنه لا وجود للعناصر النقية إلا فى بعض حالات التحديد. وعلى ذلك فالأمر خارج عن طور التجارب[1]

ومعنى هذا أن الفروق بين الأجناس لا وجود لها - فيما يقول بول ماسون أورسيل - إلا فى الميدان اللغوى، بحيث تستند العنصرية إلى مقياس لغوى لا مقياس جنسى.

ننتهى بعد عرض آراء نفر من المستشرقين، إلى القول بأن الكثير من القضايا والأحكام والإتهامات التى وجهت إلى الفلسفة العربية، قد تلاشت أو فى طريقها إلى الزوال، ذلك لأن هذه القضايا والإتهامات والأحكام لم تقم على جذور ثابتة من البحث العلمى النقدى الدقيق، فهناك مشكلات خاصة بالفلسفة العربية دون غيرها من الفلسفات السابقة عليها والتالية لها، كما أنه ليس من المناسب إطلاقا أن نقول أن عجلة الفكر الفلسفى قد توقفت فترة ونحدد هذه الفترة، بأنها الفترة التى وجد فيها فلاسفة العرب. إن العجلة كانت دائرة وفى دورانها أنتجت لنا العديد من الثمرات الفكرية الرائعة. كما أن هناك آراء قال بها فلاسفة العرب ولم يسبقهم إليها فلاسفة اليونان. وإذا كان فلاسفة العرب قد تأثروا بفلاسفة اليونان، فإن هذا التأثر يعد فى حد ذاته مظهرا من مظاهر الصحة لا مظاهر المرض. فمن من المفكرين لم يتأثر بغيره. إن الصحيح إلى حد كبير جدا أن نقول مع ول ديورانت فى معرض دفاعه عن

---

[1] الفلسفة فى الشرق ص ٢٠ من الترجمة العربية.

ابن سينا: إن نزلاء المستشفيات العقلية هم وحدهم الذين لا يتأثرون بعقـــول غيرهم.

ولكي ندلل على أن أكثر أحكام المستشرقين والتي قامت على فلســفة معينة، فلسفة خاصة بالإستشراق، والتي تتبلور حول التميـــيز بيـــن الجنـــس السامي (العرب) والجنس الآرى (الجنس الأوروبي)، فإننا نود أن نشير إلـــى أحكام بعض المستشرقين والباحثين حول قضايا التصوف، وهو الـــذى يعـــد معبرا عن جانب من جوانب فكرنا الفلسفي العربي. إننا نجد مجموعـــة مـــن المستشرقين قد ذهبوا إلى القول بأن التصوف يرجع إلى مصدر فارسي، لقـــد ذهب أمثال دوزى وثولك إلى القول بأن التصوف قد وصل إلى المسلمين عن طريق فارس، وأن المسلمين قد استفادوا مـــن هذا المصدر الفارسي في القول بأن العالم لا وجود له في ذاته، وأن الموجود الحقيقي هو الله تعـــالى. وهـــذه جوانب نجدها عند بعض صوفية الإسلام.

ولكن ليس معنى ذلك، أن التصوف يرجع أساسا إلى هـــذا المصـــدر الفارسي، ودليلنا على ذلك أننا إذا كنا نجد بعض الصوفية من أصل فارســـي كأبي يزيد البسطامي ومعروف الكرمي، فإننا نجد أيضا مجموعة من الصوفية العرب ومنهم أبو سليمان الداراني وذو النون المصـــري وابـــن عطـــاء الله السكندري ومحيي الدين بن عربي.

وإذا كنا قد أشرنا إلى أن الصوفية الذين يرجعون إلى أصل فارسي، إنما كانت نشأتهم بعد ظهور النبي والصحابة والتابعين، فإننا إذن بناء علـــى ذلك لابد أن نضع في الإعتبار، تأثر هؤلاء الصوفية بزهد وتعبـــد الرســـول والصحابة.

وننتهي من هذا إلى القول بأنه من الصعب أن نوافـــق المســـتشرقين على رأيهم الذى يرجع التصوف إلى مصدر فارسي.

أما القول بأن التصوف الإسلامى يرجع إلى مصدر مسيحى، فإن هذا القول بدوره لا يمكن أن يعد صحيحا. صحيح أننا قد نجد بعض أوجه الشبه بين مسلك وحياة بعض الزهاد والصوفية، وبين حياة السيد المسيح والرهبان، إلا أن هذا الشبه لا يؤدى بنا إلى رد التصوف الإسلامى إلى مصدر مسيحى، وخاصة إذا وضعنا فى الإعتبار أن فريقا من الزهاد والعباد كإبراهيم بن أدهم كان لهم بعض أوجه العمل فى الدنيا والقيام ببعض أوجه النشاط.

صحيح أننا نجد بعض المصطلحات المسيحية عند بعض صوفية الإسلام كاللاهوت والناسوت وغيرهما من المصطلحات، ولكننا يجب أن نضع فى الإعتبار أن هذه المصطلحات لم تظهر بصورة واضحة وحاسمة إلا فى وقت متأخر نسبيا، أى بعد استقرار الزهد والعبادة وهما يعتبران مؤديان إلى نشأة التصوف الإسلامى. وإذا كنا نجد من الباحثين من يرجع التصوف إلى مصادر فارسية تارة ومصادر مسيحية تارة أخرى، فإننا نجد نفرا من الباحثين يرد التصوف إلى مصدر هندى ومن هؤلاء هورتن وهارتمان، فهما يذهبان إلى أن التصوف الإسلامى يستمد أصوله من الفكر الهندى. بل أننا نجد حججا كثيرة عند هارتمان لإثبات أن التصوف الإسلامى يمكن إرجاعه إلى مصدر هندى. ومن بين هذه الحجج أننا نجد كثيرا من الصوفية من أصل غير عربى كالبسطامى وإبراهيم بن أدهم على سبيل المثال. بالإضافة إلى أن المسلمين أنفسهم كالبيرونى على سبيل المثال يعترف بذلك، أى يعترف بالأصل الهندى وذلك فى كتابه "تحقيق ما للهند فى مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة" حين عقد مجموعة من المقارنات بين عقائد الهنود من جهة وأفكار صوفية الإسلام من جهة أخرى. إن فكرة الرضا أو مقام الرضا من المقامات التى تحدث عنها صوفية الإسلام، نجدها عند الهنود،

بالإضافة إلى استعمال السبح عند الصوفية. يضاف إلى ذلك أن التصوف قد انتشر، بل ظهر في البداية في خراسان.

بيد أن هذه الحجج كلها لا تؤدى بنا إلى إرجاع التصوف الإسلامى إلى مصدر هندى، إلا إذا وضعنا في اعتبارنا التصوف الفلسفى أساسا وليس التصوف السنى.

لابد أن نضع فى اعتبارنا أن الصوفية كانوا مسبوقين بمجموعة من الزهاد والعباد وأقوال هؤلاء الزهاد والعباد تدلنا على استفادتهم أساسا من الآيات القرآنية. ومهما يكن من أمر، فإن المصدر الهندى يبدو لنا أقوى من غيره من المصادر.

هذا عن المصدر الهندى، أما بالنسبة للمصدر اليونانى أى رد التصوف الإسلامى إلى مصدر يونانى، فإننا نجد بعض الباحثين يرجحون القول به ومنهم أوليسرى. إن هؤلاء الباحثين يضعون في الإعتبار التصوف الفلسفى عند أفلوطين وذهابه إلى أن المعرفة تدرك بالمشاهدة حين الغيبة عن النفس وعن العالم المحسوس ولا شك أن العرب قد عرفوا فلسفة أفلوطين عن طريق كتاب أثولوجيا أرسطو طاليس الذى نسب خطأ إلى أرسطو في حين أنه مجموعة من مقتطفات التاسوعة الرابعة والتاسوعة الخامسة والتاسوعة السادسة وقد أطلق العرب على أفلوطين اسم الشيخ اليونانى.

بيد أن هذا كله يجب ألا يؤدى بنا إلى إرجاع التصوف الإسلامى إلى مصادر يونانية عامة، وأفلاطونية محدثة على وجه الخصوص، إذ أننا يجب أن نضع في الإعتبار أن صوفية الإسلام إذا كان قد تأثر بعضهم بالمصادر اليونانية، فإن ذلك كان في وقت متأخر أى لم يكن واضحا وظاهرا في القرون الأولى للتصوف.

عرضنا فيما سبق لكثير من الآراء حول مصادر التصوف الإسلامى. وقد تبين لنا كيف أن بعض المستشرقين قد أرجع التصوف إلى مصادر

غير إسلامية سواء أكانت تلك المصادر مصادر يونانية أو فارسية أو هندية.[1]

وقد أشرنا إلى أننا إذا كنا نجد تشابها بين بعض الآراء التى قال بها مجموعة من الصوفية، وبين آراء ترجع إلى مصادر أجنبية، فإن هذا لا يعنى أن التصوف فى الإسلام يرجع أساسا إلى مصدر من هذه المصادر الأجنبية، صحيح أن بعض صوفية الإسلام قد استفادوا من هذه المصادر الأجنبية، ولكنهم قد استفادوا أساسا وبصورة رئيسية من المصدر الإسلامى يضاف إلى ذلك أن نشأة التصوف فى الإسلام إنما تمثلت فى الزهد والعبادة، ومن الصعب إرجاع الزهد والعبادة إلى مصادر غير إسلامية، فإننا لابد أن نضع فى الإعتبار أن هذا التشابه نجده بصورة رئيسية فى التصوف الفلسفى أكثر مما نجده فى التصوف السنى. وقد سبق أن بينا أن التصوف الفلسفى وحده لا يمثل التصوف الإسلامى، بل لابد أن نضيف إليه التصوف السنى.

إن المستشرق الفرنسى ماسينيون على سبيل المثال قد ذهب وهو بصدد البحث فى مصادر المصطلحات الصوفية، إلى أننا نجد هذه المصادر الخاصة بالمصطلحات تتمثل فى القرآن الكريم وفى بعض العلوم العربية الإسلامية كالحديث والفقه وفى الألفاظ والمصطلحات التى استعملها المتكلمون وأيضا فى تلك اللغة العلمية التى تكونت عبر قرون طويلة من لغات عديدة كاليونانية والفارسية.

ومعنى هذا أننا لابد أن نضع فى اعتبارنا أن التصوف فى الإسلام إنما يرجع أساسا إلى استفادة الصوفية من الكتاب والسنة.

---

[1] راجع فى ذلك كتاب الدكتور أبو الوفا التفتازانى: مدخل لدراسة التصوف الإسلامى.

ونود أن نبين كيف أن المتصوفة في حديثهم عن المجاهدات الروحية وفي دراستهم للأحوال والمقامات قد استندوا إلى الكثير من الآيات القرآنية بالإضافة إلى أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم.

لقد استمد الصوفية من القرآن والسنة الكثير من آرائهم في مجال الأخلاق والسلوك فالسراج الطوسي في كتاب اللمع يذهب إلى أن الصوفية تخصصوا بمكارم الأخلاق والبحث عن معالي الأحوال وفضائل الأعمال اقتداء من جانبهم بالرسول وصحابته وبالتابعين وهذا كله يعد موجودا في كتاب الله عز وجل.

وإذا كان الصوفية قد تحدثوا عن مجاهدات النفس التي تعد الطريق إلى الله تعالى، فإنهم قد استندوا إلى الكثير من الآيات القرآنية. ومنها قوله تعالى: "**والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين**" وقوله تعالى: "**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**" وقوله تعالى: "**قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن أتقى**" وقوله تعالى: "**وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هي المأوى**" وقوله تعالى: "**واصبر وما صبرك إلا بالله**".

بل إننا نلاحظ استفادة الصوفية من كثير من الآيات القرآنية حين دراستهم للمقامات كمقام الفقر ومقام المحبة، ودراستهم أيضا للأحوال كحال الخوف وحال الحزن وغيرهما من الأحوال ومن هذه الآيات قوله تعالى: "**رضي الله عنهم ورضوا عنه**" وقوله تعالى: "**والله الغني وأنتم الفقراء**" وقوله تعالى: "**واتقوا الله ويعلمكم الله**" وقوله تعالى: "**يدعون ربهم خوفا وطمعا**" وقوله تعالى: "**وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن**" وقوله تعالى: "**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**".

لعله قد تبين لنا الآن وبالأدلة القاطعة كيف أن بعض المستشرقين قد جانبهم الصواب حين أصدروا العديد من الأحكام حول فكرنا العربي دون

أن يدركوا من جانبهم عظمة هذا الفكر وأثره البالغ على أوروبا أيام كانت تعيش في عصور الظلام.

إذا كانت هذه الدعوة التي تذهب إلى أن الدين الإسلامي الذي يعتنقه فلاسفة العرب يعوق حرية الفكر ولا يشجع على النظر العقلي، إذا كانت هذه الدعوة تعد خاطئة فإن الزعم بوجود فوارق بين الأجناس بمعنى القول بأن العرب الذين يرجعون إلى الجنس السامي لا يستطيعون بحكم طبيعتهم أن يبتدعوا فلسفات جديدة، بعكس الأوروبيين الذين ينحدرون عن الجنس الآري. نقول أن هذه الدعوة التي يرددها بعض المستشرقين والتي تعتمد على التمييز بين طبيعة عقلية سامية وطبيعة عقلية آرية، تعد خاطئة أيضا من بعض زواياها. لهذا وجدنا الكثير من المفكرين أمثال بول ماسون أورسيل فيما سبق أن أشرنا - يتجهون إلى إبطالها من بعض زواياها.

وإذا كان هناك من المستشرقين من ذهب إلى القول بأن العرب لم يفعلوا في حقل الفلسفة شيئا إلا نقلهم دائرة المعارف اليونانية فإن هذا القول لا يستند إلى أساس صحيح. إن مفكري العرب قد تأثروا بمفكري اليونان هذا لا جدال فيه، بل نقول إنه لولا الفلسفة اليونانية لما وجدنا الفلسفة العربية، ولكن الصحيح أيضا أن مفكري العرب قد أثروا بدورهم الحياة العقلية ثراء منقطع النظير. إنهم اضافوا إلى دائرة المعارف اليونانية إضافات جديدة. إنهم قد توصلوا إلى آراء وحلول جديدة خاصة بهم. وذلك يرجع إلى أن للفلسفة العربية قضاياها ومشكلاتها الخاصة بها والتي لم تعرف عند مفكري الإغريق.

وإذا كان فلاسفة العرب قد تأثروا كثيرا بالتراث الفلسفي اليوناني، فإن هذا يعد شيئا طبيعيا إلى حد كبير أي أنه يعد مظهرا من مظاهر الصحة لا من مظاهر المرض، فالفلسفة اليونانية نفسها قد تأثرت بالعلوم الشرقية كما أخذ كل فيلسوف عن غيره. ففيثاغورث قد تأثر بعلوم الشرق. وأفلاطون -

فيما يقول المؤرخون – قد زار مصر القديمة وأعجب بمعارف الشرق. كما تأثر أرسطو بسابقيه تأثرا كبيرا، وفلاسفة العصر الحديث قد تأثروا بفلاسفة اليونان.

وعلى هذا فلا توجد أصالة خالصة فى كل زواياها. بمعنى أن كل فيلسوف قد تأثر بغيره. ويمكن أن نجد عند الكثير من الفلاسفة بعض العناصر التى استقوها عن الذين سبقوهم.

يقول ديورانت فى كتابه "عصر الإيمان" فى قصة الحضارة إن كتابا الشفاء والقانون من الكتب الخالدة على مر الزمان.

فالفلسفة العربية لها موضوعاتها التى تختلف فى بعض زواياها عن موضوعات الفلسفة اليونانية. إذ أن الفلسفة الإسلامية قد تأثرت دون شك بالبيئة التى نشأت فيها والتربية التى نمت عليها وترعرعت. وحينما انتقل تراث فلاسفة اليونان وخاصة أرسطو، إلى مفكرى العرب، أدركوا ما فى مذهبه من نقض وما فيه من مسائل تخالف العقيدة الإسلامية وما فيه أيضا من مسائل تركها أرسطو دون حل قاطع. ومن هنا بدأ فلاسفة العرب سد الثغرات التى وجدوها فى مذهب أرسطو. ونظرا لإعجابهم الكبير بأرسطو وغيره من الفلاسفة، نراهم يحاولون الدفاع عن الفلسفة قائلين إنها لا تتنافى مع الدين. ومن هنا نشأ موضوع التوفيق بين العقل والوحى أو بين الفلسفة والدين، وحتى تبدو الفلسفة وكأنها لا تخالف العقيدة الدينية، وحتى لا يجد بعض المفكرين مجالا للطعن على الفلسفة، ومحاولة تصويرها بأنها تخالف العقيدة الإسلامية. لقد حدث امتزاج عجيب بين فكر فلسفى يونانى وفكر طابعه وجوهره الديانة الإسلامية، ولا شك أن الدارس المقارن بين الفكر الفلسفى اليونانى والفكر الإسلامى، يجد أن المسلمين قد واجهوا مشكلات جديدة لم يثرها باستفاضة فلاسفة اليونان كمشكلة النفس وخلودها ومشكلة العلاقة بين الخالق والمخلوق ومشكلة الوحى الإلهى وغير ذلك من مشكلات.

إن هذه المشكلات لم يبحث فيها فلاسفة اليونان، لأن هذه الفلسفات لم تنشأ فى إطار دينى كذلك الإطار الذى نشأت فيه الفلسفة الإسلامية.

يقول الدكتور مدكور (فى الفلسفة الإسلامية ص ١٥): إن الفلسفة الإسلامية تعنى بمشكلة الواحد والمتعدد وتعالج الصلة بين إله ومخلوقاته وتحاول أن توفق بين الوحى والعقل بين العقيدة والحكمة، بين الدين والفلسفة،.. فالفلسفة الإسلامية وليدة البيئة التى نشأت فيها والظروف التى أحاطت بها وهى كما يبدو فلسفة دينية روحية.[1]

فلاسفة العرب إذن قد وجهوا اهتمامهم إلى حد كبير ببحث مشكلة التوفيق بين العقل والنقل، وقد قيل إن هذه المشكلة معقد الطرافة فى الفكر الفلسفى الإسلامى وأنها تميز هذا الفكر عما عداه. ولنا مقالات بصدد الرد على هذا القول ونكتفى بأن نذكر أنه على الرغم من أن محاولة التوفيق هذه لم يقدر لها النجاح أحيانا، بالإضافة إلى ما فيها من تعسف وتأويل لا يسمح به نص أرسطو، على الرغم من هذا كله فإن فلاسفة العرب حين حاولوا التوفيق بين دينهم الذى يدينون به وبين الفلسفة اليونانية، فإن هذا فى حد ذاته يعد سمة تميز بها الفكر الإسلامى ولا نجدها بين ثنايا أبحاث الفكر اليونانى.

ننتهى بعد هذا كله إلى التأكيد على القول بأن هناك فلسفة عربية لها قضاياها ولها مناهجها ومشكلاتها التى تختلف فى قليل أو فى كثير عن قضايا ومناهج ومشكلات الفلسفة اليونانية.

والواقع أن هذه الإتهامات التى شاعت فى القرن التاسع عشر، قد أثبت البحث العلمى الدقيق خطأها من أساسها، ووجد من المستشرقين والباحثين الغربيين من دافع عن أصالة الفلسفة الإسلامية وأثبت المكانة الكبيرة التى احتلها فلاسفة العرب فى تاريخ الفكر الفلسفى العالمى.

---

[1] فى الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه ص ١٥.

لقد ذهب الباحثون المنصفون إذن إلى أن دراسة كتب المتكلمين والفلاسفة العرب ومتصوفة الإسلام، دراسة دقيقة، لابد وأن تؤدى إلى التسليم بجدة وطرافة الفلسفة الإسلامية، وأن هذه الفلسفة لها موضوعاتها ومجالاتها التى تختلف عن موضوعات ومجالات الفلسفة اليونانية. صحيح أن فلاسفة الإسلام قد تأثروا بالفلسفة اليونانية، ولكنهم تأثروا أيضا بالمصدر الدينى الإسلامى، بحيث كان هذا المصدر - كما سنرى - من المصادر الأساسية التى اعتمد عليها فلاسفة العرب.

ولا نريد الإطالة فى هذا الموضوع، إذ ليس من المناسب ونحن فى أواخر القرن العشرين أن ندافع عن الفلسفة العربية ونرد على الإتهامات التى وجهها نفر من المستشرقين إليها نظرًا لأن الكثير من هذه الإتهامات، إن لم يكن كلها، قد أصبحت متهافتة متناقضة بعد الدراسات العميقة التى قام بها الكثير من الدارسين المنصفين سواء فى الشرق أو فى الغرب والتى أثبتت بما لا يدع مجالا للشك، أن هناك الكثير من العناصر الجديدة والأصيلة، والعديد من القضايا الفلسفية التى اختص بها فلاسفة العرب دون غيرهم ممن سبقهم من فلاسفة اليونان.

هذا يعنى أن فلسفة الإستشراق التى تقوم على التمييز بين طبيعة عقلية الجنس السامى وطبيعة عقلية الجنس الآرى، تعد أيضاً آراء خاطئة.

ولهذا لم يكن من الغريب أن نجد - كما سبق أن أشرنا - كثيرا من الكتاب أمثال بول ماسون أورسيل يتجهون إلى إبطالها من بعض زواياها ويذهبون إلى أنها آراء لا أساس لها، إذ لا فرق بين الشعوب فى التفلسف، والتفكير الفلسفى يعد خطًا مشتركا بين الناس جميعا شرقا وغربا.

نضيف إلى ذلك قولنا بأن الفلسفة العربية يكفيها فخرا أنها أنارت عقول مفكرى أوروبا فى وقت كانت فيه أوروبا تعيش فى ظلام الجهل. لقد لجأت أوروبا إلى مفكرى العرب تأخذ عنهم تراث اليونان، بالإضافة إلى

تأثرها ببعض أفكار هؤلاء المفكرين، وذلك عندما ترجمت كتبهم من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية. وإن ذلك إن دل على شئ فإنما يدلنا على أهمية ما تركه فلاسفة الإسلام من تراث عميق غاية العمق.

قلنا إنّ للفلسفة العربية خلافا لما ذهب إليه بعض المستشرقين موضوعاتها و مناهجها التى تختلف من بعض زواياها عن الفلسفة اليونانية إذ أن الفلسفة الإسلامية قد تأثرت دون شك بالبيئة التى نشأت فيها والتربة التى نمت عليها وترعرعت. وحينما انتقل تراث فلاسفة اليونان وخاصة أرسطو، إلى مفكرى العرب، أدركوا ما فى مذهبه من آراء قد تخالف العقيدة الدينية الإسلامية، وما فيه من مشكلات تركها أرسطو دون حل قاطع. ومن هنا بدأ فلاسفة العرب فى سد الثغرات التى وجدوها فى مذهب أرسطو وغيره من فلاسفة يونانيين كأفلاطون وأفلوطين. ونظرا لإعجابهم الكبير بأرسطو وغيره من الفلاسفة اليونانيين، فإننا نراهم يحاولون الدفاع عن الفلسفة قائلين إنها لا تتنافى مع الدين. ومن هنا نشأ موضوع التوفيق بين العقل والوحى أو بين الفلسفة والدين أو بين الحكمة والشريعة، وذلك حتى تبدو الفلسفة وكأنها لا تخالف العقيدة الدينية وحتى لا يجد بعض المفكرين مجالاً للطعن فى الفلسفة ومحاولة تصويرها على أساس أنها تخالف العقيدة الدينية الإسلامية. لقد حدث امتزاج عجيب بين الفكر الفلسفى اليونانى ، وفكر طابعه وجوهره الديانة الإسلامية. ولا شك أن الدارس المقارن بين الفكر الفلسفى اليونانى والفكر الإسلامى، يجد أن المسلمين قد واجهوا مشكلات جديدة لم يثرها باستفاضة فلاسفة اليونان.

ننتهى من هذا كله إلى التأكيد على القول بأن هناك فلسفة عربية لها قضاياها ولها مناهجها ولها مشكلاتها التى تختلف فى قليل أو فى كثير عن قضايا ومناهج ومشكلات الفلسفة اليونانية. وهذه كلها جديرة بأن يشتغل بها

ويبحث فيها ـارسوا الفلسفة سواء في ـسرو او في الغر ـ لأنها تعد كمـــ
قلنا – حلقة من حلقات التراث الفلسفي الإنساني العالمي.

وقبل أن نتحدث عن مجالات الفلسفة العربية والتي أنكر أهميتها نفـــر من المستشرقين نود أن نشير إلى أن فلاسفة العرب إذا كانوا قـــد اســـتفادوا استفادة كبيرة من المصدر الديني، بحيث كان هذا المصـــدر مـــن المصـــادر الأساسية التي شكلت وبلورت الكثير من آرائهم، فإنهم استفادوا أيضـــا مـــن المصادر الخارجية الأجنبية وخاصة المصدر اليوناني، استفادة كبيرة – ولكي نتعرف على هذا الجانب، لابد أن نشير بإيجاز إلى حركة الترجمة، إلى تلـــك الحركة العظيمة التي عن طريقها استطاع فلاسفة الإسلام التعرف على أفكار اليونان وفلاسفتهم.

يمكننا القول بأن حركة الترجمة قد انتشرت انتشـــارا واســـعا أيـــام العباسيين، بل يمكن أيضاً أن نجد عند الأمويين اهتماما بالترجمة. فيروى عن الأمير الأموي خالد بن يزيد بن معاوية أنه أمر بترجمة كتب الكيميا من اللغة اليونانية إلى اللغة العربية. ومما يدلنا على ذلك ما يقوله ابن النديم في كتابـــه "الفهـــرست". فهو يقول: كان خالد بن يزيد بن معاويـــة يســـمى حكيـــم آل مروان وكان فاضلا في نفسه وله همة ومحبة للعلوم، خطر ببالـــه الصنعـــة (الكيميا) فأمر بإحضار جماعة من الفلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل بمصـــر وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطـــي إلـــى اللســـان العربي، وهذا كان أول نقل في الإسلام من لغة إلى لغة.

ولكن حركة الترجمة أيام الأمويين كانت محدودة وغير مزدهرة، أما في أيام العباسيين فقد انتشرت حركة الترجمة انتشارا واسعا، إذا بـــدأ العمـــل المنظم في نقل كتب مفكري اليونان في الطبيعة والطب والمنطق وغير ذلـــك من علوم وفلسفات.

ونود أن نشير إلى أنه كان يوجد الكثير من المترجمين، ومن بينهم يوحنا أو يحيى البطريق وعبد المسيح بن ناعمة الحمصى، وقسطا بن لوقا البعلبكى، وحنين بن اسحق واسحق بن حنين، وحبيش بن الحسن، وأبو بشرمتى بن يونس، وأبو زكريا يحيى بن عدى المنطقى، وأبو على عيسى بن اسحق بن زرعة.

وإذا كان بعض المترجمين قد وقعوا فى قليل من الأخطاء وخلطوا بين المدارس الفلسفية اليونانية[1]، فإننا لا نستطيع أن ننكر أنهم قاموا بجهد كبير فى عملهم وأدوا عملهم هذا على خير وجه تحت تشجيع ورعاية الخلفاء العباسيين، وخاصة بعد إنشاء بيت الحكمة الذى احتوى كتبا وضعت بلغات شتى، يونانية وفارسية وهندية وكانت الترجمة فى بدايتها تتم من اللغة اليونانية إلى السريانية، ثم بعد ذلك أمكن نقل الكتب من اللغة اليونانية إلى اللغة العربية مباشرة. وقد استطاع فلاسفة الإسلام باعتمادهم على هذه الترجمات معرفة آراء المدرسة الأيونية، والمدرسة الأيلية، آراء فيثاغورث وآراء السوفسطائيين وغير السوفسطائيين وسقراط وأفلاطون وأرسطو، ولولا ذلك ما عرفوا آراء أفلوطين واطلقوا عليه اسم الشيخ اليونانى.

أما عن تحديد مجال الفلسفة العربية فإننا نود أن نشير إلى أننا إذا أردنا تحديد مجال الفلسفة العربية، فإننا نجد خلافا بين الباحثين حول تحديد مجال هذه الفلسفة العربية.

فقد نفهم الفلسفة العربية بمعنى الآثار التى تركها لنا فلاسفة عاشوا فى المشرق العربى كالكندى والفارابى وابن سينا، وفلاسفة عاشوا فى المغرب العربى كابن باجه وابن طفيل وابن رشد.

---

[1] راجع فى ذلك كتابنا: الفلسفة العربية – مدخل جديد – دار لو نجمان – القاهرة.

وقد نضم داخل دائرة الفلسفة العربية متكلمي الإسلام على اختـــلاف فرقهم كالخوارج والشيعة والمرجئة والجبرية، والمعتزلة من أمثال واصل بن عطاء وأبي الهذيل العلاف وإبراهيم بن سيار النظام والأشاعرة من أمثال أبي الحسن الأشعري مؤسس فرقة الأشاعرة والجويني والباقلاني وعبـد القـاهر البغدادي.

فأكثر هذه الفرق الكلامية وخاصة المعتزلة والأشاعرة قد قدمت لنـــا فكرا يعبــر عن المزج بين المصادر الإسلامية والمصادر الخارجية اليونانية. لقد استفادوا استفادة كبيرة من آيات القرآن الكريم وبذلوا جهدهم في تأويل هذه الآيات. بل إن هذا المصدر الديني كان واضحا منذ بداية نشأة المعتزلة. فلـــو رجعنا إلى كتاب الملل والنحل للشهر ستاني لوجدناه يقول: إنّ واصـــل بـــن عطاء مؤسس الفرقة حين اختلف مع أستاذه الحسن البصـــري فـــي قضيـــة مرتكبي الكبائر، اعتزل مجلسه واستقل في زاوية من زوايا المســـجد يلقـــي الدروس وحوله بعض الناس ومنهم عمرو بن عبيد الذي كان عضوا بـــارزا من رجال المعتزلة . وعندئذ قال الحسن البصري: اعتزلنا واصل. فسمي هو وأصحابه بالمعتزلة.

ويقول البغدادي في كتابه "الفرق بين الفرق": إن المعتزلة سميت بهذا الإسم لاعتزالها قول الأمة في دعواها أن الفاسق من أمة الإسلام لا مؤمـــن ولا كافر.

وما يقال عن المعتزلة، يقال أيضا عن الأشاعرة. إن الأشعري الـــذي التحق في بداية حياته بالمعتزلة ودرس أصول الإعتزال على الجبائي الـــذي يعد من أشهر رجال المعتزلة في تلك الفترة، قد خرج بعد ذلك على المعتزلة. وقد يكون خروجه راجعا إلى أسباب دينية.

وإذا كنا نجد عند الفرق الإسلامية مصادر إسلامية لفكرهم ، فإننا نجد أيضا عندهم استفادة من المصادر الأجنبية و منها المصدر اليوناني الذي ظهر

عند المعتزلة وخاصة المتأخرين منهم. ويبدو ذلك واضحا في أصولهم الخمسة التى قالوا بها وهى التوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. إن الإستفادة من المصادر الخارجية تبدو واضحة عند المعتزلة المتأخرين بصفة خاصة.

علم الكلام إذن له علاقة وثيقة بالفلسفة، إذ أنه اصطبغ بها وتأثر بعلومها تأثرا كبيرا وقد ذهب إلى ذلك كثير من الباحثين، منهم ابن خلدون فى مقدمته، إذ رأى أن مسائل علم الكلام قد اختلطت بالفلسفة بحيث لا تتميز واحدة منهما عن الأخرى. وأشار إلى ذلك أيضا عضد الدين الإيجى فى كتابه "المواقف" والبيضاوى فى كتابه "الطوالع" كما ذهب إلى ذلك الرأى بعض الباحثين والمستشرقين الأوروبيين أمثال جولد زيهر فى كتابه "العقيدة والشريعة فى الإسلام" ورينان Renan فى كتابه "ابن رشد والرشدية".

ونود أن نشير إلى أننا إذا كنا نجد ارتباطا بين علم الكلام وبين الفلسفة، إلا أننا لابد أن نضع فى الإعتبار أننا نجد خلافا بينهما من حيث المنهج ومن حيث الموضوع أيضا.

وقد ندخل فى دائرة الفلسفة العربية، متصوفة الإسلام سواء كانوا من أصحاب التصوف السنى كرابعة العدوية والغزالى أو كانوا من أصحاب التصوف الفلسفى كالحلاج ومحيى الدين بن عربى والسهروردى المقتول وابن سبعين. صحيح أننا لا نجد استفادة ظاهرة عند أصحاب التصوف السنى أو من جانب الزهاد والعباد بالمصادر الخارجية، ولكننا نجد استفادة من جانب المعبرين عن التصوف الفلسفى حين دراستهم للحلول والإتحاد ووحدة الوجود والبقاء والفناء، وإن كان المنهج الذى يسير فيه الفلاسفة غير المنهج الذى يسير فيه الصوفية والذى يعد منهجهم منهجا يعتمد على الجانب القلبى الذوقى الوجدانى.

وقد ندخل فى دائرة الفلسفة العربية، علم أصول الفقه والذى يسمى أيضاً بعلم أصول الأحكام. وهذا العلم فى رأى بعض الباحثين، يتضمن بعض

المبــادئ الكلامية ومن هؤلاء الباحثين الشيخ مصطفى عبد الــرازق الــذى يقول فى كتابه "تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية: وإنه إذا كان لعلم الكلام ولعلم التصوف من الصلة الفلسفية، ما يسوغ جعل اللفظ شاملا لــهما، فــإن علــم أصول الفقــه المسمى أيضا علم أصول الأحكــام، ليــس ضعيــف الصلــة بالفلسفــة، ومباحث أصول الفقه تكاد تكون فى جملتها من جنــس المبــاحث التى يتناولها علم أصول العقائد الذى هو علم الكلام، بل أنك لترى فى كتــب أصول الفقه أبحاثا يسمونها "مبادئ كلامية" هى من مباحث علم الكلام.

ولكننا لا نوافق على هذا الرأى الذى قال به نفر من الباحثين وعلــى رأسهم الشيخ مصطفى عبد الرازق. إن خصائص الفلســفة، تختلــف عــن خصائص علم أصول الفقه، بل إن المعنى الدقيق كما سبق أن أشرنا يؤدى بنا إلى القول بأن فلاسفة العرب وحدهم هم الذين يدخلون فى إطار ما نطلق عليه الفلسفة العربية.

وقد نضم أيضا داخل دائرة الفلسفة العربية، الجانب العلمى من بحوث مفكرى وفلاسفة العرب إذ أن علاقة الفلسفة بالعلم تعد علاقة وثيقة وخاصــة إذا وضعنا فى الإعتبار أن الفلسفة وخاصة فى العصر القديم والعصر الوسيط كانت تبتلع كل العلوم فى جوفها وذلك على أساس أنها تتضمن العلوم النظرية والعلــوم العملية، وإذا وضعنا فى الإعتبار أيضا أن أكثر فلاسفة العرب كانوا بالإضافة إلى كونهم فلاسفــة، علماء فالكندى مثلا قد برع فــى الرياضيــات ولــه رسائل كثيرة فى الطبيعيات. وابن سينا كان طبيعيا وألف كتابــا مــن أعظم الكتب فى مجال الطب وهو كتاب القانون، بالإضافة إلى رسائل كثــيرة فى الجوانب الطبيعية. وابن رشد الفيلسوف المغربى الأندلسى له العديد مــن الكتب والرسائل فى مجال الطب وعلى رأسها كتابه القيم "الكليات".

يضاف إلى ذلك، أننا نجد مجموعة من أعظم العلماء تركوا بصمــات واضحة فى كل فرع من فروع العلم ومنهم على سبيل المثال الحسن بن الهيثم فــى مجال الرياضيات وجابر بن حيان فى مجال الكيمياء والبــيرونى فــى مجال علم الفلك أى علم الهيئة وغيرهم كثيرون.

بعد هذا كله نقول إننا نجد أفضالاً عديدة للمجهودات التى قام بها المستشرقون. ولولا هذه المجهودات من جانبهم، لما استطعنا التوصل إلى كتبنا التراثية. لقد تعلمنا منهم المنهج أيضاً. ومن النادر أن تجد ميداناً من ميادين الفكر العربى، إلا للمستشرقين فيه فضل. إن لهم البصمات القوية موضوعاً ومنهجًا. ومن الظلم التعسف فى الحكم عليهم. ولكن ماذا نفعل حيال أناس من أشباه الباحثين والدارسين يحلولهم توجيه الإتهامات الظالمة إلى المستشرقين دون أن يدركوا أعمالهم العظيمة ومناهجهم الدقيقة والأكاديمية. نقول هذا ولا نمل من تكراره، طالما أننا ما زلنا نجد العديد من اتهامات الأشباه ضد مجهودات المستشرقين وما أعظمها وما أروعها من مجهودات.

الفصل الثامن

روايات الخيال العلمى (برؤية نقدية)

"ينبغى علينا أن نضع فى اعتبارنا أن العلـــم فـــى تطـــور مستمر. وكم نجد فى روايات الخيال العلمى قديماً من تصـــــورات كنـــا نحسبها داخلة فى إطار اللامعقول، إطـــار الأســطورة، ثــم وجدنا بعد ذلك تلك التصورات وقد أصبحت بين أيدينا وقائع فعلية وتطبيقات تكنولوجية."

الفصل الثامن

روايات الخيال العلمى (برؤية نقدية)

لا أشك فى أن روايات الخيال العلمى تعد من فنون الأدب الهامة والتى تحظى باهتمام كبير من جانب الدارسين والأدباء والمهتمين بتاريخ الأدب عامة، وروايات الخيال العلمى على وجه الخصوص.

ولابد أن نضع فى اعتبارنا منذ البداية أن هذا اللون من الروايات، روايات الخيال العلمى إذا كان لم يحظ باهتمام كبير من جانب الدارسين للأدب، فإن من أسباب ذلك الخلط بين الفن والنقد من جهة، وأيضاً عدم التفرقة بين الخيال العلمى من جهة، والخرافات والأساطير من جهة أخرى... إلى آخر تلك الأسباب التى جعلت أغلب أحكامنا على روايات الخيال العلمى يسودها عدم الدقة والأخطاء التى لا حصر لها فى مجال نقد روايات الخيال العلمى والنظر إليها نظرة غير صحيحة.

فإذا كان الأدب ضربا من ضروب الفنون التى لا يمكننا فصلها عن الرؤية الذاتية، رؤية الأديب، فإن النقد لا يصح أن تنظر إليه من خلال الرؤية الذاتية، بل إن النقد يعد فى الأساس علماً. ومن هنا فيجب علينا معشر الأدباء والنقاد أن نفرق بين الفن من جهة، وبين نقد الأعمال الفنية من جهة أخرى. ويقينى أننا إذا التزمنا بذلك التزاماً دقيقاً فإننا سنقوم بتصحيح كثير من الأحكام التى يجانبها الصواب، ومن بينها الأحكام التى تدخل فى إطار روايات الخيال العلمى، سواء من جهة الرواية فى حد ذاتها، أو من جهة الأحكام النقدية التى نصدرها على تلك الأنواع من الروايات، روايات الخيال العلمى.

أليس من الصحيح أن نقول: الفن أنا والعلم نحن. إن هذه العبارة تدلنا عل أن البعد الذاتى إذا كان موجوداً فى الأعمال الفنية الأدبية، فإننا إذا نظرنا إلى النقد كعلم، فينبغى علينا إذن أن نلتزم بالقواعد العامة المشتركة والموضوعية، وذلك حتى لا نخلط بين مجال الفن من جهة، والنقد من جهة أخرى.

ينبغى علينا أيضا أن نضع فى اعتبارنا أن العلم فى تطور مستمر. وكم نجد فى روايات الخيال العلمى قديماً من تصورات كنا نحسبها داخلة فى إطار اللامعقول، فى إطار الأسطورة، ثم وجدنا بعد ذلك تلك التصورات التى كنا نحسبها خيالاً فى خيال، وقد أصبحت بين أيدينا وقائع فعلية، بل تطبيقات تكنولوجية.

ويقينى أننا إذا وضعنا ذلك كله فى اعتبارنا، فإن ذلك سيكون كفيلاً بأن ننظر إلى موضوع إبداعية الخيال العلمى فى مجال الرواية، نظرة صادقة، نظرة موضوعية ونعتقد من جانبنا أن الجانب الإبداعى فى قصص الخيال العلمى سواء فى أوروبا أو عند العرب، لا يقل فى مستواه عن الجوانب الإبداعية التى نجدها فى ميادين وفنون الأدب الأخرى شعراً كان أو نثراً، وفى الملحمة والمسرحية والخطابة. وهذا يؤدى بنا إلى القول بأنه من الواجب علينا أن نهتم بالتركيز على روايات الخيال العلمى، تلك الروايات التى تنطلق فيها الطاقات الإبداعية للأديب أو الكاتب. وهل يمكن أن نقلل من أهمية قصص وروايات تدخل كلها أو بعض منها فى إطار الخيال العلمى والذى يتعلق من جوانبه باليوتوبيا العلمية أو باليوتوبيا المثالية، ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر جمهورية أفلاطون والمدينة الفاضلة للفارابى وتدبير المتوحد لابن باجه، وجول فيرن، وهـ. ج. ويلز، وألدوس هكسلى، وجورج أورويل، وتوفيق الحكيم.

إننا نستطيع التعرف على كثير من الجوانب الإبداعية فى روايات الخيال العلمى إذا ركزنا على تلك الروايات التى كتبت قديماً وأيضاً الروايات التى كتبها أدباء الغرب بصفة خاصة. أما ما نجده عند بعض كتابنا وأدبائنا المعاصرين من روايات يزعم لها أصحابها أنها تدخل فى مجال الخيال العلمى، فإن أكثرها للأسف يعد من قبيل الأعمال المشوهة والناقصة والتى لا نجد فيها طاقة إبداعية أو تصوراً جديداً من جانب مؤلفيها وكتابها، بل إن أكثرها أيضاً لا يخلو من تأثر إن لم يكن نقلاً شبه تام من الأعمال الأدبية القديمة تارة ومن كتابات الغرب تارة أخرى.

بالإضافة إلى أننا نلاحظ فى كتابات العرب المعاصرين من الأدباء خلطاً شبه تام بين الجوانب الدينية والجوانب الإبداعية الأدبية، كما نلاحظ نقصاً فى المعلومات العلمية وغيرها من الأشياء التى نلاحظها والتى تجعلنا نقول إن تلك الأعمال رغم الجهد المبذول فيها، فإنها لا تدخل دخولا مباشراً فى مجال الخيال العلمى ولا تنطبق عليها القواعد الفنية والأدبية. وليرجع القارئ إلى العديد من روايات كتاب أمثال مصطفى محمود وصبرى موسى وإيهاب الأزهرى ونهاد شريف. إن أكثر هذه الروايات لا تكشف عن جوانب إبداعية ولا نجد عند أصحابها رؤية أدبية أو علمية. لا نجد عند مؤلفيها اتجاهات محددة مما يجعلنا نقول إننا إذا طبقنا أسس الإبداع الفنى. إذا طبقنا القواعد الأدبية، فإننا سنستبعد أغلب أعمالهم من ميدان الرواية العلمية، أى رواية الخيال العلمى.

ولكى نكشف عن الجوانب الإبداعية فى روايات الخيال العلمى، فإنه لابد لنا أن نلاحظ أن الروايات الكبرى والخلاقة إنما تكشف عن رؤية أو نظرية عند مؤلفيها. إننا نستطيع التعرف على آراء الأدباء الذين كتبوا تلك الروايات من خلال الحوار الدائر بين أشخاص الرواية أو القصة. وقد اتيح لكاتب هذه السطور دراسة أكثر الأعمال الأدبية التى تدخل فى إطار الخيال

العلمى بكل أنواعه ومجالاته، وقد توصلت إلى القول بأن الأدباء الكبار فى الغرب بصفة خاصة إنما يكشفون عن طريق روايات الخيال العلمى التى قدموها لنا عن رؤية نقدية تارة، ومستقبلية تارة أخرى، بالإضافة إلى خلفيتهم العلمية والفلسفية التى يلاحظها الدارس بين ثنايا السطور التى تتألف منها الرواية أو القصة.

ودليلنا على ذلك أن تلك الروايات إنما تثير العديد من القضايا التى تتعلق بقضايا التقدم العلمى والأخلاق والخير والشر والتشاؤم والتفاؤل والحرية والجبر وهل نتقدم إلى الأمام أم أننا نرجع إلى الوراء وهل العلم لديه القدرة على حل مشكلات الإنسان وهكذا إلى آخر القضايا البالغة الأهمية والتى تكشف عن جوانب إبداعية خلاقة عند أصحابها. إنها قضايا لا نجدها واضحة ولا محددة فى الروايات العربية الحديثة والتى يزعم لها أصحابها أنها تدخل فى إطار روايات الخيال العلمى، فى حين أنها لا تكشف عن قيم إبداعية عند مؤلفيها، والفرق بينها وبين الأسس التى ينبغى توافرها فى روايات الخيال العلمى، أكثر من الفرق بين الإنس والجن، بين المشرق والمغرب. إن أكثرها لا يزيد عن كونه مجموعة من التصورات الفجة الساذجة بل السطحية والتى لا تكشف عن رؤية نقدية أو مستقبلية ومن هنا فإننا نعتقد من جانبنا بأنه من الضرورى استبعاد تلك الروايات من المجال الإبداعى الخاص بروايات الخيال العلمى، وبحيث نعتقد أن الجوانب الإبداعية فى روايات الخيال العلمى لا تتكشف لنا إلا من خلال الأعمال الأدبية القديمة ومنها ما يدخل فى إطار اليوتوبيا أو المدن الفاضلة وهذه نجدها عند مؤلفين فى الغرب وفى البلدان العربية أيضاً وذلك على النحو الذى سبق أن أشرنا إليه، ويمكن أن نضيف إلى تلك الأعمال الأدبية، الأعمال التى نجدها عند الأدباء المحدثين والمعاصرين فى الغرب بصفة خاصة. وهذه الأعمال الأدبية الغربية تكشف

عن طاقات إبداعية خلاقة وتنطبق عليها أسس الإبداع الفنى كما يحددها لنا نقاد الأدب وعلماء النفس.

وإذا كانت روايات الخيال العلمي تكشف لنا عن رؤية مستقبلية، فإن ذلك يعنى أنها تتميز بالبعد الإبداعي. إذ أن الأديب الحق هو الذى لا يقف علـى سطح الأرض بطريقة مباشرة، بل إنه عن طريق ذكائه الحاد إنما يرى أبعد مما يراه الآخرون. إنه كمن يقف فى مكان أعلى من المكان الذى يقف فوقه عامة الناس والذين لا يرون أبعد من المجال الذى يتحركون فيه. أما هو كأديب حق، كأديب له شعلته الإبداعية، فإنه يمد بصره بحيث يخترق حجاب الجدران الأربعة التى يتحرك فيها عامة الناس، وذلك حتى يمد بصره نحو المستقبل، نحو الأمام البعيد، إن صح هذا التعبير.

هذه الجوانب الإبداعية نجدها في العديد من القصص والروايات. ولابد أن نلاحظ أننا قد نجد مجموعة من تلك القصص والروايات لا تعبر فى بعض أجزائها عن الخيال العلمى، بل فى بعض مواضعها، ولكن هذا لا ينفى أنها يمكن أن تدخل فى إطار قصص وروايات الخيال العلمى. ومما يدلنا على إبداعية تلك الروايات أنها كانت مؤثرة فى تشكيل وجدان العديد من الأدباء والمفكرين والعلماء طوال عصور عديدة.

فإذا رجعنا على سبيل المثال إلى الأدب المصرى القديم، وجدنا أقدم صورة من صور قصة السندباد البحرى، أو أقدم صورة من صور قصة روبنسن كروزو وقصة حى بن يقظان والتى يرجح البعض أن أصولها عند أدباء ومفكرى العرب إنما كانت قديمة جداً وأنها انتقلت إليهم عن طريق مدرسة الإسكندرية القديمة والتى تفاعلت فيها الحكمة الشرقية القديمة مع الحكمة اليونانية.

إن هذه القصة، قصة السندباد البحرى فى الأدب المصرى القديم أو قصة الملاح الذى تحطمت سفينته تعد ترجمة ذاتية – فيما يقول ول ديورانت

في كتابه قصة الحضارة – لحياة ملاح تفيض حياة وشعوراً. إن هذا الملاح يقول في مطلع قصته: سأقص عليك شيئاً حدث لي حين اتجهت نحو مناجم الملك ونزلت البحر في سفينة طولها مائة وثمانون قدماً وعرضها ستون وفيها مائة وعشرون من صفوة الملاحين المصريين الخبيرين بمعالم الأرض ومعالم السماء وقلوبهم أشد بأساً من قلوب الأسود يتنبأون بأعاصير البحر وعواصف البر قبل أن تثور. وهبت علينا عاصفة ونحن لا نزال في البحر ودفعتنا الرياح حتى كدنا نطير أمامها وثارت موجة علوها ثمانية أذرع. ثم تحطمت السفينة ولم ينج أحد ممن كان فيها، وألقت بي موجة من أمواج البحر في جزيرة قضيت فيها ثلاثة أيام بمفردي لا رفيق لي إلا قلبي أنام تحت شجرة وأعانق الظلال ثم مددت قدمي أبحث عما أستطيع أن أضعه في فمي فوجدت أشجار التين والعنب وكان في الجزيرة سمك ودجاج ولم ينقصها شئ قط وبعد أن صنعت لنفسي جهازاً أو قد به النار، أشعلتها وقدمت للآلهة قرباناً مشوياً.

والتفاصيل التي نجدها في هذه القصة تدخل في إطار الخيال العلمي وتكشف عن خلفية علمية عند كاتبها كما تعرض الكثير من المشكلات التي تقوم على المزج بين الحوادث الطبيعية التي يمكن تفسيرها، وخوارق الطبيعة أي الأشياء غير المعقولة التي لا يمكن تفسيرها تفسيراً علمياً معقولاً، وإن كنا نجد فيها رؤية مستقبلية لا تخلو من أسس علمية.

ونجد أيضاً بعض جوانب الخيال العلمي والتي لا تخلو من جوانب إبداعية، في قصة ورواية حي بن يقظان لابن طفيل والتي قد تتشابه من بعض جوانبها مع قصة السندباد البحري في مصر القديمة والتي أشرنا إليها منذ قليل.

لقد وجد "حي" بجزيرة مهجورة. وحينما اشتد الجوع بالطفل بكى واستغاث حاول الحركة بحيث سمعته ظبية فقدت ولدها، فحينما سمعت

الصوت ظنته ولدها فتتبعت الصوت وهى تتخيل ولدها، فحنّت الظبية علـــى الطفل وأروته لبنها وأخذت تربيه وتدفع عنه الأذى.

ويعرض علينا ابن طفيل الكثير من التفصيلات التى تدخل فى مجـــال الخيال العلمي والتى لا تخلو من الإستناد فى نفس الوقت إلى أسس علمية. إنه يعرض علينا العديد من الجوانب التى تتعلق بالجسم والنفس وحقيقة المـــوت والحركة والسكون وموجودات العالم العلوى وموجودات العالم السفلى والصلة بين كل عالم والعالم الآخر، وكيفية اكتشاف النار من جانب "حـــى"، وكيـــف توصل إلى استخدام بعض الأشياء كغذاء له وكملابس له وكمسكن له إلى آخر التفصيلات التى لا تخلو من جوانب إبداعية.

بل إنه مما يدلنا على أن الرؤية الإبداعية لابد وأن ترتبـــط بموقـــف للأديب أو مذهب يعبر من خلاله عن موقفه الأدبى أو الفكرى أو الفلسفى أننا نجد فى رواية حى بن يقظان عرضاً لآراء ابـــن طفيـــل الأديـــب والمفكـــر الأندلسى فى فلسفة الخلود وفلسفة الدين وغيرها مـــن المشكـــلات الفكريـــة الكبرى.

إننا نقول ونكرر القول بأن إبداعية روايات الخيال العلمى لا يمكن أن تتحقق إلا إذا كشفت تلك الروايات عن موقف لمؤلفها، عن اتجاه، عن رؤيـــة شمولية، عن مبررات للقول برأى محدد دون رأى آخر. وعلينا لكى نـــدرك ذلك جيداً أن نرجع إلى ما كتبه أفلاطون (محاورة ايون) وأرســـطو (كتـــاب الشعر) وسانتيانا (الشعور بالجمال) ودويل (العملية الإبداعيـــة) وتـــودوروف (الرمز والتفسير) وبرتراند رسل (النظرة العلمية) وليفى بريل (العقلية البدائية) والفارابى (آراء أهل المدينة الفاضلة) وابن باجه (تدبير المتوحـــد) وجيمـــس فريزر (الغصن الذهبى) ويوسف مراد (مبادئ علم النفس العـــام) وجيلفـــورد (ميادين علم النفس).

وروايات الخيال العلمى تستند فى بعض جوانبها إلى الأسلوب الرمزى. ونعتقد من جانبنا أن هذا الأسلوب الرمزى يكشف عن إبداعية دقيقة فياضة عميقة وكم ارتبط هذا الأسلوب الرمزى بمواقف ارتبطت بالرؤية الإبداعية كالشك والقلق والحيرة والبحث عن مصير الإنسان وعن عالم الغد وكيف سيكون مستقبل البشرية والصلة بين الكوكب الأرضى وما قد يوجد من حياة فى الكواكب السماوية وعالم الفضاء. إن هذه الروايات تعتمد على نوع من الحدس العلمى والفنى والجمالى، ولا تقوم على مجرد سرد حوادث يومية عادية تقع لكل الناس، بل تستند إلى تجربة جمالية إبداعية لا يمكن أن يعبر عنها إلا الأديب الصادق، الأديب الذى له جهازه الفكرى العميق. الأديب الذى لديه القدرة على إدراك اللحظة الخاطفة وكأنها اللحظة أو الوقت الذى يتحدث عنه الصوفية إن وعيه العادى يكاد يتلاشى حين ينظر بعين الفن والوجدان، العين الثاقبة القوية الإشعاع وكأنه يرى عوالم غير العوالم التى يعيش فيها كإنسان عادى.

نعم إن هذه كلها جوانب إبداعية لابد أن نأخذها فى اعتبارنا ونحن نقرأ أعمال كثير من أدباء الخيال العلمى ومن بينهم ويلز وفيرن وصمويل بتلر وفرنسيس بيكون فى رائعته "أطلانتس الجديدة" ألم يتنبأ هؤلاء الأدباء بأشياء تمت وتحققت بعد ذلك. ألم يتحدث بعضهم عن عوالم فضاء قبل أن يصل الإنسان إلى القمر. ألم يكتب ألدوس هكسلى عن عالم جديد، بل عوالم جديدة لا يمكن تفسير ما يكتبه عنها إلا بأن نقول بقدرته الإبداعية التى لا يمكن فصلها عن حصيلته الفكرية والعلمية. ألم يتحدث جول فيرن، هـ. ج. ويلز وغيرهما من أدباء كبار عن حرب الكواكب وعن رحلة إلى القمر، وعن سفن الفضاء.

بل إن العديد من النظريات العلمية كانت فى بدايتها مجموعة من الإرهاصات والتنبوءات التى تدخل من بعض زواياها فى المجال الأدبى. وهل

يمكننا فصل العلم عن الخيال العلمي. هذا الخيال العلمي الذي نجده من بعض زواياه حتى في الإلياذة والأوديسة لهوميروس.

والخيال العلمي له طاقاته الإبداعية. إننا نجد ذلك واضحاً في العديد من المراحل والتطورات التي مر بها الخيال العلمي. ومن المعروف أن الخيال العلمي إذا تحقق فإنه لا يصبح بعد ذلك مادة للخيال العلمي في رواية في المستقبل. نوضح ذلك بالقول بأننا إذا كنا نجد مجموعة من الانجازات العلمية التي تحققت وكانت في بداياتها من صور الخيال العلمي عند الأدباء من أمثال من أشرنا إليهم، فإن الأديب بعد تحقق مجموعة من الإنجازات العلمية، لابد وأن يتخيل عوالم جديدة ومجالات أخرى غير المجالات التي تم تحقيقها على أيدي العلماء. والخيال لا حدود له ومن هنا فإننا نتوقع أن يستمر أدب الخيال العلمي طوال حياة الإنسان على وجه الأرض، تماماً كما نقول بوجود مرحلة العلم عند اينشتين جاءت بعد مرحلة العلم عبر عنها أرسطو قبل الميلاد، وعبر عنها نيوتن بنظرية الجاذبية قبل عدة قرون من أنيشتين.

ومن الواضح أن روايات الخيال العلمي إذا كانت تستند في بعض جوانبها إلى الأسطورة وإلى الخيال، وإلى التجارب الشخصية للأديب، فإن هذا يدلنا على أهمية الروايات العلمية، إذ أن هذه الأشياء تعد ضمن مصادر الأدب المسرحي العالمي، والمسرح فن من الفنون الهامة.

وإذا كانت روايات الخيال العلمي تعتمد في بعض جوانبها على اللغة الرمزية، فإن استخدام الرمز وتوظيفه في هذه الروايات له دلالاته العميقة. إنها عن طريق لغة الرمز تعيد تشكيل العالم من خلال رؤية كاتبها. ليس هذا فحسب، بل إنها تقوم بتصوير عوالم جديدة وكائنات جديدة وعلاقات مبتكرة بين الأشياء.

هذه الجوانب نجدها فى أوضح صورها فى الأعمال التى تركها لنا أدباء الغرب بصفة خاصة، وهذا لا يقلل من محاولات بعض أدبائنا المعاصرين من أمثال توفيق الحكيم، وإن كان توفيق الحكيم متأثراً ببعض كتابات الغربيين من أمثال هـ. ج. ويلز وعلى القارئ الرجوع إلى بعض روايات توفيق الحكيم أديبنا العظيم، ومن بين تلك الروايات والقصص، "فى مليون سنة" و"رحلة إلى الغد" و"الطعام لكل فم" وغيرها من الروايات والقصص التى لا تخلو من تعبير عن أدب الخيال العلمى وما فيه من طاقات إبداعية للأديب أو المفكر.

والواقع أننا فى أمس الحاجة إلى إعادة النظر فى كثير من أحكامنا حول روايات وقصص الخيال العلمى. إن أكثرنا للأسف الشديد يخلط بين روايات الخيال العلمى وبين الأعمال الفنية تماماً كما نخلط بين خصائص العمل العلمى والعمل الفنى الأدبى. أكثرنا يظن أن العلم قد توقف عند إنجازاته الحالية ومن هنا ينظر إلى روايات الخيال العلمى نظرة خاطئة حين يعثر على مجالات لم تتحقق حتى الآن فى صورة إنجازات وتطبيقات علمية، تماماً كما يخلط أكثر نقادنا بين عمل المؤرخ وعمل الأديب حين يكتب رواية تاريخية. كل هذه تعد أحكاماً خاطئة نجدها عند نقادنا من العرب، ونادراً ما نجدها عند نقاد البلدان الأوروبية. وارجعوا أيها السادة القراء إلى الكتب الهامة فى مجال النقد الأدبى والتى أشرنا إلى بعضها منذ قليل عند كتاب أوروبيين وستجدون أن أحكامنا نحن العرب حول مشكلة الإبداع فى روايات الخيال العلمى تحتاج منا إلى إعادة نظر وإعادة تقييم. إننا نخطئ كل الخطأ حين ننظر إلى حقيقة الإبداع فى روايات الخيال العلمى وكأنها معزولة عن النظرة الشمولية للأديب الذى يحاول من خلال رواياته فى مجال الخيال العلمى النظر إلى العالم نظرة مستقبلية، النظر إلى عالم جديد تسوده قيم غير القيم السائدة الآن. وكنا نود ضرب العديد من الأمثلة من خلال كل

روايات الخيال العلمى عند الأدباء الغربيين بصفة خاصة حتى يعرف القـــراء أن الأديب الذى يكتب فى مجال الخيال العلمى يملك قدرة إبداعية يعبر مـــن خلالها عن مذهبه الفكرى واتجاهه الفلسفى، ولكننا اكتفينا بالأســس النظريـة وببعـض الأمثلة التى تبين لنا حقيقة الإبداع فى روايــات الخيــال العلمــى، وكيف أن الإبداع فى تلك الروايات لا يقل بحال من الأحوال عن الإبداع الذى نجده فى صور ومجالات الأدب الأخرى وما أكثرها. إنها دعوة مــن جانبنــا نــرجو أن تجد صداها عند نقادنا من العرب وعند مــن يريــدون مســتقبلاً للكتابة فى مجال الرواية العلمية.

الفصل التاسع

رؤية نقدية حول ما يسمى بأدب المرأة فى عالمنا العربى

"منذ سنوات بعيدة، أخذت فى قـــراءة الإنتـــاج المطبـــوع لمجموعة كبيرة من الكتاب والكاتبات، وقد ركزت بصفة خاصـــة وفى فترة من الفترات على إنتاج الكاتبات، وقد أثار دهشتـــى أن إنتـــاج الكاتبات، إنتاج النساء لايدخل فى دائرة الأعمال الأدبيـــة من قريب أو من بعيد".

الفصل التاسع

رؤية نقدية حول المرأة فى عالمنا العربى

لا أخفى على السادة القراء أننى ترددت كثيراً فى الرد على تلك الحملة[*] الهوجاء والتى قامت على مجموعة كبيرة من الشتائم التى نادراً ما نجدها فى أى قاموس الشتائم. الحملة التى قامت بها مجموعة من الكاتبات والتى تصور خير تصوير طبيعة المرأة العربية، تلك الطبيعة التى تقوم على الخلط والرغى والثرثرة والخروج عن الموضوع.

نعم ترددت كثيراً فى أن أقوم بالرد وخاصة أننى تعلمت من الكاتب والأديب الكبير عباس العقاد أن خير طريق للسخرية من الرأى وتجاهله، هو عدم القيام بالرد عليه، إذ أن الرد قد يتضمن نوعاً من الإعتراف بأهمية الرأى الذى تقوم بالرد عليه، تماماً كما تقول إن الضرب فى الميت حرام، وهل نجد آراء سيئة مثل تلك الآراء التى تناثرت على لسان بعض الكاتبات فى تلك القضية، قضية الأدب والمرأة.

ولكننى وجدت أنه من الضرورى القيام بالرد لتوضيح موقفى من جهة، ولمناقشة الآراء الإيجابية والبناءة التى وردت فى رد بعض الكاتبات وبعض النقاد.

والواقع أننا فى غياب الحركة النقدية، فى غياب حالة اليقظة واللجوء إلى الكسل والنوم، يمكننا أن نفعل أى شئ. يمكننا أن نقول عن مجموعة من الكلمات المتقاطعة إنها تعد أدباً. يمكن لأى كاتب أو كاتبة أن يكتب أى كلام

[*] أثيرت هذه الحملة بمجلة الإذاعة والتليفزيون التى تصدر بالقاهرة.

من نوع الكلام الذى يدور فى صالونات المنازل وداخل المطبخ، ثــم تقــوم أبواق الدعاية بالنفخ فيه وبحيث يتحول الكلام الفارغ، الكلام بلا معنى، كلام الثرثرة إلى أن يقال عنه إنه من الأعمال الأدبية العظيمة، والروايات الخالدة.

لقد أصبحنا فى حالة يرثى لها. فقدنا معيار التمييز بين الأشيــاء. لــم نعد نجد لدينا الشجاعة فى الرد والنقد. إننا فى الواقع فى أمس الحاجــة إلــى إعــادة تقييم حركتنا الفكرية والأدبية والنقدية. وإذا لــم نفعــل ذلــك وبكــل شجاعة، فإن العالم سيسخر منا لأننا فضلنا المجاملة على النقد الجــاد. قمنــا بالــدعاية لأعمال مكتوبة يقال عنها ظلماً وعدواناً إنها داخلــة فــى دائــرة الأدب، والأدب منها براء. أعمال لا تساوى ثمن الحبر الــذى اســتهلك فــى طبعها. أعمال تؤدى بالإنسان إلى حالة من التخلف الذهنى. أعمال لا تدخــل فى دائرة الأدب من قريب أو من بعيد. ومن هذه الأعمال، ما تسميه كاتبــات مصر، بأنه أدب، وكأنهن يحسبن أن العمل الأدبى ليس له قواعد وليس لــه شروط محددة، شروط ينبغى مراعاتها.

ومنذ سنوات بعيدة أخذت فى قراءة الإنتاج المطبوع لمجموعة كبيرة من الكتاب والكاتبات وقد ركزت بصفة خاصة على إنتاج الكاتبات لأســباب عديدة سيعرفها القراء والقارئات بعد قليل. وقد أثار دهشتى أن إنتاج الكاتبات، إنتــاج النساء لا يدخل فى دائرة الأعمال الأدبية من قريب أو من بعيد. لــم أجد فى عالمنا العربى من مشرقه إلى مغربه امرأة واحدة يمكن أن نقول عنها إنها أديبة حتى إذا استعملنا الرأفة وجبران الخاطر. لقد فوجئت بأننا ما زلنــا نخلط بين الكتابة الصحفية والكتابة الأدبية. أصبحت كــل مــن تكتــب فــى الصحف تظن نفسها أديبة. تماماً كما نقول عن الشباب الذى يتم تعيينه بوزارة الثقافــة، إنه لابد أن يكون مثقفاً، لابد أن يكون أديباً، لابد أن يكون مفكــراً، فى الوقت الذى لا نجد صلة تربطه بالثقافة والأدب والفكر إلا فى كونه يعمل ولو عملاً إدارياً بوزارة الثقافة مثلاً.

لقد ركزت كما قلت منذ سنوات بعيدة، على قراءة إنتـــاج الكاتبــات وذلك لمعــرفة حقيقة الأقوال التى قيلت عن المرأة بصفة عامـــة، والمــرأة العربية بصفة خاصة، الأقوال التى نجدها عنــد كثــير مــن كبــار الكتــاب والمفكرين والفلاسفة.

فقيل عن المرأة العربية أن طبيعتها تختلف عن المـــرأة الأوروبيـــة. المرأة العربية تميل باستمرار إلى الخلط والجمع بين الأضداد والمتناقضـــات. لاحظوا أيها السادة القراء، نظام الطهى عند المرأة العربية – وذلك فيما يقول أحد المستشرقين الكبار – ستجدون نظام الطهى عند المرأة العربية قائماً على وضع كثير من الأشياء والتى قد لا نجد صلة بينها. وضعه فى إناء الطـــهى وذلك حتـــى ينتج عنه طبخة أو لبخة قد تؤدى إلـــى ضـــرر كبـــير بمعـــدة الإنسان. هذا النظام الذى نجده فى الطهى، بل نجده فى زى المـــرأة العربيـــة أيضاً يدلنا على القفزات الفجائية وعلى الجمع بين أضداد ومتناقضات.

وحينما أخذت فى قراءة أعمال الكاتبات العربيات، قلت لنفسى إن هذا الرأى يعد صادقاً إلى حد كبير. لقد أخذت أتنقل من عمل إلى عمـــل من إنتاج الكاتبات وكلما انتهيت من القراءة، كان يتأكد لدى اعتقاد بأن ما أقرأه يمكـــن أن يكون داخلاً فى أى مجال إلا مجال الأدب ومجال الفكر الفنى المتميز.

وتصحيحاً لكثير من المفهومات الخاطئة التى تناثرت فى رد بعـــض الكاتبات على ما قلته حول قضية المرأة والأدب، أبادر بالقول بأنه ليس مـــن الضرورى أن نجد لمن يقوم بنقد عمل أدبى، أعمالاً أدبية. لقد خلط الـــرد أو الهجـوم بين طبيعة العمل الأدبى والذى يعد نوعاً من الفن، وبين طبيعة النقد الأدبى والذى يعد علماً إلى حد كبير. يجب أن نضع ذلك فـــى اعتبارنـــا إذا أردنا لأنفسنا ازدهاراً فى مجال الإنتاج الأدبى والنقد الأدبى. أما إذا لم نفعـــل ذلك فسنظل فى حالة فقدان الوعى، فقدان العقل.

إننى حينما أصدرت حكمى على كتابات المرأة العربية، والتى يقال عنها خطأ، إنها تدخل فى دائرة الأدب، والأعمال الأدبية، لم أكن فى هذا الحكم متعجلاً. وأرجو من الكاتبات الفاضلات الرجوع إلى أقوالى حول أكثر القضايا الأدبية وقد قلت برأى محدد فى كل قضية من القضايا وكم دارت الآراء والمناقشات حولها. ولكن ماذا أفعل، وآرائى كلها منشورة فى صحف ومجلات أدبية وغير منشورة فى كتب الطهى والتفصيل. الكتب التى تحرص عليها المرأة باستمرار. آرائى لا توجد فى واجهات محلات الأزياء.

والقضية التى أثرتها فى اللقاء الصحفى بمجلة الإذاعة والتليفزيون لم تكن جديدة تماماً كما توهمت بعض الكاتبات، بل أثرتها فى أكثر من بلدة عربية ومن بينها السودان والجزائر وقد قامت بعض الكاتبات فى البلدين بالرد علىّ، وإن كان الرد لم يتضمن أى نوع من أنواع السخرية أو الشتائم.

كنت أنتظر من كاتبات مصر الوقوف وقفة متأنية عند كل كلمة أو كل مصطلح قلت به. ويقينى أنهن لو كن قد فعلن ذلك، لقمن بتجنيب أنفسهن والقراء أيضاً هذا الخلط الرهيب . إننى رجل اشتغل بالفلسفة منذ أكثر من ثلاثين عاماً وقد تعلمت من الفلسفة الدقة فى استخدام الكلمة أو المصطلح. إن أخطر شئ هو الكلمة المطبوعة، ومن هنا فلابد أن نكون حريصين على الدقة، كل الدقة فى استخدام كلماتنا. وكم أدت كلمة إلى اشتعال الحرب بين دولة وأخرى.

لقد ذكرتنى ردود أكثر الكاتبات بتلك الحملة على كتاب الفتوحات المكية لابن عربى وقد تبين أن أكثر من اشتركوا فى تلك الحملة لم يكلف الواحد منهم نفسه قراءة مؤلفات الرجل. لقد ذكرتنى الردود، بالهجوم الذى حدث مؤخراً فى مصر على الفلسفة الوجودية ورجالها بعد قيام أحد الشبان بقتل والده ووالدته وقيل بوجود بعض الكتب فى الفلسفة الوجودية عنده فى

مكتبته. وقد تبين لى أن أكثر من قاموا بالحملة على الفلسفة الوجودية ورجالها، لم يكونوا مؤهلين للحكم على تلك الفلسفة ولم يقرأ الواحد منهم كتاباً فى الفلسفة الوجودية.

حينما قرأت ردود الكاتبات أو بعضهن قلت لنفسى: إننى كنت على حق إذن حينما قلت منذ سنوات بعيدة بأن المرأة العربية امرأة نمطية تقليدية لا صلة لها بالإبداع من قريب أو من بعيد. حينما فضلت المرأة الأوروبية على المرأة العربية. حينما قلت بالتعارض التام بين الزواج والإبداع الأدبى والفلسفى بصفة خاصة، إلا إذا اتجه الرجل إلى الزواج بعد تكوين أفكاره واتجاهاته الرئيسية. أما إذا اتجه إلى الزواج قبل ذلك. فالويل له كل الويل. سينتهى إبداعه إلى الأبد. سيحدث له أكثر مما حدث لسقراط الحكيم قلت ومازلت أقول: إن أكثر المصائب والأهوال وأوجه الشقاء والضياع والتى حدثت لعديد من المفكرين والأدباء والفنانين، إنما تسببت فى وجودها، المرأة بصفة خاصة. والمجال الآن لا يتسع لذكر أسماء وأمثلة لا حصر لها.

نعم لقد أدركت تماماً صحة ما قلت به وما زلت أقول: إن المرأة العربية بصفة خاصة لا تجرى إلا وراء الشهرة ولفت الأنظار. فإذا سارت المرأة فى الجنازة مثلاً، فإنها تلجأ إلى العويل والبكاء ولطم الخدود لكى تلفت إليها الأنظار.

قلت هذا وقلت أكثر منه. وأنا – كما قلت – لا أعتقد برأى من الآراء إلا بعد دراسة متأنية وتأمل طويل فى صومعتى الفكرية وعزلتى التى اخترتها لنفسى. أقول هذا رداً على جانب من الجوانب التى جاءت فى ردود الكاتبات الفاضلات. أما الجوانب الأخرى التى جاءت فى الردود، ردود الكاتبات، وردود الأدباء والنقاد، فيهمنى جداً الإشارة إليها وذلك حتى لا تضيع الحقيقة وراء ضباب الأخطاء التى لا حصر لها:

أولاً: لم استخدم إطلاقاً مصطلح الأدب النسائى. ومن جانبى أقول إن هذا المصطلح أو التعبير، يعد خاطئاً تماماً، بل لا نجد له وجوداً حقيقياً، تماماً كما نقول بأنه لا وجود للعفاريت والغول. ولا يعقل بعد تحرر المرأة أن نقسم الأدب إلى أدب رجالى وأدب نسائى. لم يكن منتظراً منى على الأقل وأنا أدافع طوال حياتى عن العقل والمعقول، أن ألجأ إلى هذا التقسيم. فلسنا الآن فى عصر الحريم. وفرق- فرق كبير - بين الحديث عن المرأة والأدب، وبين الحديث عن الأدب النسائى. وإذا كنت من جانبى أقول بأننا لا نجد امرأة أديبة على وجه الحقيقة، فكيف ينتظر منى إذن أن أتحدث أو استخدم مصطلح الأدب النسائى.

ثانياً: مصطلح الذاتية استخدمته ولم يكن قصدى منه ما ورد على لسان بعض الكاتبات الزميلات، وما ورد على لسان بعض النقاد والأدباء، ومن منا ينكر الذاتية فى مجال الأدب أو الفن؟ إننا نقول: العلم نحن والفن أنا. وهذا تعبير المقصود منه أن الفن لا يمكنه أن يكون موضوعياً كما هو الحال بالنسبة لمجال العلم. لقد وردت كلمة الذاتية على لسانى أثناء الحوار قصدت منها القول بأن أعمال المرأة والتى تظن أنها تدخل فى مجال الأدب، لا تزيد عن نوع من الرغى الشخصى وأن أقوالها شخصية ملتصقة بذاتها، ولن ننتظر منها أدباً حقيقياً، أدباً عالمياً على وجه الخصوص. لقد كنت أتحدث عن شروط الأدب الحقيقى، أتحدث عن جائزة نوبل وموضوعيتها. أتحدث عن مقاييس الأدب العالمى والذى نجده فى أعلى صوره عند شكسبير ونجده بدرجة أقل نسبياً عند أبى العلاء المعرى والمتنبى. نجده يقترب من العالمية، عند أمثال توفيق الحكيم ونجيب محفوظ. لقد أخذت فى تحليل أعمال هؤلاء الأدباء، ودافعت من بعض الزوايا عن جائزة نوبل، وبعد ذلك سئلت عن موضوع الأدب عند المرأة العربية، وقلت بالرأى الذى

كونتـــه لنفسى منذ سنوات طويلة وأعلنته فى أكثر من مناســـبة وفـــى أكثر من بلدة عربية وما زلت أتمسك به.

ولا أخفى على القراء أننى إذا وجدت مستقبلاً عمـــلاً أدبيـــاً صادقـــاً للمرأة العربية فإننى سأكون من أول المحتفلين بصدروه وســـوف لا أتـــردد يومهـــا فى أن أقول: لقد آن الأوان لتغيير نظرتى لكتابات المرأة العربيـــة. أما الآن فإننى لا أجد حولى أدباً صادقاً، أدباً حقيقياً للمرأة العربية. وكم أحطنا شعر الخنساء قديماً بهالة أكبر من حجمها الحقيقـــى، وكـــم اختلطـــت علينـــا الأوراق الآن، وبحيث أصبح كل كلام يعد أدباً.

ما الفرق يا سادة بين هذا الرغى الذى تطلقون عليه أدبـــاً وقصصـــاً وبين مجرد تسجيل حادثة من الحوادث فى دفتر يوميات أمين الشرطة. فـــهل نقـــول عن كل أمين شرطة إنه يعد أديباً. هل نقول عن كل سيدة تقوم بالرغى والثرثرة مع جاراتها، هل نقول عنها بأنها أديبة؟!!!.

من المؤسف له أننا وبعد ضعف الحركـــة النقديـــة عندنـــا وبحيـــث أصبحت فى خبر كان، اتجهنا إلى الدجل والفـــهلوة والحركـــات البهلوانيـــة، حركات السيرك. ومع احترامى الشديد لوسائلنا الإعلامية والدور العظيم الذى تقـــوم به، إلا أننى لا أتردد فى القول بمسئوليتها فى مجـــال التركـــيز علـــى أعمال تحسبها أدباً وما هى بأدب وإن كان أكثرهم لا يعلمون.

ثالثاً: لم أتحدث فى الحوار الذى أجرى معى عن الأدب عنـــد المـــرأة غـــير العربية، أى المرأة الأوروبية بصفة عامة. ولذلك أقول بـــأن الأعمـــال التى تفضلت بذكرها الكاتبات الفاضلات فى ردودهن، وأيضاً الأدبـــاء والنقاد، لا تدخل فى دائرة الحوار والمناقشة لأننى ركزت فى حديثـــى على كتابات المرأة العربية. ويوم أفرغ من قـــراءة أعمـــال الكاتبـــات الأوروبيـــات فى مجال الأدب، سأصدر حكمى بشأن تلـــك الأعمـــال

لأننى ألتزم بعدم إصدار حكم إلا بعد دراسة طويلة متأنية، إحقاقاً للحق ووضعاً للأمور فى نصابها، والتزاماً بالشهادة أمام محكمة التاريخ.

رابعاً: توجد جوانب مشرقة ووضاءة فى ردود بعض الزميلات الكاتبات وقد استفدت منها الكثير وإن كنت اختلفت معهن فى الرأى. توجد أيضـــا جوانب تبشر بالخير فى بعض الردود لأنها تخلصت إلى حد كبير من الإنفعال الغاضب ولغة السخرية والشتائم.

خامساً: المناقشة الهادئة التى سادت فى تحليل القضية والتى نجدهـــا عنـــهن مجموعة من الأدباء والنقاد، والمناقشة المليئة بالشتائم والعويل والبكاء على الأطلال والتى نجدها فى أكثر الردود مـــن جـــانب الكاتبـــات، تجعلنـــى أسأل سؤالاً محدداً هو: ألم أكن علـــى حـــق حيـــن قلـــت بالحرف الواحد: فى مجال الأدب الصـــادق لا تنجـــح المـــرأة، لأن المرأة ذاتية، ومعظم أعمالها الأدبية - إن لم تكن كلها - لا تســـاوى شيئاً ، ولكن الدعاية المكثفة هى التى تجعل لأعمال من يقـــال عنـــه، أدبيات، قيمة من أثر الضجيج . أما من خلال المنظور النقـــدى فإنها قد لا تساوى شيئاً ولن يكتب لها الخلود أو الإســـتمرار. هـــل كنـــت متجنيـــاً على المرأة حين قلت بهذا الرأى ؟ اعتقادى الذى لا أتزحزح عنه قيد أنملة، أننا إذا وقفنا طويلاً عند كلمـــة <u>الصـــادق</u>، أى الأدب الصادق، فلن نجد عند المرأة العربية فى قديمها وحديثها أدباً ذا قيمة. ومن يحاول البحث عن أدب صادق عند المرأة العربية فوقته ضـــائع عبثاً، تماماً كمن يحاول العثور على قطة سوداء فى الظلام الدامـــس، أو من يحاول البحث عن الخرافة فى أرض المعقول.

إننا فى أمس الحاجة إلى إعادة تقييم الأحكام التى كوناها لأنفسنا ومـــا أكثر تلك الأحكام، بل إنه لا حصر لها. لقد قلت بعدم وجود فلاسفة فى عالمنا العربى ومنذ ثمانية قرون. وقد نشر هذا الرأى وقتها فى أكـــثر مـــن مجلـــة

وصحيفة عربية وغير عربية وتمت مناقشته بطريقة موضوعية ولـم يلجأ الرجال إلى الشتائم والهجوم. قلت إن شاعرية العقاد أعظم من شاعرية شوقى. قلت بأنه يجب علينا الإستفادة من كل ما هو غربى أوروبى وخاصة فى مجال الفنون والآداب. ويقينى بأننا إذا كنا قد سعينا إلى ذلك منذ زمان طويل لكنا قد جنبنا أنفسنا الإنهيار الفنى والأدبى الذى نشعر به الآن فى وطننا العربى. فكل من تجيد الصراخ أمام الميكروفون، نقول إنها تعد مطربة رغم أنها قامت بإزعاج الناس عن طريق صوتها. وكل من تعبث أنامله بالآلات الموسيقية، نقول بأنه يعد موسيقاراً..... وهكذا إلى آخر الأمثلة والتى لا حصر لها.

لقد قلت أثناء إجابتى عن السؤال الذى يتعلق بكتابات المرأة العربية، وهل نجد لدينا أدبية؟ بأننا إذا اعتقدنا بنظرية الفن للفن، أو بنظرية الفن للمجتمع، فإن ذلك سيكشف لنا عن التهريج الأدبى الذى نعيشه. سيتبين لنا أوجه الضعف والخروج عن القواعد الفنية إذا قمنا بتأليف أغنية وطنية، أو فيلم دينى أو مسلسل من المسلسلات الدينية، إنها تسميات خاطئة، وكأن الأغانى الأخرى أو الأفلام والمسلسلات الأخرى تعد معبرة عن اللادين وعن الكفر!!!

سادساً: فيما يتعلق بالوجه المظلم من الحوار أو تلك الردود من جانب الزميلات الفاضلات، فإننى لا أود الدخول فى مهاترات كلامية. واعتقادى الراسخ أن الفرد منا لا يلجأ إلى لغة السخرية والشتائم إلا إذا فقد الحجة والدليل، تماماً كمن يلجأ إلى الإرهاب عن طريق استعمال يديه أو إطلاق الأعيرة النارية فى حالة عدم تمكنه من مناقشة الخصم عن طريق الكلمة الهادئة. أليس من حق الكاتب أن يقول برأيه. وهل استخدمت فى إجاباتى عن الأسئلة التى وجهت إلىّ عن قضية المرأة العربية والأدب كلمة تحمل فى طياتها

السخرية والشتائم. إننى لا أجد مبرراً لذكر كلمات الشتائم فى الردود، وليرجع القراء والقارئات الأعزاء إلى العددين، ٢٧٣٦،٢٧٣٧ من أعداد مجلة الإذاعة والتليفزيون حتى يدرك تماماً صدق ما أقول به. وليقارن ما جاء بالعددين، وما جاء بالعدد ٢٧٣٣، وهو الذى تضمن الحوار معى، حتى يدرك تماماً صحة ما قلت به.

أى شهرة أسعى إليها الآن، وأنا أقول بهذه الآراء منذ ما يقرب من ربع قرن من الزمان. كنت أنتظر من الكاتبات الفاضلات الرجوع إلى المجلات والصحف المصرية والعربية، وغير العربية، بل على الأقل كنت أنتظر منهن الرجوع إلى أرشيف المجلات والصحف وهذا أضعف الإيمان، وخاصة أنه يبدو لى أن المرأة العربية تتكلم كثيراً ولا تقرأ إلا أقل القليل. كنت أنتظر منهن متابعة بعض برامجنا الإذاعية والتليفزيونية حتى يدركن تماماً أننى طالما دافعت عن المرأة، بل إننى حاولت تأويل آراء توفيق الحكيم وبحيث يفهم منها أنها فى صالح المرأة وذلك اعتماداً على كتابه الرائع "تحت شمس الفكر".

لا أخفى على السادة، القراء الأعزاء بأننى حين قرأت الردود على بعض الزملاء والزميلات من البلدان الأوروبية، وممن لديهم الإهتمام بالثقافة العربية وقضاياها، لا أخفى على القراء أننى قد شعرت بالأسف الشديد. إننى حين تحدثت فى الحوار، تحدثت عن الأدب **الحقيقى**، الأدب الذى يحاول أن يشق طريقه نحو **العالمية**، وأننى ما تحدثت عن أدب الدرجة العاشرة المنخفضة، أدب الثرثرة والكلمات المتقاطعة، إن صح أن للثرثرة أدباً، أو أن الكلمات المتقاطعة تعد أدباً أو فناً.

ورغم ذلك كله فإننى أشكر للكاتبات الزميلات الفاضلات، الإهتمام الكبير بمناقشة أبعاد القضية التى أثيرت، القضية التى خصص لها القائمون على مجلة الإذاعة والتليفزيون صفحات كثيرة فى أعداد متوالية. وكم استفدت

– كما قلت أكثر من مرة – من المناقشات المستفيضة من جانب الكاتبات الزميلات، والأدباء والنقاد واختلاف الرأى لا يفسد للود قضية. وكما قال الفيلسوف أرسطو قديماً وقبل الميلاد: أحب أفلاطون وأحب الحق، ولكن حبى للحق أقوى.

وكم أرجو أن أجد فى عالمنا العربى وفى مستقبله القريب أو البعيد، إمرأة واحدة تقدم لنا أدباً حقيقياً، أدباً صادقاً، أدباً لا تصنعه أبواق الدعاية والطبل الأجوف. أدباً لا يكون معبراً عن الصعود إلى الهاوية وبئس المصير. أدباً لا يستند إلى الضحالة الفكرية والفراغ الثقافى. هذا ما أرجوه، وإن كنت أعتقد اعتقاداً لا يخالجنى فيه أدنى شك، بأنه رجاء لا يمكن تحقيقه سواء فى المستقبل القريب، أو فى المستقبل البعيد.

المحتـويات

الفصل الرابع:

الفصل الخامس :

الفصل السادس:

الفصل السابع:

الفصل الثامن:

الفصل التاسع:

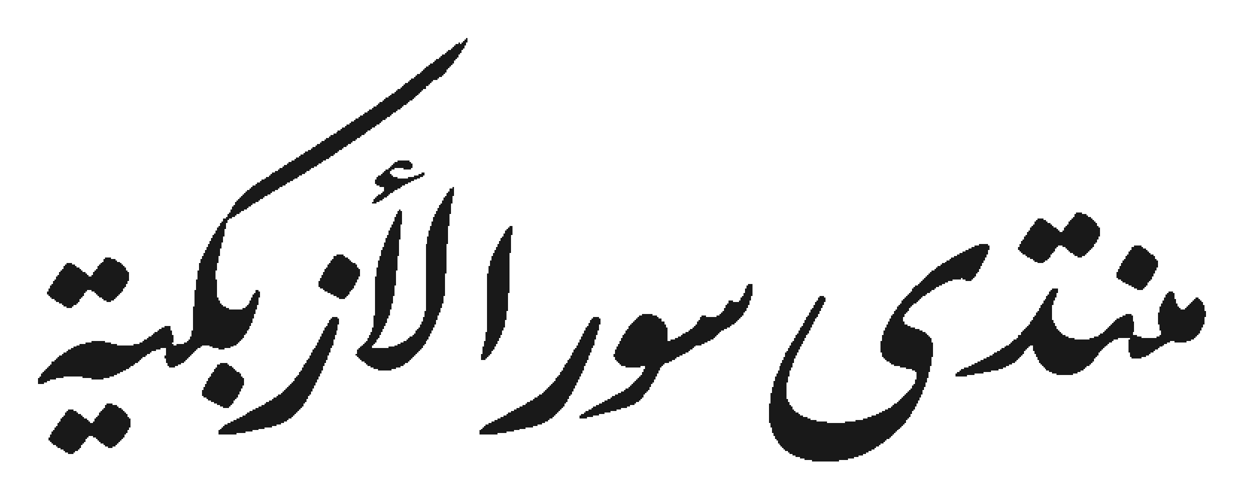
كتب للمؤلف

- النزعة العقلية فى فلسفة ابن رشد - القاهرة - دار المعارف - الطبعة السادسة.
- الفلسفة الطبيعية عند ابن سينا - القاهرة - دار المعارف - الطبعة الثانية.
- مذاهب فلاسفة المشرق - القاهرة - دار المعارف - الطبعة الحادية عشر.
- تجديد فى المذاهب الفلسفية والكلامية - القاهرة - دار المعارف - الطبعة السادسة.
- ثورة العقل فى الفلسفة العربية - القاهرة - دار المعارف - الطبعة السابعة.
- الميتافيزيقا فى فلسفة ابن طفيل - القاهرة - دار المعارف - الطبعة الثالثة.
- الفلسفة الإسلامية - دار المعارف.
- العقل والتنوير فى الفكر العربى المعاصر - القاهرة - دار قباء - الطبعة الثانية.
- الفلسفة العربية والطريق إلى المستقبل - القاهرة - دار الرشاد.
- الفلسفة العربية (مدخل جديد) دار لونجمان.
- محاضرات فى تاريخ العلوم عند العرب - القاهرة - جامعة القاهرة - فرع الخرطوم.
- محاضرات فى الفلسفة الإسلامية - القاهرة - معهد الدراسات الإسلامية.
- الفيلسوف ابن رشد ومستقبل الثقافة العربية - القاهرة - دار قباء (أربعون عاماً من ذكرياتى مع فكره التنويرى).
- الأصول والفروع لابن حزم - تحقيق بالاشتراك - دار النهضة العربية.
- الإسلام دين العلم والمدنية للشيخ محمد عبده - تحقيق ودراسة نقدية الطبعة الثانية - دار قباء - القاهرة.
- رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده - تحقيق وتصدير - المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة.
- يوسف كرم مفكرا عربيا ومؤرخا للفلسفة - كتاب تذكارى - إشراف وتصدير المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة.

- الدكتور أبو الوفا التفتازانى - كتاب تذكارى - إشراف وتصدير - دار قباء - القاهرة.
- الشيخ مصطفى عبد الرازق - كتاب تذكارى - المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة.
- محمد اقبال وقضية التجديد (ضمن كتاب عن محمد اقبال - القاهرة - مكتبة مدبولى)
- تصدير لكتاب الدكتور عثمان أمين (محمد عبده رائد الفكر المصرى) القاهرة - المجلس الأعلى للثقافة.
- دراسات فى الكتب التذكارية التى صدرت عن د. إبراهيم مدكور، و د.عثمان أمين. وأحمد لطفى السيد، د. شوقى ضيف، والشيخ محمد عبده، د. توفيق الطويل، د. زكى نجيب محمود (جامعة الكويت)، د. زكى نجيب محمود (المجلس الأعلى للثقافة) د. على سامى النشار، والفيلسوف ابن رشد، ويوسف كرم، د. محمد عبد الهادى أبو ريدة.
- ثورة النقد فى عالم الأدب والفلسفة والسياسة - دار الوفاء - الإسكندرية.

ويصدر قريبا للمؤلف:

- هل فى عالمنا العربى المعاصر فلاسفة؟
- نحن والتراث.
- ابن باجة فيلسوفا مغتربا.
- ثقافة النور وخرافة الظلام.
- كتاب تذكارى عن الأب الدكتور جورج قنواتى (إشراف وتصدير).
- كتاب تذكارى عن الدكتور زكى نجيب محمود (إشراف وتصدير).


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET